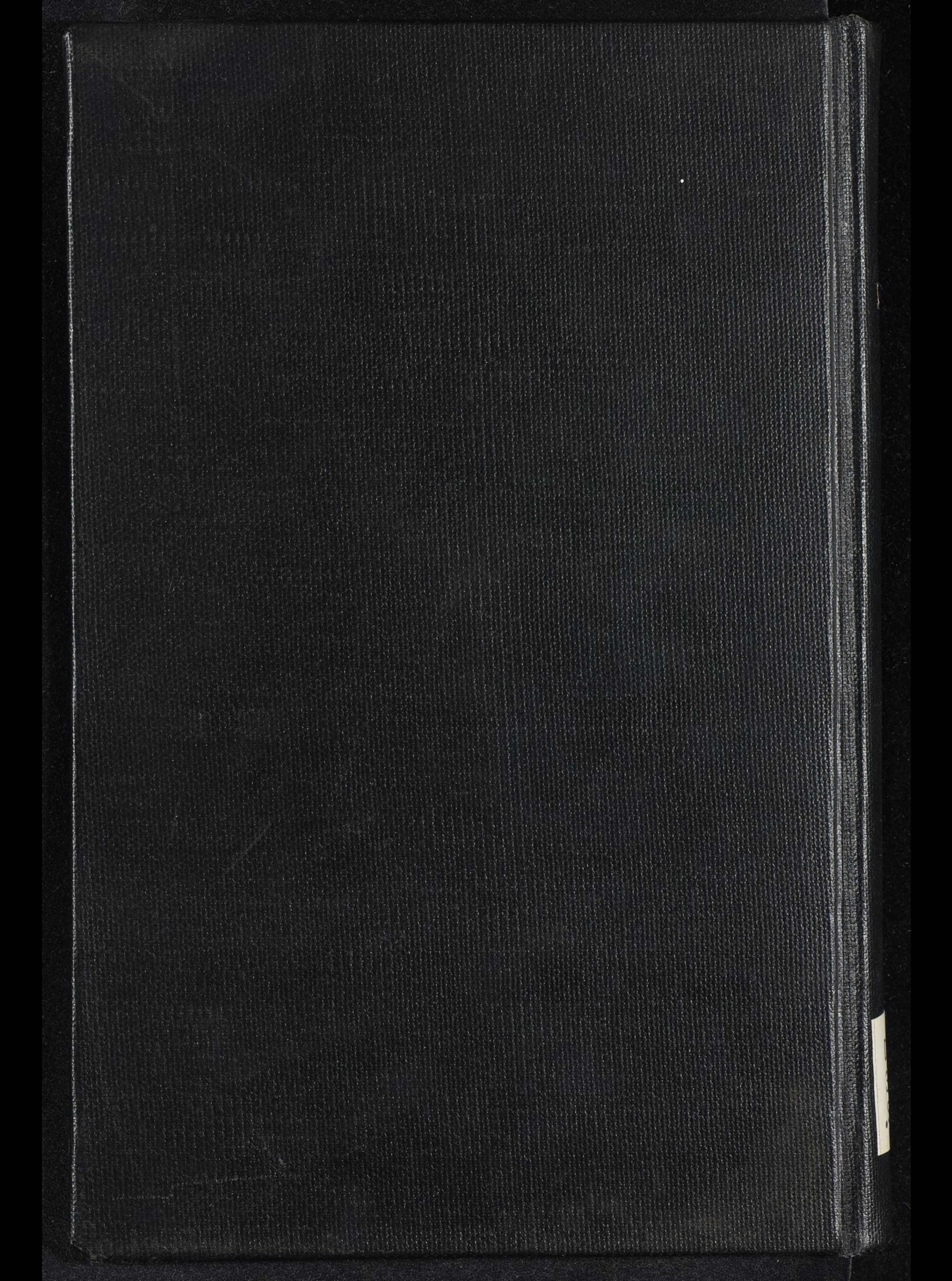
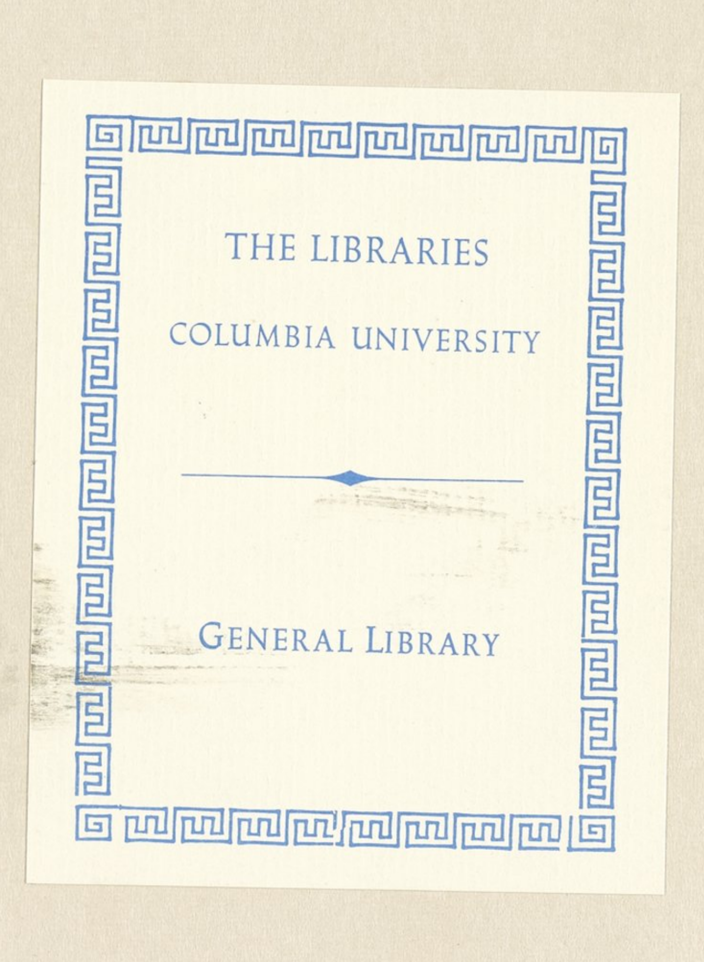
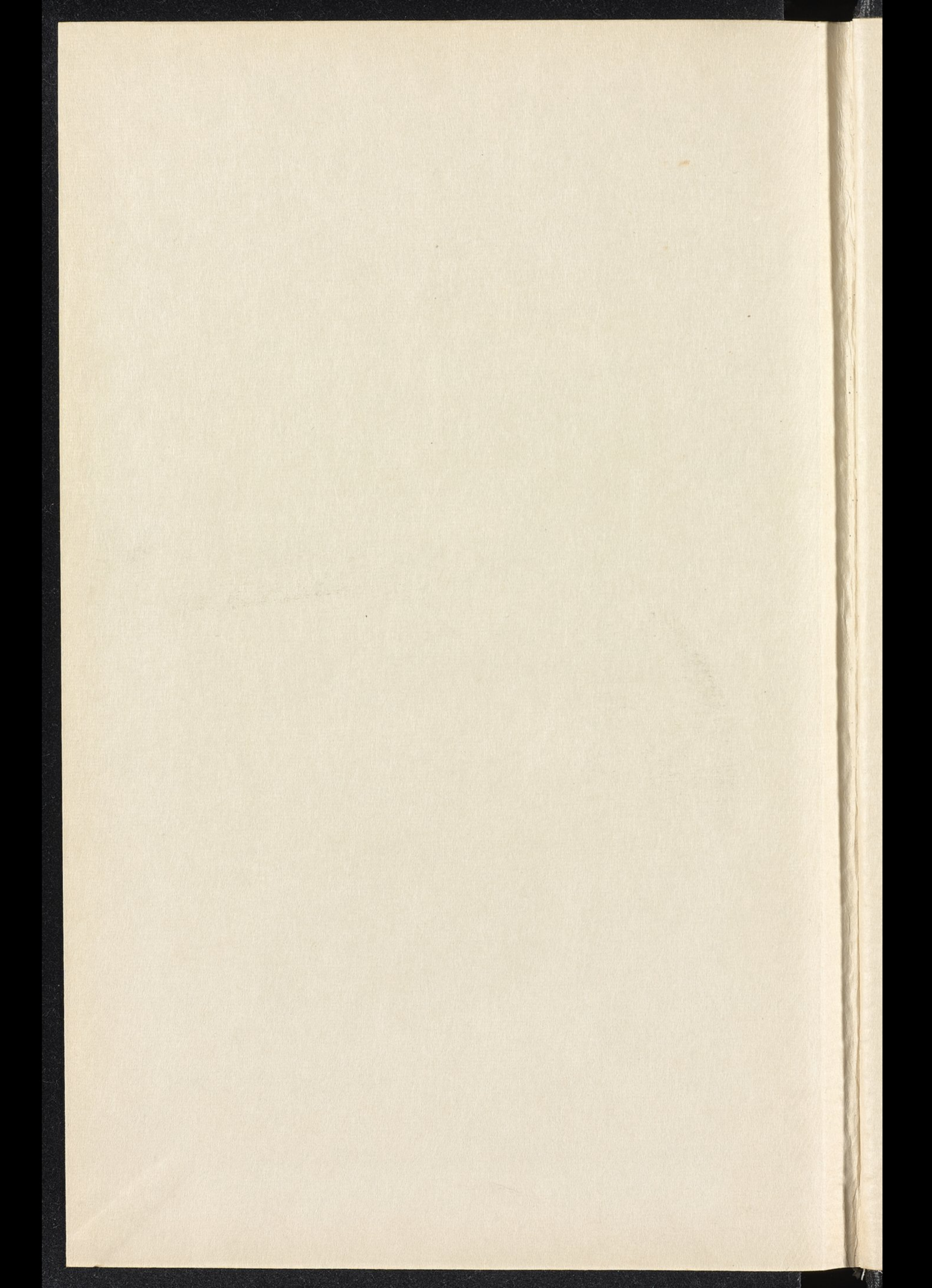
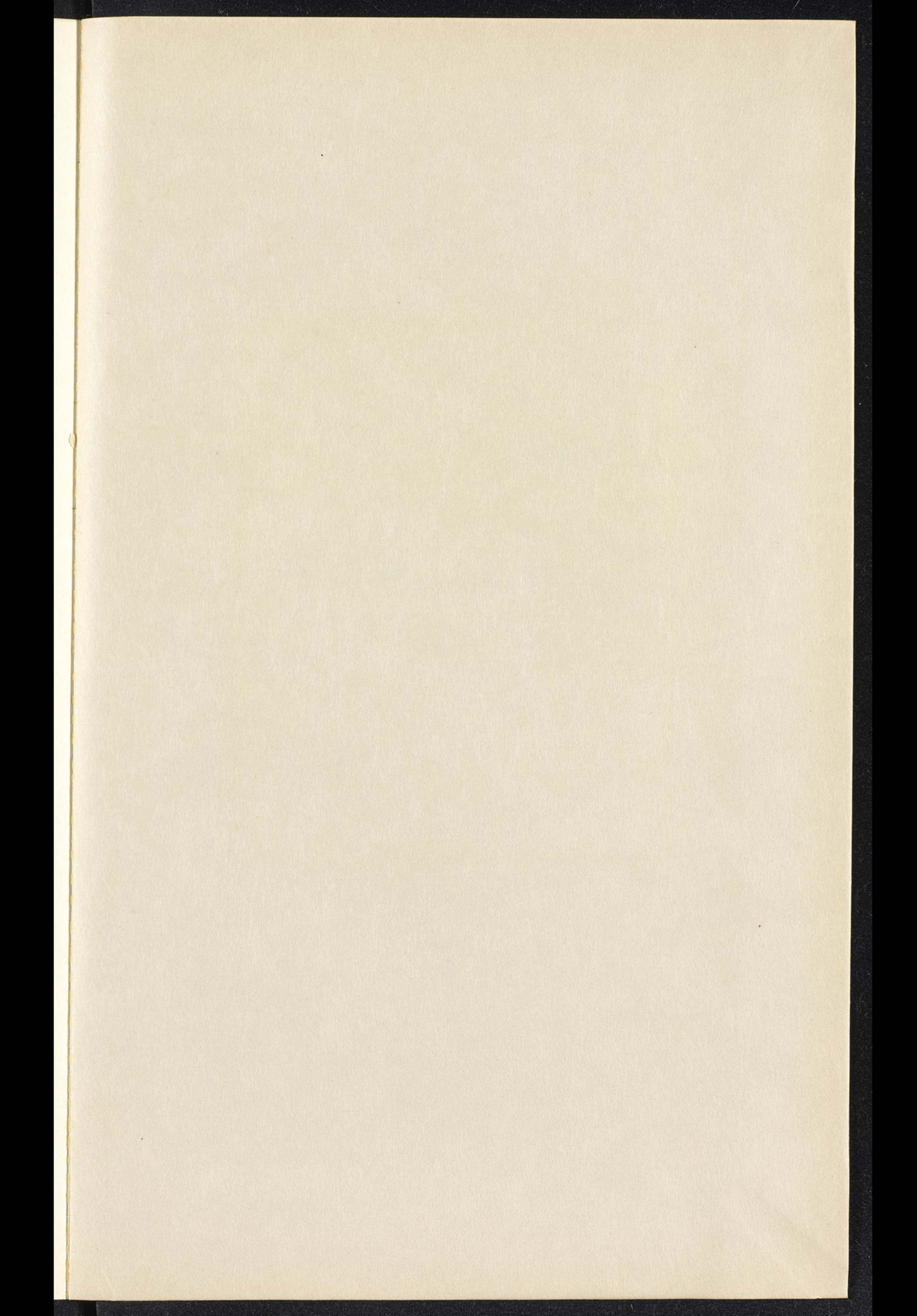
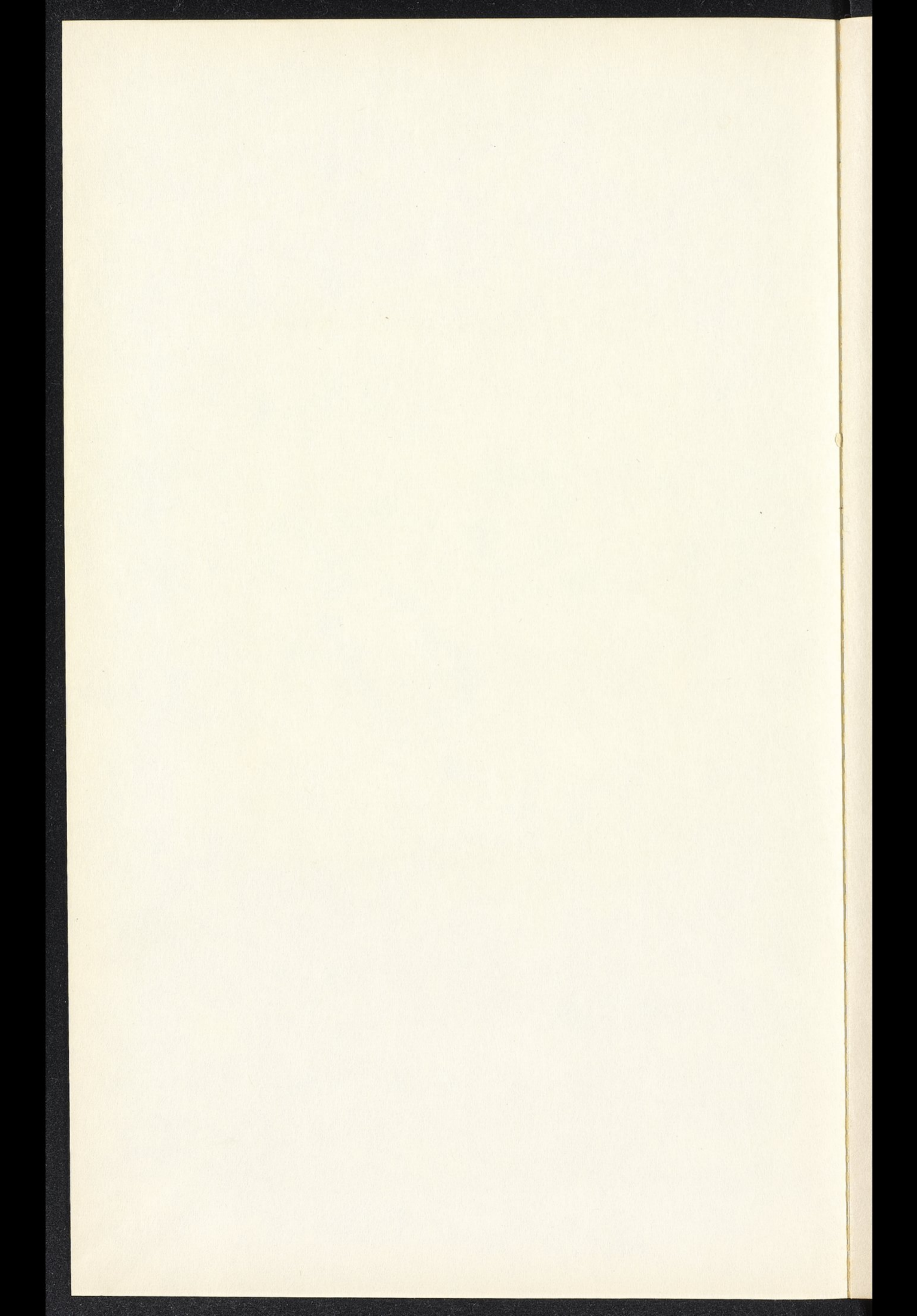
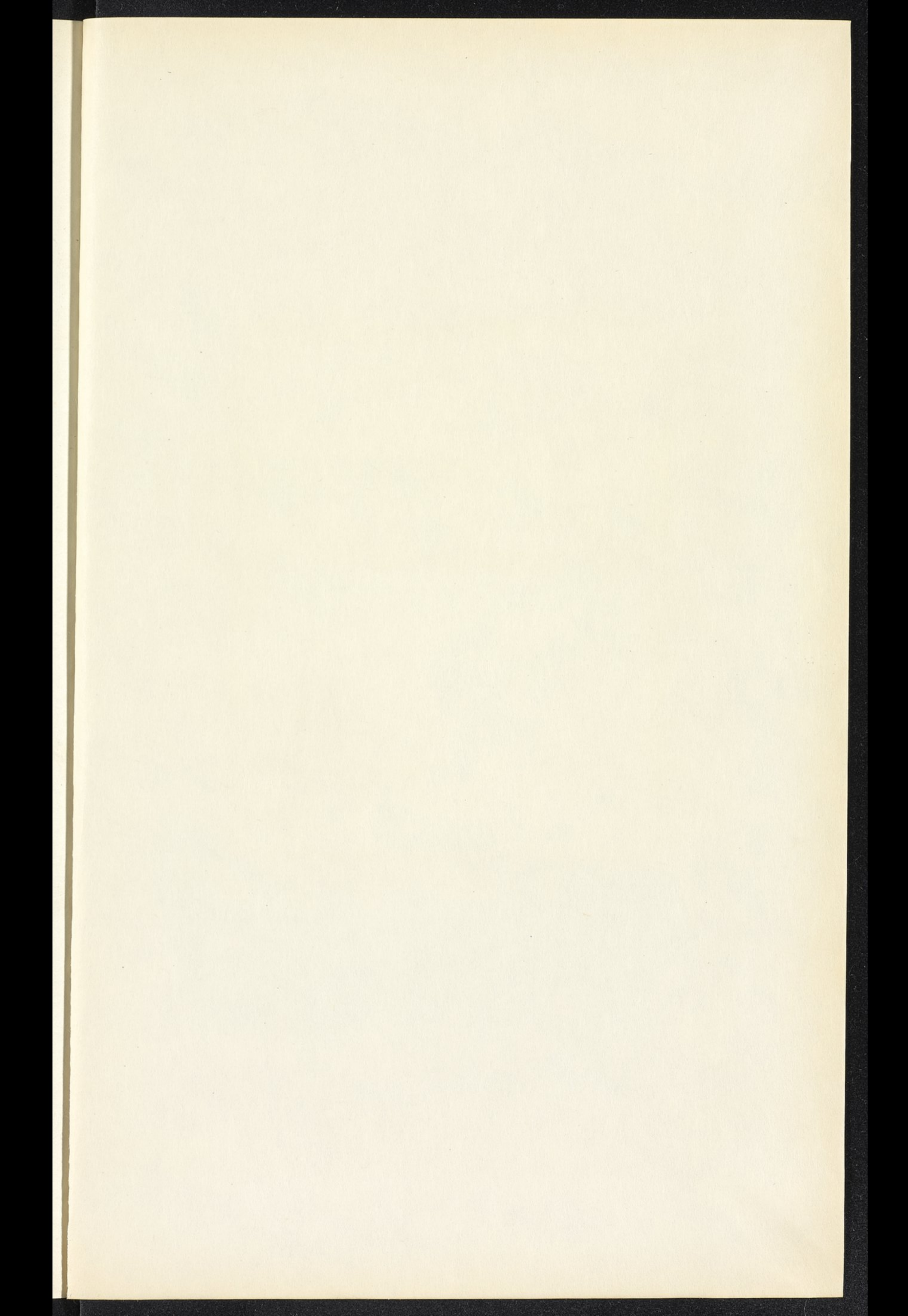



THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY
GENERAL LIBRARY









الشيخ ابو العباس احمد بن خالد الناصري

كتاب



لأخبار دول المغرب الاقصى

الجزء الاول

تحقيق وتعليق ولدى المؤلف :

الاستاذ جعفر الناصري — والاستاذ محمد الناصري

دار الكتاب

الدار البيضاء

١٩٥٤

مقدمة

لقد كان لظهور فن الطباعة العربية بالشرق فى أوائل القرن السابع عشر الفضل الاكبر فى ما للشرق العربى اليوم من ازدهار فكرى وثقافى ، اذ بفضل المطبعة العربية التى عرفتها لبنان فمصر ثم بقية الامم العربية أمكن أن يزاح غبار النسيان والاهمال عما كاد يندثر من المخطوطات العربية ، ووجد الكاتب العربى مجالا أوسع مهد له سبيل نشر منتوجاته ، وربط الصلة بينه وبين قرائه ؛ وتقرب الشرق الاسلامى الى حد بعيد من العالم الغربى بما أخذت تنشره مطابع الشرق من كتب تنقلها من مختلف اللغات ، وتقدمها سهلة ميسورة الى قراء العربية .

وعلى العكس من ذلك كان لفقد فن الطباعة بالمغرب أثره فى تخلف المغرب عن ركب الحضارة الفكرية خلال القرنين الاخيرين . وما نعنى أن المغرب كان يعدم خلال تلك الفترة رجال الفكر والقلم ، وانما كان هؤلاء - بحكم انعدام وسائل النشر - مجبورين على الرضى بقلة الانتاج ، وعلى أن يتركوا منتوجاتهم مستسلمة لنوم عميق فى رفوف الخزائن الخاصة ، يتوارثها الابناء عن الآباء فى ضمن ما يتوارثونه من أمتعة وأثاث ، وكثيرا ما يجنى الابناء على تلك التركة فتندثر دون أن يدركوا فائدتها فضلا عن أن يقدروا قيمتها .

واذا استثنينا المطبعة الفاسية الحجرية التى قامت بمحاولة طيبة لتدارك هذا النقص الشائن بوسائل أقل ما يقال عنها انها بدائية الى حد بعيد فى فن الطباعة الذى كان مزدهرا اذ ذاك فى الشرق ، اذا استثنينا ذلك لانجد فى هذا الميدان شيئا مذكورا مع الاسف الشديد .

وقد كان لثلة قليلة من أعلام الفكر بالمغرب فضل التفكير في التوجه الى مطابع الشرق لنشر مؤلفاتهم ، وكان من بين هؤلاء الافذاذ مؤلف كتاب الاستقصا ، في أخبار دول المغرب الاقصى . فقد طبع كتابه هذا بمصر سنة ١٨٩٤ م .

فأمكن بذلك أن يكشف الستار عن كتاب كاد - لولا همة مؤلفه - أن يضاف الى زمرة المخطوطات المغربية القيمة التي تسطو عليها الارضة في زوايا خزانتي الرباط وفاس ، وفي المكاتب الخاصة التي لا يعرف الا القليلون بعض محتوياتها .

وبالرغم من ذلك لم يتيسر لهذا الكتاب الرواج الكافي كما لو طبع في بلاد المغرب ، فوجد القراء المغاربة منه ما يكفي من النسخ لشفاء غليلهم .

وهكذا ظل هذا الكتاب المغربي أصلا وفصلا يتسرب الى المغرب على أنه منحة شرقية ، فتتخطفه الايدي وتحتفظ بـه الخزائـن كتحفة عزيزة نادرة . ولم يمض على طبعه غير يسير حتى أصبح - كما يقول المثل العربي - أعز من بيض الانوق .

واذا كان للمغرب في عزاته التاريخية في العصور الاخيرة بعض العذر في عدم توفره على المطابع العصرية الحديثة ، فليس له عذر اليوم في أن يظل عالة على الشرق العربي يتوجه اليه على بعد المسافة ملتمسا منـه أن يعرف العالم بمنتوجاته عن طريق الطباعة .

لذلك كان من الاهداف الكبرى التي توختها مؤسسة دار الكتاب أن تعمل على نشر ما أقبرته السنون من الذخائر المغربية لتسمع صوت المغرب من المغرب ، وتساهم بذلك في تغذية حركة النهضة الفكرية التي أخذت منذ أمد غير يسير تشق طريقها في هذه البلاد ، وتمضي في تطور سريع .

ومنذ تأسست هذه الدار سنة ١٩٤٨ أخذت تنشر في مطابع الشرق العربي بعـض منتوجات المغاربة ، ولكنها سعيدة اليـوم بأن تقدم مطبعتها بالمغرب هذا الكتاب التاريخي القيم الحافل بتفاصيل الاحداث التاريخية التي عرفها المغرب منذ أقدم عصوره الى أواخر حياة مؤلفه سنة ١٨٩٣ م .

ولقد كانت أمنية عزيزة داعبت خيالنا منذ تأسس مشروع دار الكتاب أن يكون هذا الكتاب فى طليعة منشوراتنا ، ذلك لانه بحق الكتاب الجامع - فى غير تطويل ولا اقتضاب - لتاريخ المغرب ، والمصدر الهام الذى لا غنى عنه لمن يريد أن يكتب عن المغرب فى عصر من العصور أو حقبة من الحقب .

وقد رأت دار الكتاب أن تقدم « كتـــاب الاستقصا » لقرائها دون أن تشفعه بتعليقات مسهبة تضيع معها الفائدة التى نظن أن مؤلف الكتاب توخاها، اذ قصد أن يكون كتابه مستوعبا لجميع عصور التاريـــخ المغربى ، وبعيدا فى الوقت نفسه عن أن يكون كتاب تحليل واستنتاج لعبر التاريخ وعظاته ، او كتاب تاريخ للرجال والاعلام ، فانما قصد المؤلف بكتابـــه - على ما نظن ، وكما يدل عليه اسم الكتاب نفسه - أن يكون استقصاء لتاريخ الدول المتعاقبة على المغرب .

ولكننا شفعنا هذه الطبعة بتعاليق مختصرة ، وفــى الوقت نفسه ذات أهمية ، تفضل باعدادها ولدا المؤلف الاستاذ جعفر الناصرى والاستاذ محمد الناصرى ؛ كما ألحقنا به بعض الاستدراكات التى كتبها المؤلـف بخطه على النسخة الاصلية التى طبعنا عنها .

وتفضل الاستاذان المذكوران بكتابة ترجمة حياة المؤلف ، وهما ولا شك أحق من يتحدث عن المؤلف ويترجم له .

وما نشك فى أن الباحث لن يعدم بين ثنايا هذا الكتاب - وقد أصبـــح الا ن سهلا ميسورا - ما يعينه على استكشاف ما لا يزال غامضا مـــن جوانب التاريخ المغربى الذى لا يزال فى حاجة أكيدة الى مزيد من البحث والتنقيب، وخصوصا التاريخ الاجتماعى والفكرى .

وقد حرصت دار الكتاب عــلى أن تقسم الكتاب أجزاء بحسب العصور التاريخية ، وهكذا تصدر الجزء الاول محتويا على تاريخ الفتـــح الاسلامى للمغرب وفترة ارتباط المغرب بالخلافة الاسلامية ، ثـم الدولة الادريسية ، ودولة زناتة .

والجزء الثانى خاصا بالدولة المرابطية ، والموحدية .

والثالث عن الدولة المرينية الى آخر دولة أبى عنان .
والرابع من دولة أبى عنان الى نهاية الدولة المرينية .
والخامس من الدولة السعدية الى وفاة المنصور السعدى .
والسادس من أخبار أولاد المنصور الى نهاية الدولة السعدية .
ويبتدىء الجزء السابع منذ بداية الدولة العلوية لينتهى عند عهد السلطان المولى محمد بن عبد الله .
والجزء الثامن منذ بداية عهد هذا السلطان الى عهد المولى عبد الرحمن حيث نخصص له الجزء التاسع والاخير الى نهاية الكتاب .

كما حرصت دار الكتاب على أن تضع للكتاب فهارس للاعلام والقبائل والاماكن ، وألحقتها بكل جزء لتسهل على الباحث سبل البحث ، وتضع بين يدى القارىء هذا الكتاب وقد اكتسى حلة زاهية جديدة لم يعرفها فى طبعته الاولى .

وقد يلاحظ من لايزالون يحتفظون بتلك الطبعة فرقا فى بعض النصوص والتعابير بين طبعة مصر وهذه . وذلك يرجع الى أننا اعتمدنا على النسخة المصرية التى صححها المؤلف بعد طبعها وكان يشطب على بعض العبارات فيها أو يتدارك فيها بعض السهو ، أو يصحح بها ما عسى أن يكون اهتدى اليه بعد طبع الكتاب بمصر . فليس اذن من التطاول فى شىء أن نقول ان طبعتنا هذه تستاثر بهذه المزية وتفضل بها سابقتها .

ومن واجبنا قبل أن نترك هذا الكتاب بين يدى القراء أن ننوه بحسن المعونة وجميل المساعدة التى وجدتها دار الكتاب من ولدى المؤلف الاستاذ جعفر والاستاذ محمد ، فلهما أكبر الفضل فى تمكين قراء العربية من الظفر بهذه الذخيرة المغربية التى تهديها دار الكتاب لروادها فى مطلع العام الميلادى الجديد .

الدار البيضاء { ١٠ جمادى الاولى ١٣٧٣
١٥ ينـاير ١٩٥٤ } دار الكتاب

ترجمـــــــــــــة المؤلف



نسبـــــه :

هو أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد بالضم المدعو حمادا بن محمد بالضم الكبير بن أحمـد بن محمد بالفتح الصغير ابن الشيخ محمد بالفتح الشهير بابن ناصر الدرعى مؤسس الزاوية الناصرية بالمغرب ، ينتهـى نسبه الى عبد الله بن جعفر بن أبى طالب زوج زينب شقيقة الحسن والحسين أبناء فاطمة الزهراء زوج على بن أبى طالب وبنت محمد (صلى الله عليه وسلم) .

تاريخ اسرته [١] :

أصل أجداد صاحب الترجمة بدرعة من أرض المغرب الاقصى ، وكانوا قد انتقلوا أولا من جزيرة العرب الى صعيد مصر أوائل المائة الرابعة للهجرة اثر منازعة على الرياسة كانت بينهم وبين بنى الحسين فى ذلك العهد .

فاستمر مقامهم هنالك الى أن حدث نفور بين ملك مصر المستنصر بالله العبيدى وبين عامله على افريقية المغربـــى باديس الصنهـاجى ، فاستنفر اليه المستنصر عرب بنى هلال بن عامر وبنى سليم بن منصور الذين كانوا مقيمين بصعيد مصر ، وأمرهم بحربه فى خبر طويل ، ليس استيفاؤه مـن غرضنا ، فانفلتت طائفة من بنـــى جعفر الذين كانوا يومئــذ بالصعيد فدخلت معهم واستقرت بجنوب المغرب مما يلى ملوية وتافيلالت وواحات درعة ، وذلك فى أواسط المائة الخامسة للهجرة فاستوطنوا تلك الناحية وطاب لهم المقام بها .

وكانوا مشهورين بالفضل والعلم والرياسة فى تلك البقاع ، لم ينقطع ذلك منهم الى أن ظهر الشيخ ابن ناصر المذكور وطار صيته وامتدت شهرته وعظم أمر الزاوية (٢) بتامكروت وكثـر نسل آل ناصر وامتدت فروعـهم

---

(١) قد بسط المؤلف القول فى هذا الموضوع وفصله تفصيلا فـى كتابه المسمى : «طلعة المشترى ، فى النسب الجعفرى» المطبوع بفاس سنة ١٣٢٠ .

(٢) تاريخ زاوية تامكروت وما تفرع عنها مـن الزوايا مبسوط فى

بذلك الصقع . وكان فى أسرة صاحب الترجمة فضل ورياسة وشهرة فى العلم ووجاهة وظهور ، فاختصت بالزاوية المعروفة بزاوية البركة قرب تامكروت فكانت بأيديهم ، وتوارثها أعقابهم من بعدهم الى زمن والد صاحب الترجمة خالد بن محمد المدعو حمادا فحصل له ما يقتضى مفارقته لها من بعض أموره الشخصيـــة .

فهاجر منها أولا الى مدينة سلا فى حدود سنة ١٢٢٠ للهجرة ١٨٠٥م وقابله أهلها بما لا مزيد عليه من التعظيم والاحترام ، والاجلال والاكرام ، لما كان لهم من تمـــام المحبة والاخلاص لآل ناصر فاستوطنها مدة وانتشر صيته فى القبائل المجاورة لها الى العرائش ونواحى طنجة لما كان عليه مـــن العلم والزهد والورع والتحرى فى التماس الرزق من أوجه الحلال . ثم استقر بطنجة وتزوج بها احدى بنات عمه السيدة زينب بنت الفقيه على بن محمد الناصرى ، وكانت غنية جدا ، وأقام معها بضع سنوات الى أن توفيت رحمها الله ، فورث منها عدة أملاك واراضى ، واشتغـل بالفلاحة والتجارة بقبيلة الغرب قرب العرائش وملك هناك عدة أراضى ومزارع فكـــان ذلك سببا باعثا على انتقاله الى العرائش وتردده ما بينها وبين طنجة ومـــا والاهما مـــن القبائل .

واستمر ساكنا بالعرائش دهرا واتخذ من أهلها نسبا وصهرا ، فتزوج بوالدة صاحب الترجمة فاطمة بنت محمد بن زروق العلمى من شرفاء جبل العلم وولد له سائر أولاده بهذه المدينة ما عدا صاحب الترجمة .

ثم بدا له أن يرجع الى سلا لما كان يجده مـــن الميل الى المقام بها . فارتحل اليها وصاحب الترجمة حمل فى بطن أمه وذلك سنة ١٢٥٠ هـ ١٨٣٤م

كتاب طلعة الدعة فى تاريخ درعة ، والدرر المرصعة فى تراجم صلحاء درعة للشيخ محمد المكى الناصرى ، وطلعة المشترى فى النسب الجعفرى للمترجم له والاولان مخطوطان والثـالث طبـــع بفاس ١٣٢٠ هـ (١٩٠٢) م وكلها موجودة بالخزانة الناصرية بسلا .

وكان هو المزداد من أولاده بهذه المدينة فقط واستقرت بـــه فيها حينئذ اه والقى عصا التسيار وما زال خلفه بها الى الآن .

مولـــده (١) :

كانت ولادة المؤلف بمدينة سلا اثر رجوع والده اليها بقصد الاستيطان بها من العرائش وقت طلـوع الفجر يوم السبت الثانى والعشرين من شهر ذى الحجة الحرام متم سنة خمسين ومائتين وألف للهجرة الموافـــق للثانى والعشرين من شهر مارس سنة خمس وثلاثين وثمانمائة وألف للميلاد .

نشأته ودراسته (٢) :

نشأ صاحب الترجمة بمسقط رأسه سلا كما تقدم فى حجر والديه .

وكانت هذه المدينة اذ ذاك زاهرة بالعلوم الاسلامية والعربية ، وفيهـا جماعة وافرة من العلماء والمدرسين والاساتذة القراء الذين يعتمد عليهم فى تحقيق الفنون ودرس أصول العلوم والمتون . فأقبـل صاحب الترجمة منذ نعومة أظفاره على رضاع ثدى علومهم والاقتباس من مشكاة أنوار أفكارهم.

فأخذ فى قراءة القرآن منذ صباه على شيخه الاستاذ الحاج محمد العلو السلاوى الى أن تولى هذا الشيخ خطـة الحسبة بسـلا فانتقل الى الاخذ عن شيخه بعده الاستاذ محمد بن الجيلانى الحمادى فقـــرأ عليه مبادىء العلوم الراجعة لقراءة القرآن ، ودرس عنه القرآن بحرفى ابـن كثير ونافع الى أن اصطفى السلطان المولى عبد الرحمن هذا الشيـــخ لنفسه وجعله امـاما للصلاة بـــه .

---

(١) الاستقصا صحيفة ١٩٣ من الجزء الرابع طبع مصر

(٢) جل ما فى هذا الفصل مأخوذ عما ترجم به المؤلف لنفسه فى رسالة مخطوطة كتب بها لصديقه الاديب الفاطمى الصقلى الفاسى وهى محفوظة بالخزانة الناصرية بسلا

فصار يقرأ بعد ذلك على شيخه الاستاذ محمد بن طلحة الصاحى ولازمه الى أن توفى . وأتم القراءات السبع على شيخه الاستاذ عبد السلام بن طلحة ابن عم المذكور آنفا ، وعلى هذا الشيخ تلقى فن التجويد وحفظ المتون والامهات كمنظومة الشاطبى وابن عبد البر وخلاصة ابن مالك وتلخيص المفتاح وابن السبكى ومختصر الشيخ خليل وغير ذلك . ولما حصل ذلك وأتقنه شرع فى قراءة علوم العربية على شيخه العلامة محمد بن عبد العزيز محبوبة السلاوى فدرس عليه عدة تآليف فى النحو والبلاغة والمنطق والكلام والفقه وأصول الدين الى أن ارتحل هذا الشيخ الى الحجاز وتوفى هناك سنة ١٢٧٩ هـ ١٨٦٣ م وهذا الشيخ هو عمدته فى علوم اللسان والبلاغة والادب وقد رثاه بقصيدة بليغة مدونة بديوان شعره المخطوط ، مطلعها :

ملازمة التذكار تذهب باللب * وتغرى قديم الوجد بالهائم الصب

ولله قلب ما أشد تقلبا * على جمرات البين والحادث الصلب - الخ

فصرف وجهته حينئذ للاخذ عن شيخه وعمدته أيضا العلامة قاضى سلا وخطيبها أبى بكر بن محمد عواد السلاوى فقرأ عليه فنونا جمة وعلوما مهمة كالاصول والمعانى والبيان والبديع والحديث والسيرة النبوية والتصوف وفلسفة الدين قراءة تحقيق ، واتقان وتدقيق ، زيادة على الابحاث والمطالعات والمذاكرات والمراجعات وحل المشكلات التى كانت تروج بينهما فى بيته فذلك شىء كثير لا يدخل تحت الضبط والاحصاء . وكان هذا الشيخ معطفا له متعوفا به لا تاذن له قراءة الا اذا كان حاضرا فى المجلس صرح له بذلك غير ما مرة .

وكان له عدة أشياخ غير من ذكر أخذ عنهم فنونا مختلفة من العلم تركنا ذكرهم اختصارا اذ تتبع ذلك يطول جدا .

وفى أثناء ذلك توفى والده (١) واشتغل اخوته بما كان يشتغل به

---

(١) كانت وفاة والده بقبيلة الغرب فى مزرعته التى كانت هناك سنة ١٢٧٧ هـ ١٨٦١ م راجع الاستقصا صحيفة ٢٥٥ الجزء الرابع طبع مصر .

والدهم من الفلاحة وغيرها فلم يعقه ذلك عن طلب العلم بل تخلى عن كل شيء لاخوته وزهد فيه وأقبل على ما كان صارفا وجهته اليه .

هذا ، ولم يكن صاحب الترجمة مقتصرا فى تعاطيه للعلوم على ما كان نافقا منها فى وقته شائعا بين أبناء جنسه بل كانت همته تتوق الى الاطلاع على سائر العلوم القديمة الاسلامية التى لم يبق للناس إعتناء بها .

فانكب على مطالعة التآليف الموجودة فيها فدرس علم التفسير وعلوم الحديث والرياضيات والطبيعيات والالهيات وحده بغاية الاجتهاد والدؤوب ، وطالع كتب التاريخ القديمة وانتسخ لنفسه عددا كبيرا من المؤلفات الغريبة منها ، وطالع كتب الجغرافية القديمة وبعض التآليف الحديثة المترجمة من اللغات الاجنبية فى هذا الفن ، ورسم خرائط ورسوما عديدة متنوعة بيده فى وقت لم يكن أحد يهتم بذلك ولا يتشوف اليه .

وكان متشوقا دائما الى الاطلاع على المعارف الوقتيـــة والوقوف على حقائق العلوم العصرية والمخترعات الاوربية ، معجبا بما يصدر منها ويظهر ، ومعطيا لذلك حظه من النظر ، معتنيا بمطالعات المجـلات العلمية ، مولعا بالجرائد السيارة وترجمتها ان كانت بغير لغته العربية واقتباس ما فيها من الفوائد والشوارد وتقييدها والتمعن فيها وانتقادها . وكانت تاتيه من مصر والشام واسبانيا وفرنسا ومـــا زال الكثير منهـــا محفوظا بخزانته العلمية الى الآن .

ولما أتم قراءته وحصل على ما أراده من العلوم العـربية سواء فى ذلك المألوف منها والمتـروك ظهر بمظهر غريب فى قـومه وفكـر بعيد المرمى بين أبناء جلدته ، فصار بذلك متميزا عنهم ، مرموقا بعين الاعجاب بينهم ، وتفرغ حينئذ لنشر العلم والتأليف حسبما نذكره .

تصديه لنشر العلم :

ثم ان صاحب الترجمة انتصب لنشر العلـم وبثه وصرف وجهته وكليته لنفع الخاص والعام وكان فصيح اللسان قوى الحافظة ، حاضر الذهن حسن

الايراد ، فكان كلامه اذا برز فيه نفذ الى القلوب ورسخ فيها رسوخا بينا .

وقد سلك فى تدريس العلوم طريقة جديدة بالنسبة لعلماء عصره . وذلك أنه كان يراعى فى تدريسه التفهيم ويطرق المسائل الاجتماعية والدينية ويتكلم عليها بالكلام البليغ الذى يؤثر فى عقول الحاضرين فكانت دروسه من أجل ذلك أندية تزدحم عليها الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين مقاصدهم وأغراضهم فكانوا يبكرون الى المجلس قبل الوقت بالساعة والساعتين ويتسابقون الى محلات الجلوس ومع ذلك كان المجلس يعمر ويغص بأهله حتى يجلسوا بالطرق القريبة منه والرحاب المتصلة به .

فعكف على تدريس تآليف كثيرة فى فنون مختلفة عقلية ونقلية : منها علم التفسير بشرح الخازن ، وكان هذا الفن قد ترك بالمغرب منذ زمن طويل فأحياه وختم تفسير القرآن مرتين . ومنها مقدمات ابن رشد فى الفقه ، وتبصرة ابن فرحون فى الاحكام الفقهية أيضا ، وابن برى فى علم القراءات وفتح المنان كذلك ، والمطول على السعد فى البلاغة ، ومغنى اللبيب لابن هشام فى النحو ، ومختصر الشيخ خليل ، والتحفة ، والزقاقية ، والمرشد المعين ، وألفية ابن مالك ، وغير ذلك مما يطول تعداده فى العلوم الرياضية والطبيعية والشرعية .

سيرته ومذهبه:

كان مقتفيا أثر السنة فى كل شىء ، شديد الانكار على أهل البدع متصديا اليهم عاملا على زجرهم وردهم الى الكتاب والسنة ، مندد! بالطوائف (١) وأرباب الاهواء الذين ادخلوا فى الديانة الاسلامية ما ليس منها حتى شوهوا وجهها وغيروا أصلها معتقدا أن أصل كل تأخر حل بالاسلام والمسلمين انما أتى من هاته النزغات والبدع ، مع الحرص الشديد على ايقاظ

---

(١) قد ألف صاحب الترجمة تأليفا خاصا فى هذا الموضوع سماه تعظيم المنة ، بنصرة السنة . ما زال لم يطبع .

المسلمين من غفلتهم وردهم الى الطريق الواضح والمنهج السوى الذى يؤدى الى الرقى الحقيقى فى الدين والدنيا ، وتلك كانت غايته المقصودة وضالته المنشودة ، كأنما أوقف عمره لاجل ذلك ، ومن راجع تآليفه وخصوصا « تاريخ الاستقصا » و « تعظيم المنة » وجدها طافحة بالتحذير من هذا الداء والاعراء بالمبادرة الى العلاج بالوسائل الفعالة التى كان يعتقدها ناجعة فى حسم مادته ، وهى : نشر العلم الصحيح الحقيقى بين سائر أفراد الامة .

وكذلك من تتبع ما كتبه فى مؤلفاته على اختلاف أنواعها علم قدر وطنيته وغيرته على بلاده ودينه وتأسفه العظيم على ما هى عليه من التأخر .

هذا ، ولم يكن صاحب الترجمة متعصبا كما يتوهم بل كان واسع الفكر حر الضمير معطيا كل ذى حق حقه ، متواضعا لين الجانب طيب المعاشرة دمث الاخلاق ، مع جد صارم فى سائر أحواله يحب تعلم اللغات الاجنبية ، ومخالطة رجال الدول الاروبية للاقتباس من معارفهم ، وكانت له مع بعض قناصل الدول والتجار الاجانب فى عصره معاشرة ووداد ومذاكرات ومحاورات ومراسلات علمية فى مسائل مختلفة . وطالما كان يهتم بارسال بعض أنجاله الى أوروبا بقصد أخذ العلم فى مدارسها ، مع أن هذه الفكرة لم تكن تخطر لاحد من المغاربة أهل عصره ، وانما كان يصده عن تنفيذ هذا العزم عدم سهولة المواصلة على ما ينبغى اذذاك وكونه طعن فى السن واحتياجه الى من يقوم بشؤونه ويتلقى عنه أفكاره وآراءه ودروسه .

ومن أراد الوقوف على رأيه فى هذا الموضوع ، وأفكاره فى معاملة بلاده مع الخارج فلينظر ما كتبه فى المسائل السياسية والاقتصادية التى طرقها فى تاريخه الاستقصا فى عدة مواضع كمسألة (١) تنظيم الجيش ومسألة (٢) ربط العلائق السياسية ما بين المغرب ودول أوروبا وغير ذلك من الموضوعات التى دقق البحث فيها .

---

(١) راجع الاستقصا صحيفة ٢٢٢ الجزء الرابع طبع مصر .

(٢) راجع الاستقصا صحيفة ٢٢٦ وما بعدها الجزء الرابع طبع مصر .

أما مذهبه فى التعليم (١) فانه كان يرى أن الطريقة المسلوكة فى التعليم عند المغاربة فى عصره قليلة الجدوى عديمة النتيجة بعيدة الوصول الى الغاية المقصودة منها ، وان التآليف المتداولة بين أيديهم لاتفى بالغرض المطلوب لاختصارها وغموضها وانغلاق عباراتها واختلاطها وعدم ترتيبها ولاحتوائها على المسائل والابحاث الفارغة التى لا طائل تحتها .

فكان من رأيه صرف الناس فى التعليم الى كتب السلف المؤلفة أيام ازدهار العلوم فى عصر التمدن الاسلامى ، والاخذ منها لوضوح عبارتها وسهولة فهمها وكثرة فائدتها .

وكان من رأيه أيضا احياء ما اندثر من العلوم المهمة التى كانت نافقة عند العرب ابان زهو حضارتهم كالطب والفلسفة والتاريخ والجغرافية والجبر وما أشبه ذلك ؛ وطالما ندد بهذه الفكرة فى دروسه وخطبه ومجتمعاته وكتبه . ولكن بكل أسف لم تكن عقول أهل عصره بلغت الدرجة التى تؤهلهم لفهم ما كان يحاوله على حقيقته وتقديره حق قدره ، وتحمله على محمله وتعمل به . بل كانوا يتلقون ذلك منه بصفة الاستعجاب والاستغراب .

ومع ذلك فهو بحسن سياسته وهديه كان يتكلف الوسائل ويستعمل غاية مجهوده فى تفهيمهم ذلك وتبيينه لهم . وقام فى وجهه بعض الناس من أرباب الطوائف والطرق وصار يشنع (٢) عليه فلم يهنه ذلك ولم يثن عزمه بل استمر مثابرا على طريقته وخاب سعى ذلك المنكر ولم يدرك منه مراده لحسن قصده وخلوص نيته الى أن أتته منيته وهو على ذلك الحال .

---

(١) قد بسط صاحب الترجمة أنكاره فى هذه المسألة فى مقدمة حاشيته على التبصرة المسماة : « الفلك المشحون ، بنفائس تبصرة ابن فرحون » ما زال لم يطبع وهو محفوظ بالخزانة الناصرية بسلا .

(٢) قد شرح صاحب الترجمة ما لقيه من هؤلاء وما كان مآلهم فى كتابه تعظيم المنة ، بنصرة السنة فى باب الكلام على التصوف . وهو مخطوط بالخزانة الناصرية بسلا

******

تنقلاته وخدماته المخزنية (١)

لما ظهر صاحب الترجمة بمظهر النزاهة والارشاد وعلو الهمة وسمو المدارك فى العلم طار صيته فى أقطار بلاده فندبه السلطان مولاى الحسن للانخراط فى سلك موظفى دولته فامتنع أولا لانه كان يظن أن ذلك يصرفه عن وجهته العلمية ، فألح عليه حتى امتثل ، وتنقل فى عدة وظائف سامية فى أنحاء المملكة الشريفة ، فتولى أولا خطة الشهادة ببلده سلا مدة فى حدود سنة ١٢٨٠ هـ ١٨٦٣ م ، وكان ينوب بها اذ ذاك عن قاضيها الفقيه أبى عبد الله محمد العربى بن أحمد بن منصور .

ثم لما تولى شيخه العلامة أبو بكر بن محمد عواد خطة القضاء بسلا فى سنة ١٢٨٥ هـ ١٨٦٨ م ، أسندت اليه خطة العدالة والصائر على الاحباس الكبرى بسلا بأمر سلطانى ، فأظهر فيها غاية الحزم والضبط ، ونظمها تنظيما يشهد ببراعته فى الترتيب ، ونقب عن ما ضاع منها وردها لاصولها ، حتى ان الحوالة الموجودة الآن هو الذى استخرجها ووقع جل وثائقها وهى المعتمدة والمرجوع اليها اليوم فى الاحباس السلاوية .

ومن جملة أعماله المأثورة فى الاحباس أن المدرسة المرينية المشهورة بطالعة سلا قبلة المسجد الاعظم كانت عند توليه لهذا المنصب فى حالة يرثى لها : قد تداعت الى السقوط وشن الخراب الغارة عليها وكاد يأتى على رائع جمالها ، فأراد بعض ذوى السلطة أن يجعلها مربطا للدواب ، فقام لذلك وقعد ، وأظهر غاية الكراهة لهذا الامر الشنيع ، وكتب الى المخزن يعرفه بأهمية هذا الاثر العظيم وما يرتب عن اندثاره ، فصادف كلامه قبولا وأجيب باجراء المتعين فى اصلاحها وترميمها وردها الى الحالة التى كانت عليها، فقام فى ذلك بنفسه أتم قيام حتى آلت لماهى عليه اليوم. ولولاه لما بقى الا خبرها

---

(١) المخزن فى الاصطلاح الادارى المغربى يعنى الحكومة المغربية .

كأختها المدرسة العنانية الموجودة بباب حسين من هذه المدينة المعروفة اليوم بفندق آسكور . وقد أصلحت فى العهد الاخير وصارت محكمة شرعية .

وفى هذه المدة كان شيخه القاضى المذكور آنفا يسند اليه النيابة عنه فى الاحكام القضائية ويستشيره فى النوازل المهمة ويقدمه لفصلها ويعول عليه فى حل ما أشكل منها كما كان يسند اليه النيابة عنه فى الخطابة بالمسجد الاعظم بسلا يوم الجمعة .

وقد تنقل صاحب الترجمة خلال هذه المدة من سنة ١٢٨٠ هـ ١٨٦٣ م الى سنة ١٢٩٠ هـ ١٨٧٣ م ، عدة تنقلات اختيارية بقصد التجول والزيارة والاطلاع على الاحوال بأنحاء المغرب .

فسافر صحبة شيخه السالف الذكر أولا الى المغرب الشمالى ودخل مدينة فاس وتعرف بعلمائها وكبرائها وذاكر أدباءها ، وكانت له معهم مطارحات ومحاورات فى فنون شتى وأعجبت فاس به وحصل له من الاقبال والاجلال ما زاد فى شهرته وتضافر الناس على تقديره ، وعرج فى جولته هذه على مدينة مكناسة الزيتون وزاوية زرهون ونواحيها وخالط ناسها ودرس أحوالها .

ثم سافر بعد ذلك لجبال الريف وغمارة ودخل مدينة تطوان ومنها إلى العرائش وأصيلا والقصر الكبير بعد ما زار ضريح الشيخ عبد السلام ابن مشيش بجبل العلم وخلف ذكرا جميلا حيث ما مر ، وثناء عاطرا حيث ما قر .

وكانت له جولة أخرى ببلاد الشاوية من المغرب وما جاورها درس فيها أحوال تلك الناحية وسبر غور أهل المغرب وعرف اخلاقهم وميز أفكارهم مما زاد فى سعة اطلاعه على أحوال هذه البلاد من الجهة الجغرافية والاتنوكرافية ، كما زار أيضا مدينة آزمور وضريح الشيخ أبى شعيب أيوب ابن سعيد الملقب بالسارية ومدحه بقصيدة رائقة أثبتها فى تاريخ الاستقصاء (١)

---

(١) راجع الاستقصا صحيفة ١٨٥ الجزء الاول طبع مصر ١٣١٢ .

كلها حكم وآداب .

ثم ورد عليه الامر السلطانى بالتوجه للخدمة بمرسى الدار البيضاء سنة ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥) م فامتثل بعد ما تنصل وتعلل بعلل كثيرة زهدا فى ذلك ورغبة فى اكتساب العلم ونشره ، ولولا أن شيخه وصهره أبا بكر عواد ألزمه ذلك لما قبل . وأقام بهذه الخدمة الى آخر سنة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦) م .

وفى سنة ١٢٩٤ هـ ١٨٧٧ م استدعاه المخزن للقيام بوظيفة الخدمة فى المالية بنبيقة الصائر بمراكش فأقام بها مدة ثلاثة أعوام وهناك انتهز الفرصة لجمع مواد تاريخه الاستقصا كما سنذكره بعد ، وأملى دروسا مفيدة بجامع ابن يوسف بمراكش كالسعد والتبصرة والمغنى وكتب بخطه عدة كتب علمية غريبة عثر عليها هناك .

ثم رجع لبلده ، وما كاد يستقر به المقام حتى ورد عليه الامر الملكى بالقدوم لمراكش للالتحاق بالسلطان بالحضرة المراكشية سنة ١٢٩٧ هـ ١٨٧٩م

وكان القصد من قدومه هذا أن يختصه السلطان بالخدمة معه فى الحكومة العليا ولكن ذلك لم يوافق طبعه لما كان مركوزا فيه من حب الحرية فى الاعمال ، وعدم التقيد ببعض التقاليد المخزنية والانتقالات السلطانية ، حرصا على التفرغ للكتابة والدرس والتقييد . فاعتذر الى السلطان وتخلص مما عرضه عليه ، فوجهه للخدمة بمرسى الجديدة وهناك أتم جمع كتابه الاستقصا وترجم ما يتعلق به من اللغات الاسبانيـة والبرتغالية والانجليزية حسبما سنذكره فى فصل خاص بعد هذا .

وقام فى هذه المدينة بجملة أعمال خيرية منها الوقوف فى بناء المنار واصلاح المسجد الموجود الآن وغير ذلك بمعاضدة صديقه باشاها (١) اذ ذاك السيد محمد الجرارى .

واتخذه المخزن فى هذه المدة مستشارا سريا فكان يكاتبه ويأخذ رأيه فى الامور المهمة والقضايا السياسية .

---

(١) الباشا فى الاصطلاح الادارى المغربى يعنى حاكم المدينة .

وطلب منه أن يبدى رأيه فى اصلاح المالية المغربية ومداخلها على النهج الشرعى فحرر فى ذلك قانونا للخراج والمداخل المالية بالمغرب على مثال عجيب .

وكانت أشغاله المخزنية لا تعوقه عن نشر العلم وبثه ، فدرس تفسير الخازن وختم البخارى هناك وانتفع الناس به نفعا بينا وانفصل عن الخدمة بهذه المرسى سنة ١٢٩٩ هـ ١٨٨١ م . وبعد استراحته ببلدة سلا مدة يسيرة ورجوعه لتنفيذ خطته العلمية والدؤوب عليها عاد للخدمة بمرسى الدار البيضاء سنة ١٣٠١ هـ ١٨٨٣ م وطال مقامه بها ثلاثة أعوام ، وتعرف بقناصل الدول ونوابهم هناك وحصل بينه وبينهم وداد وجرت له معهم مذاكرات ومحاورات فى مسائل علمية واقتصادية وسياسية ترجع الى ربط العلائق بين المغرب وأوربا فأحبوه وعرفوا قدره وراسلوه وهادوه .

وأثناء ذلك استشاره السلطان المولى الحسن رحمه الله فى المعاملة التجارية مع دول أوربا فيما يرجع للوسق وتسريح ما كان محجورا من المواد كالحبوب والانعام وتعديل «صاكة» الاعشار فتصدى لهذه المسألة وحرر فيها جوابا شافيا أثبته فى تاريخ الاستقصا (١)

وعاد لبلده فجلس بها أياما قليلة ثم عينه السلطان سنة ١٣٠٤ هـ ١٨٨٦ م لفصل قضية أولاد الدكالى فى معاملتهم التجارية مع تجار الطليان بطنجة فذهب اليها واجتمع بسفراء الدول بها اذ ذاك وخصوصا السفارة الطليانية واستفاد من هذه الوجهة فوائد ومعلومات مهمة .

ولما رجع لبلده استقل بمطالعة دواوين الفقه ومراجعتها الى أن ورد عليه الامر السلطانى سنة ١٣٠٥ هـ ١٨٨٧ م بالتوجه لحضرة فاس بقصد الخدمة بالمالية بقسم الطائر وعند وصوله اليها اشتغل بتدريس مختصر الشيخ خليل بكلية القرويين بشرح الدردير لاختصاره وسهولة مأخذه بالنسبة لشرح الزرقانى الذى كان العمل جاريا بتدريسه بالقرويين ، فاستحسن الناس

---

(١) راجع الاستقصا صحيفة ٢٦٦ الجزء الرابع طبع مصر سنة ١٣١٢ .

طريقته واقتفى العلماء فى ذلك أثره الى أن أصبح الآن شرح الدردير مقررا فى النظام الجديد لكليتى القرويين بفاس وابـن يوسف بمراكش ، وازداد معرفة واختلاطا بعلماء تلك الحضرة وأبدى فكره فى اصلاح التعليم ، وأكب على مطالعة كتب الانساب وأصولها واستخرج من ذلك المواد لتأليفه : «طلعة المشترى فى النسب الجعفرى » .

ثم آب لمدينة سلا سنة ١٣٠٨ هـ ١٨٩٠ م ليستريـح من الاشغال ومواصلة الاعمال فأقام بها مدة منكبا على الدرس والتأليف والكتابـة والتقييد بغاية الاجتهـاد .

ثم خطر بباله حينئذ أن يشد الرحلة لزيارة مقر أجداده ومهد عائلته بزاوية تامكروت من وادى درعة قاصدا بذلك اكتشاف تلك الاصقاع الجنوبية والاطلاع على أحوال سكان تلك الناحية والوقوف على منازل أسلافه وديارهم ومآثرهم، ومن أعظمها الخزانة العلمية الخطية (١) التى لا نظير لها بالمغرب الموجودة بالزاوية التامكروتية فشرع فى تهيىء الزاد والراحلة لطول السفر وبعد الشقة .

وبينما هو فى ذلك ورد عليه الامر الشريف سنـة ١٣١٠ هـ ١٨٩٣ م بالخدمة بمرسى الدار البيضاء أيضا فامتثل وأخر تنفيذ هذه الفكرة لوقت آخر ان ساعده على ذلك الزمان . ولم يقصر ـ مـدة خدمته هذه ـ فى أعمال البر بهذه المدينة كالوقوف على اتمام بناء جامع الحمراء وصرف نصف دخل ضريح سيدى أبى الليوث الى الفقراء والمساكين والتدريس والقـاء الخطب وغير ذلك . وأثناء هذه المدة وقعت قضية السفير ابريشة المشهورة مـع اسبانيا اثر حربها مع زناتة الريف وكان قد أبدى رأيا فى فصلها فلم يصادق عليـه

---

(١) هذه الخزانة تشتمل على نحو عشرة آلاف مخطوط وكلها من غريب الكتب ونفيسها مما لا يقدر بثمن ، ولكن بكل أسف ضاع الشىء الكثير منها الآن . وعثر على أشلائها تباع عند الوراقين والسماسرة بالاسواق ! والامر لله وحـده .

فحصل له تأسف عظيم على حل هذه المسألة على تلك الصورة التى فصلت عليها كما أشار لذلك فى تاريخه (١) فانفصل عن الخدمة المخزنية ورجع لوطنه سنة ١٣١١ هـ ١٨٩٤ م وذلك عقب وفاة السلطان المقدس المولى الحسن وتولية ابنه المولى عبد العزيز بعده .

ولما تسنم عرش المملكة هذا السلطان اقتفى سنن والده فى تعظيم المترجم له واحترامه ومعرفة قدره ومكانته فى العلم والسياسة .

فندبه سنة ١٣١٢ هـ ١٨٩٥ م لتفقد الاملاك المخزنية واحصائها والبحث فيها بالدار البيضاء فتوجه اليها وقام بذلك أحسن قيام ، وجرد فى مأموريته هذه تقريرا رفعه للحكومة ولا زال هو المعتمد لدى ادارة الاملاك المخزنية حتى الآن .

وعند رجوعه من هذه الوجهة انقطع عن مخالطة الناس وانكب على المطالعة والتقييد وتخلى عن الخوض فى الاعمال السياسية وأقبل على اتمام مؤلفاته وتحريرها وتخريجها كنصرة السنة وتخريج شرح قصيدة ابن الونان وحاشية التبصرة وغير ذلك مع تكرر عرض المناصب عليه واعراضه عنها غير أنه مع ذلك كان يستشار فى الامور المهمة وبقى على هذا الحال الى أن وافته منيته .

شعــــره :

لقد قال المترجم له شعرا كثيرا فى عهد شبابه ولم يدون منه الا نزرا يسيرا فى ديوانه المخطوط المحفوظ بالمكتبة الناصرية ، اذ لم يكن له اعتناء بحفظه وجمعه وكله من الشعر الجيد . وله فى تعاطى الشعر رأى خاص قال رحمه الله فى رسالته التى ترجم فيها لنفسه مخاطبا بها صديقه الاديب الفاطمى الصقلى الفاسى :

«وأما تعاطى الشعر فقد كنت أنتحله أيام الشبيبة ثم أعرضت عنه اذ بضاعته مزجاة سيما فى هذا الزمان الذى سوق الادب فيه كاسدة وقبل

---

(١) راجع الاستقصا صحيفة ٢٧٧ وما بعدها الجزء الرابع طبع مصر .

اليوم قال المتنبى :

الى كم ذا التخلف والتوانى * وكم هذا التمادى فى التمادى
وشغل النفس عن طلب المعالى * ببيع الشعر فى سوق الكساد

وانما المطلوب أن يعرف الانسان آلته ومادته وكيفية قرضه ونقده حتى تجود ملكته ، ويتم ذوقه ويصير بصيرا باللسان العربى وأساليبه وفنونه ثم يتفرغ لما هو أهم من ذلك من علم الفقه وأصولهوعلم عيوب النفس وأمراض القلب وكيفية علاجه»

وقد أثبت بعضه فى تاريخ الاستقصا فمن ذلك :

القصيدة النونية التى مدح بها الشيخ أبا شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجى الملقب بالسارية دفين مدينة آزمور وهى مذكورة فى صفحة ١٨٥ من الاستقصا طبع مصر عام ١٣١٢ هـ .

والقصيدة السينية التى مدح بها سلطان عصره مولاى الحسن بن محمد لما زار مدينة سلا فى جمدى الاولى سنة ١٢٩٣ وهى طويلة مليئة بالنصائح والاشارة الى الامثال العربية والوقائع التاريخية . وقد كان صديقه العلامة القاضى أبو محمد عبد الله ابن خضراء خصها بشرح نفيس الا أنه لم يبق منه بخزانة المترجم له الا بضعة أوراق لا غير . وقد ذكرها فى الاستقصا أيضا صفحة ٢٤٧ من الجزء الرابع طبع مصر فى العام المذكور .

ومن ذلك القطعة الحائية التى أجاب بها صديقه الاديب المحاضر أبا عبد الله محمد بن عزوز الرباطى أصلا المراكشى دارا عما كتب له به لما كان بمراكش وذلك فى فاتح رجب عام ١٢٩٤ وقد أثبتها فى الاستقصا أيضا صفحة ١١٣ من الجزء الثانى طبع مصر .

ولما زار مدينة فاس الادريسية مع شيخه العلامة القاضى المرحوم أبى بكر بن محمد عواد سنة ١٢٨٠ كان ذات يوم وقد عزم السفر بقصد الرجوع الى بلده عند الشرفاء أولاد مولاى الطيب الدرقاوى بمدرسة الصفارين فذاكره مولاى عبد السلام بن مولاى الطيب فى أمر السفر والعزم عليه كالمتوجع لفراقه فأنشده فى الحال :

آرى القلب ياعبد السلام سليما ووشك النوى لى مقعدا ومقيما
اذا أنا سرت عنك أول غدوة تركت فؤادى فى ذراك مقيما

ولما سافر من الغد خرج جماعة من الطلبة لوداعه فقال وأنشدهم عند الوداع خارج باب المحروق :

غدا الشمل بالتوديع وهو مشتت وسيف النوى بين الاحبة مصلت
أسكان قلبى لست أنفك بعدكم نجى الاسى يملى على فأنصت
ولو أننى أعطيت حظى منكم لما خلتنى عن جمعكم أتفلت
فها أنا سرت اليوم عنكم ومهجتى تذوب وكبدى بالفراق تفتت
وأيسر ما ألقى من الشوق أننى أسير وقلبى نحوكم يتلفت

ومما قاله فى المديح :

أبناء أحمد لستم ذوى كرم وانما اشتق من معناكم الكرم
وليس تنسب للعلا مآثركم لكنكم فى عرانين العلا شمم
ولا أقول نسيم الروض ذكركم وانما هو فى روض الثنا ديم

ومما قاله فى النصح ، وكان بعض الطلبة يحضر مجلسه وربما تكاسل فنصحه ذات يوم فتخلف عن المجلس بالكلية وذلك سنة ١٢٨١ هـ :

أيا مبديا هجرى لأجل نصيحة كلانا أتى فى رأيه خطة الجهل
فعما قليل تعتريك ندامة على فرقتى فاستبق ان كنت ذا عقل

ومما خاطب به جماعة من الادباء أصحابه من أهل سلا فى سفرة عرضت له سنة ١٢٧٧ هـ :

لا ترم منى سلوة يا عذول فالذى رمت ما اليه سبيل
شرح حالى لديك : فقد ، ووجد وسهاد ، ورقة ، ونحول
واصفرار ، ولوعة ، وولوع أترى ذامع الملام يزول ؟
كل يوم من أم أوفى عتاب ومن القلب حيرة وذهول
كيف أسلو ودونها فلوات وجبال ، تضل فيها الوعول ؟
أقطع البيد خلفها وحظوظى تقطع الحبل بى ، ودهرى يحول
حر شمس ، وقر نحس ، وعيس غالها تحتنا السرى والذميل

كلما داس خلفها ربع حي داسنا الشوق ، فالحداء عويل
والجوى يغتلي الحشى ، وجفون تسكب الدمع ، والنوى يستطيل
ورسوم مواثل وديار سحبت للسحاب فيها ذيول
دع حديثا من ام أوفى تقضى في زمان به الشبيبة غول
واذكر المجد والسماحة والحلـ ـم وبذل النهى . وفخرا يطول
لكرام علت بهم مكرمات ما لهم في الورى يعد مثيل
لكرام غدوا مدى الدهر بلقى لسنا المجد في ذراهم مقيل
لكرام متى نزلت بدار لهم ، فالمنا لديك نزول
في سلا أشرقت شموس علاهم ما لها الدهر في مداها أفول
رب ليل وصلته بصباح معهم ، والزمان عني غفول
وصباح وصلته بمساء في سرور ، به الوقور يميل
فتية عودوني الود صرفا فمديحي لهم بشكري كفيل
أترك القول فيهم وأوالي غيرهم ، انني اذا لجهول ؟
أجدر الناس بالمديح أناس نالك الرفد منهم والجميل
تخذوا الحلم والمروءة دينا ليس في ناديهم يقال فضول
صغرت سنهم ـ وما صغر العقـ ـل ـ ولاغرو ، اذ كذاك الاصول
حسب شامخ ، ومجد أثيل ، ولسان رطب ، وخلق جميل
لو ترى وجدهم غداة مسيري عنهم ما امتريت فيما أقول
يا كراما فقدت قرب حماهم ان خطبي لفقدكم لجليل
زلت عنكم كرها وقلبي مقيم عندكم ، والاسى لدى بديل
كلما لاح لي سنا من حماكم ، طفق الجفن بالدموع يسيل
أبتغي نحوكم نهوضا وحظي يعكس القصد ، والزمان بخيل
ليس شيء يروق عيني سواكم ، فالحشا بعدكم كئيب عليل
واذا ما قضى الاله بجمعي بكم ، فالذي لقيت قليل

وفي سنة **١٢٨٢** ورد على سلا العلامة الاديب محمد الطاهر بوحدو المكناسي وأقام بها أياما ثم عبر الى رباط الفتح وأقام عند الشيخ العلامة

الفاضل العربى بن السائح الشرقاوى وكتب أبياتا خاطب بهـا بعض علماء سلا وألم بذكر المترجم له فأجابه على بحره وقافيته ورويه :

يـا أديـبا غـدا بحسن اتفـاق ينفث السحر فى المعانى الرقاق
قـد أتتنا حدائـق من ثناكـم جددت أرسما لعهـد التلاقى
وعلمـنا منـها بأنـك لا زلـ ت بنـا ذا صابـة واشتياق
لست أدرى أهـى قلائـد در أم نجوم محت دياجى الفراق ؟
تـوجت مفرق الزمـان على فتـ ـرة شعر من الورى والمحـاق
ولقد ساءنى الذى قلت من جهـ ـل ، وأنت الفتى الكريم الوفاق
أنت تحكى النسيم فى الخلق ، والصا رم فى العزم ، والطلا فى المذاق
وبنـا من فراقك الصعب ما لـو كـان بالبدر لا كتسى بالمحـاق
فأزل ما بالقلب من وحشة البيـ ـن ، ومـا بالجفون من ايراق
مـا محيـاك حين تغدو علينـا غـير يسر أتـى علـى املاق
فعليـك السلام مـن هائـم لا زال من فرط وجدكم فى احتراق
وعـلى خدنك الامام الذى حـ ـل من المجد ، فى أعز المراقى
سيدى الاعربى من أعربت عن فخره ألسن الـورى ، باتفـاق
مـا شدا فى محافل الانس شاد وحدا بالحسان حادى النياق

وكان العلامة أبو العباس أحمد يمل السوسى من أهل تارودانت قـد كتب الى صديقه العلامة القاضى أبى محمد عبد الله بـن خضراء بأبيات يتشوق فيها اليه وألم فيها بذكر المترجم له والسلام عليه فأجابه على بحرها ورويـها وذلـك عـام ١٣٠٠ هـ .

هـواى مـدان والحبيب منـائى وشوقى يناجى من ورائى وراء
فليت الهوى كان الحبيب . وليته يرق لـدائى أو يبيـح فـدائى
وهيهات يسلو من بأرض سلا انتأى وهيهـات مـن بالسوس يدنو لنا
ولكننـى أنهـى السلام مطـيبا بطيب عبـير ، أو بطيب ثنـاء
الى الماجد الارضى الذى بولائه أدين : أبى العباس خـير ولاء
وأسأل ربـى أن يديم لنـا بـه ومنه أخا صدق ، وخدن وفاء

ويجزيه من خير ما قد جزى به أخا مومنا ، أبدى ضمير صفاء
ويملأ من نور المعارف صدره ويسعده بالفوز يوم لقاء
بجاه النبى الهاشمى وآله وأصحابه أسد الشرى الامراء
عليه التحايا الغر ثم عليهم تباكرهم صبحا ، وكل مساء

واستعار من صديقه العلامة المرحوم أبى العباس أحمد بن الحاج محمد والعلو « شرح ابن بدرون على قصيدة ابن عبدون » فوعد ومطل ، فكتب اليه رحمه الله وذلك سنة ١٢٨٥ هـ :

يا فقيها فى حلبة المجد جلا وغدا العلم من تقاه محلا
هل تفى منكم الوعود بشرح لابن بدرون أم تقولون كلا ؟
لست أرضى لمجدكم أن أرى مـ ـنوعا أو عن ندى يديكم محلا

مـــؤلفـــاته

وخلف صاحب الترجمة مؤلفات شتى فى فنون مختلفة ما بين مطول ومختصر نسردها على حسب تاريخ كتابتها حسب الامكان :

١] تعليق على ديوان ابى الطيب المتنبى :

وهو تعليق لطيف تكلم فيه على غريب اللغة وشرح الابيات المحتاجة للشرح مع الاشارة للنكات البلاغية والتلميحات البديعية ، فرغ من كتابته سنة ١٢٧٩ (١٨٦٢)

٢] تعليق على رقم الحلل في أخبار الدول لابن الخطيب السلمانى :

هو تعليق مفيد جدا ملىء بالفوائد التاريخية النفيسة ، وزاد فيه ما تركه صاحبه ابن الخطيب المذكور من أخبار ملوك مصر والشام فى القرون الوسطى. فرغ من كتابته سنة ١٢٨٥ (١٨٦٩) .

٣] تعليق على بداية القدماء وهداية الحكماء :

وهو تأليف فى التاريخ والتمدن القديم ترجمه من الاصول الفرنسوية معاصره الشيخ رفاعة بك الطهطاوى المصرى رئيس قلم الترجمة بادارة العلوم والمعارف بالقاهرة زمن الخديوى محمد على باشا . فرغ من كتابته سنة ١٢٨٥ (١٨٦٩) .

٤] تعليق على شرح ابن بدرون لقصيدة ابن عبدون :

هذا الشرح للاديب عبد الملك بن بدرون الحضرمى الاندلسى على قصيدة أبى محمد عبد المجيد بن عبدون الشهيرة التى رثى بها بنى سلمة المعروفين ببنى الافطس من ملوك الطوائف بالاندلس .

وهذا التعليق كله غرر وأدبيات رائقة فرغ من كتابته سنة ١٢٨٥ (١٨٦٩).

٥] الفوائد المحققة فى إبطال دعوى أن التاء طاء مرققة :

وسبب تأليفه لهذا الكتاب أنه وقع خلاف بين بعض الطلبة المعاصرين له فى الفرق بين هذين الحرفين واتسعت مادة الخلاف بينهم فى ذلك ، فزعم بعضهم أن التاء طاء مرققة وزعم البعض الآخر أن كلا من الحرفين مستقل بمخرجه . فتصدى لهذه المسألة وحققها فى هذا التأليف .

وفيه أبحاث نفيسة تتعلق بكيفية الاخذ فى القراءة وتجويدها وحصر مخارج الحروف وصفاتها وغير ذلك من استدلالات أصولية . فرغ من جمعه سنة ١٢٩١ (١٨٧٤) .

٦] رسالة فى تحقيق امر سبعة رجال دفناء مراكش :

هذه الرسالة ألفها لما كان مستخدما بهذه المدينة فى حدود سنة ١٢٩٤ (١٨٧٧) جوابا عن الاسئلة التى قدمها اليه صديقه العلامة الاديب محمد الامين بن عبد الله الحجاجى المعروف بالصحراوى الشنكيطى المراكشى ،

وقد بنى عليها مؤلفه الكبير المسمى «المجد الطارف والتالد» من أسئلة أبى العباس أحمد بن خالد» فى مجلدين وتوجد نسخة منـه محفوظة بالخزانة النـــاصرية .

٧] كشف العرين عن ليوث بنى مرين :

وهو تاريخ مختصر فى أخبـار الدولة المرينية بالمغرب فقط . كتبه سنة ١٢٩٥ (١٨٧٨) .

٨] رسالة في الرد على الطبيعيين :

ألف هذه الرسالة اثر مذاكرة جرت له مع أحد الاوربيين المتفلسفين لما كان مستخدما بالجديدة ، وبعد مذاكرة طـــويلة بينه وبين هذا الاوربى أذعن لمقاله وسلم ما كان يقرره له . وهـــى رسالة احتوت على حجج عقلية فى الرد على من ينكر وجود الصانع ويكذب بالشرائع ، وفيها أبحاث نفيسة عالية . ألفها سنة ١٢٩٧ (١٨٨٠).

٩] تاليف فى مسألة اعطاء الرسوم :

وسبب جمعه لهذا التأليف وقوع المذاكرة بينه وبين مفتى فاس الشهير المهدى الوزانى ، وكان لا يقول بما يقوله صاحب الترجمة فى هذا الموضوع، فألف هذا التأليف وذكر فيه ما تحصل لديه مـــن نصوص الفقهاء فى جواز اعطاء الرسوم وتعين ذلك فى بعض الاحوال ، واستدل على ذلـك بنصوص من الكتاب والسنة وأقوال الفقهاء المجتهدين وسلك فيـــه مسلكا عاليا فرغ منه بمدينة فاس سنة ١٣٠٦ (١٨٨٨) .

١٠] تقييد مختصر فى حصر جمهرة آل ناصر :

كان جمع هذا التقييد أولا قبل تصديه لتخريج تأليفه الكبير المسمى : «طلعة المشترى ، فى النسب الجعفرى» وبـين فيـــه تفرق آل ناصر بالمغرب

وتتبع فروعهم وألحقها بأصولها . كتبه سنة ١٣٠٨ (١٨٩٠)

١١] طلعة المشترى ، فى النسب الجعفرى :

حقق فيه نسب جده الشيخ ابن ناصر واتصاله بعبد الله بن جعفر بن أبى طالب واستعان فى جمعه بعدة أصول حصل عليها بمدينة فاس لما كان مستخدما بها ، ومواد أخرى وردت اليه من تامكروت وما تلقفه بنفسه من أفواه الجم الغفير من ذرية الشيخ ابن ناصر الوافدين اذ ذاك على السلطان لغرض يتعلق بالزاوية الناصرية فرغ منه سنة ١٣٠٩ (١٨٩١) .

١٢] شرح مساعدة الاخوان :

وهى قصيدة الشيخ محمد ابن ناصر سماها «مساعدة الاخوان من الحشم والاعوان على ما يعين على البر والتقوى ويصرف عن الاثم والعدوان» فى العبادات على نمط المرشد المعين على الضرورى من علوم الدين للامام ابن عاشر فى هذا الموضوع . وهذا الشرح خلاصة ما ألقاه من الدروس فى هذه القصيدة . فرغ منه سنة ١٣١٠ (١٨٩٢ .

١٣] تعظيم المنة بنصرة السنة :

وهذا التأليف من أهم المؤلفات التى كتبها صاحب الترجمة وهو أوضح دليل على سعة فكره وبرهان على أنه كان فردا غريبا بين أبناء جنسه ووقته .

والسبب (١) الحامل له على جمعه هو أنه كان يدرس تفسير القرآن بسلا ويتوخى فى تدريسه التنبيه على البدع المحدثة فى الدين وردها والتشديد فيها والتنديد بأهلها من أرباب الطوائف ، فقرر ذات يوم كلاما

---

(١) يراجع المبحث الاول من الفصل الثامن فى السماع والرقص عليه من هذا التأليف نقد خصصه المؤلف لشرح السبب الداعى لتأليف هذا الكتاب .

فى هذا الموضوع تناقله أرباب البدع والاهواء ومقدمو الطوائف بينهم فمشوا فى بعضهم بعضا وشنعوا عليه وأبدأوا وأعادوا فى ذلك وكتبوا الى السلطان فى شأنه ولكن لم يكن لما كتبوا به نتيجة أصلا لمكانته وفضله ولم يثن عزمه عما كان مشتغلا به شىء من ذلك .

وتصدى حينئذ لتأليف هذ الكتاب وبين فيه البدع المحدثة فى الدين ومخالفتها لاصول الشرع الاسلامى وانتقد سائر ما ظهر منها فى الاقطار الاسلامية على الجملة وفى المغرب بالخصوص وذكر أسباب حدوث الزوايا والطوائف بالمغرب وكيف كان أصلها وما آلت اليه فجاء تأليفا عجيبا فى بابه ودستورا جامعا فى فنه لم ينسج على منواله . فرغ منه سنة ١٣١١ (١٨٩٣) .

١٤] زهر الافنان ، من حديقة ابن الونان :

وهو شرح على الارجوزة المشهورة بالشمقمقية استوفى فيه فنون اللسان العربى الا قليلا واستوعب شرح ما لمح له الناظم من الامثال والحكم والاخبار والنوادر . فرغ منه سنة ١٣١٣ هـ ١٨٩٥ م

١٥] وصية وعظية :

وهى وصيته التى أملاها على ولده الاكبر لما عزم على زيارة المولى عبد السلام بن مشيش وكان اذ ذاك مريضا مرضه الذى مات فيه وكلها حكم والاخبار والنوادر . فرغ منه سنة ١٣١٣ هـ ١٨٩٥م

١٦) تاريخ الاستقصا ، لاخبار دول المغرب الاقصى :

وهو هذا الكتاب الذى يمثل للطبع من جديد والذى هو تاريخ للمملكة المغربية من لدن الفتح الاسلامى الى صدر دولة السلطان المولى عبد العزيز ابن الحسن وسياتى الكلام عليه بالتفصيل فى الفصل التابع لهذا الفصل . هذا ما وقفنا عليه مؤرخا من تآليفه .

وأما التآليف الغير المؤرخة فها بيانها :

١٧]دفتر محررات واصول تاريخية :

هذا الدفتر مملوء بالمحررات والاصول التاريخية والوقائع والمتفرقات المهمة والظهائر والمناشير الملكية التى عثر عليها وجمعها فى رحلاته وتجولاته بالمغرب وما كان يترجمه من جرائد ومجلات أوربا وأمريكا المكتوبة بغير لغته من أخبار العالم مع بعض الرسائل الادبية التى كانت تجرى بينه وبين بعض أدباء عصره واشتغل فى جمعه مدة عمره وكان لا يترك شاذة ولا فاذة الا أدرجها فيه وهو دفتر لا يقدر بثمن .

١٨] تعليق على سفينة الراغب :

وهو تعليق على التأليف المسمى بهذا الاسم للفيلسوف الشيخ محمد راغب باشا أحد وزراء الدولة العثمانية وكله أبحاث فلسفية عقلية فى علوم الطبيعة وما وراء الطبيعة .

١٩] مجموع فتاويه الفقهية :

وهو مجموع ضخم فى الفتاوى الشرعية والنوازل الفقهية التى كان يسأل عنها وتصدر منه أجوبتها .

٢٠]رسالة الحواريين :

وهى رسالة تكلم فيها على الديانة المسيحية وانتشارها على يد الحواريين أصحاب عيسى عليه السلام وتحقيق امرهم .

٢١] رسالتان فى فن الموسيقى :

احداهما خاطب بها صديقه العلامة الفلكى ادريس بن محمد الجعيدى السلاوى ، والاخرى قيدها فى الموضوع نفسه وبحث فيهما فى النغمات العربية والمقابلة بينها وبين الموسيقى العجمية .

٢٢] رسالة في تحديد السلطة للولاة

وهى رسالة فى الفرق بين خطة القائد والقاضى والمحتسب عند المغاربة وتحديد سلطتهم .

٢٣] قانون في الترتيب الادارى والجبايات المالية بالمغرب (١)

ألفه لما كان بالجديدة واستشاره السلطان المولى الحسن فى ذلك وهو محرر على أصول الشرع .

٢٤] تعليق على قصيدة عمرو بن مدرك الشيبانى

فسر فيه الالفاظ الدينية التى وردت فيها وتكلم على معانيها .

٢٥] تقييد في البربر

هذا التقييد يحتوى على أخبار البربر على الجملة قبل الفتح الاسلامى وبعده الى ولاية بنى الاغلب بافريقية وبنى ادريس بالمغرب الاقصى .

٢٦] ديوان شعره

ولم يكن صاحب الترجمة يعتنى بتقييد شعره وجمعه فذهب معظمه اذ لم يكن يحفظه الا فى القطع الصغيرة من الورق فاغتالته يد الضياع ولم يبق الا ما جمعه فى آخر عمره وهو نزر يسير بالنسبة لما قاله فى شبابه .

٢٧] الفلك المشحون ، بنفائس تبصرة ابن فرحون

وهو حاشية على تبصرة أبى اسحق ابراهيم بن فرحون فى أحكام القضاء فى غاية التحرير والتحقيق .

وتوجه بمقدمة عجيبة فى تاريخ الفقه والحقوق الاسلامية وتدرجها

---

١) هذا القانون فقد أصله من خزانة المؤلف ولعله بالخزانة الملكية

كيف جمع المؤلف كتاب الاستقصا

كان صاحب الترجمة فى تعاطيه للعلوم سامى الهمة ، اذا خاض فى فن من الفنون أعطاه كليته وطالع جميع ما يتوصل اليه من كتبه الموضوعة فيه وحررها وانتقدها وقيد ما ناسب تقييده عليها من فوائد مهمة ونكت غريبة مفيدة ، وتلك كانت عادته فى سائر العلوم حتى أن كتب خزانته كلها تحمل تصحيحاته وتقريراته عليها .

ولما تشوفت نفسه للخوض فى علم التاريخ ووقف على ما تيسر له العثور عليه من التواريخ الاسلامية وغيرها فى وقته ، صرف وجهته لتاريخ المغرب الاقصى الذى هو وطنه ومحل نشأته ، فتصفح ما هو موجود فيه من التآليف فألفاها قليلة غير مستوعبة لاخبار من سلف من الدول الاسلامية العظمى التى كانت بالمغرب ، ولا مستوفية لشرح أحوال فتوحاتها الكبرى ومآثرها المهمة التى قامت بها . وغالب من تكلم من كبار المؤرخين على المغرب الأقصى انما يتعرض لاخباره فى عموم الخبر عن الدولة الاسلامية فى الاقطار المشرقية والمغربية الشامل لجميع دول الاندلس وافريقية . ولم يخص أحد هذا المغرب الأقصى بتاريخ خاص ينظم عقد جميع دوله فى سلك واحد ، ويستوعب تفصيل أخباره وجمله لا سيما فى الازمان المتأخرة عن زمن المؤرخ الشهير العلامة ابن خلدون فقد حصل فى ذلك اضطراب وغموض لعدم وجود التواريخ الموفية بالمقصود ، وقديما قيل : ان أهل المغرب لا اعتناء لهم بتاريخ بلادهم وتدوين أخبار ملوكهم وعلمائهم وأعيانهم وذلك يرجع فى الحقيقة لامرين :

احدهما أن المعتنين بعلم التاريخ والمنقطعين اليه قليلون بالنسبة للمتوفرين على دراسة العلوم الاخرى كاللغة والفقه والاصول مثلا غير أن من تصدى منهم لهذا الفن يبرز فيه ويجيد كما هو مشاهد ـ وليس الخبر كالعيان ـ اذ المغاربة معروفون بالاجادة فى التأليف والتحقيق فى المسائل التى يطرقونها

فى الاجيال والاعصار الى الآن ممزوجا ذلك بأفكاره الخصوصية الفلسفية ، وانتقد فى هذه المقدمة التعليم وبين فساده ونبه على وجوب اصلاحه ، الا أن هذا التأليف بقى فيه نحو الربع لم يكمل لان المؤلف عاقه الموت عن اتمامه

وقد كان صاحب الترجمة عازما على كتابة تآليف أخرى غير ما سطر وشرع فى تهييء أصولها وموادها وما زالت تلك الاصول محفوظة فى خزانته الى الآن ، وكلها نفائس وذخائر . فمن ذلك : مواد تاريخ عـــام من بدء الخليقة الى زمنه .

ومن ذلك تأليف عام فى أنساب العرب وتفرق قبائلهم فى العالم والحاق كل فرع بأصله .

ومن ذلك تفسير القرآن على نسق تهتدى به الامة الى طريق الرشد وما كان عليه السلف الصالح .

وهذه المؤلفات العديـدة الانواع المختلفة الاوضاع لم يطبع منها الآن الا ثلاثة فقط ، أولها : «تاريخ الاستقصا» طبع بالقاهرة سنة ١٣١٢هـ ١٨٩٥م.

وثانيها : «زهر الافنان ، من حديقة ابن الونان» طبع بفاس سنة ١٣١٤هـ ١٨٩٦م .

وثالثها : «طلعة المشترى ، فى النسب الجعفرى» طبع بفاس أيضا سنة ١٣٢٠هـ ١٩٠٢م »

والباقى ما زال محفوظا مكنونا . هيأ الله الاسباب لطبعه ونشره ، وتعميم فائدتـــه ونفعه .

ويكتبون فيها وان كانوا أقل تأليفا وكتابة من غيرهم من أمم أخرى .

وثانى الامرين : أن ما ألف وكتب فى التاريخ المغربي قد اندثر جله وانعدم فرعه وأصله ، لعدم الاعتناء بالنسخ وحتى ما يوخذ من التآليف الخطية فجلها لا ينتفع به لكثرة التحريف والسقط والبتر وذلك لعدم ظهور المطبعة فى الاقطار المغربية وقصور الهمم عن النسخ بالقلم .

ألا ترى أن البلاد المشرقية لما ظهرت فيها المطابع كمصر والشام أحيت سائر التآليف القديمة والفنون العلمية فى الجملة فبقى ذلك محفوظا سهل التناول ، بخلاف بلاد المغرب ـ وخصوصا الاقصى منه ـ فان المطابع كانت معدومة فيه بالكلية الا المطبعة الفاسية وهى لم تحدث بفاس الا زمن السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن . فبسبب هذا كله كان المتعاطى لفن من الفنون ـ لا سيما الغريبة منها ـ يتجشم المشاق الكبرى فى الظفر بالكتب المؤلفة فى ذلك الفن بقصد الانتساخ والمطالعة والتقييد .

ومما زاد الحالة حرجا وتعذرا عدم وجود المكاتب العامة بهذه المملكة كما هو الشان فى ممالك أخرى بالبلاد المشرقية والاقطار الاوربية ، اذ لا يخفى أن المكاتب العمومية تسهل مهمة المؤلفين والكتاب ، وتفتح لهم للتحرير والتحقيق كل باب .

فلأجل ما سطرناه من الاسباب لم يقنع مؤلف الاستقصا بما تحصل لديه من الكتب المؤلفة فى تاريخ المغرب ورأى أن القيام بجمع تاريخ خاص مستقص لاخبار دوله محيط بتدوين حوادثه وتبيين عللها متعين على ذوى الهمم العالية من العلماء المغاربة فسمت همته أولا لوضع تأليف خاص فى الدولة المرينية لعدم عثوره على من استكمل أخبارها واستوفى آثارها ولانخرام سلك ملوكها فجمع تأليفه المسمى : « بكشف العرين عن ليوث بنى مرين » فجاء تأليفا ممتعا غاية الامتاع تستحليه العيون وتستلذه الاسماع ثم ترقى بنظره الى وضع التاريخ الكبير المسمى : « بالاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى » فشمر عن ساعد الجد والاجتهاد وجمع ما أمكنه من التواريخ الاسلامية العامة والخاصة وطالعها كلها مطالعة تحرير وتحقيق ، وقيد منها

ما هو خاص بموضوعه واستعان على هذا العمل العظيم بمطالعة ما فى الخزائن المخزنية المراكشية من المكاتب والتقارير والكنانيش السلطانية التى كانت محفوظة هناك حيث كان مستخدما بتلك الحضرة سنة ١٢٩٤ هـ **١٨٧٧** م وما بعدها وتتبع جميع الآثار هناك خصوصا القصور الملكية وآثار الدولة السعدية كقصر البديع وغيره حسبما أخبر بذلك ، وكان ينفق فى الوقوف على ذلك المال الكثير زيادة على ما كان يمده به أصدقاؤه وأحباؤه وخاصته من الوزراء والكتاب والاعيان والرؤساء والامناء من الاحصاءات والمكاتيب والظهائر الشريفة والتقاييد الرسمية وما كان يقيده عن الرجال الطاعنين فى السن من أخبار الدولة العلوية الشريفة والحركات السلطانية والاحوال الداخلية والخارجية ، فاستوعب جميع ذلك حفظا وتقييدا ولم يزل جادا فى تحرير ما ألزم نفسه القيام به ، مكاتبا لجميع الاعيان فى المغرب ملتمسا ما عسى أن يكون لديهم من التآليف والتقاييد وسائر المعلومات الراجعة الى مطلبه حتى توفر لديه من المواد ما اطمأنت له نفسه وحصلت له به الثقة فى نيل الغاية المقصودة والضالة المنشودة .

ثم قدر الله أن انتقل الى مامورية سامية بثغر الجديدة فاجتمع بها مع صديقه الحميم الباشا محمد الجرارى فأمده بجميع ما تحت يده من المكاتيب الرسمية والظهائر المولوية المجتمعة عنده من أسلافه الجراريين من جيش الودايا القائمين بأمر الدولة العلوية المتقلبين فى مناصبها العالية .

قال رحمه الله فيما حكاه : انه ظفر منه بأكياس مملوءة أوراقا كلها أعانته على تحرير أخبار الدولة الشريفة من التوقيعات السلطانية والتقريرات الوزيرية فى جل القضايا المهمة .

ثم تاقت نفسه للوقوف على ما لابد منه من التواريخ الافرنجية خصوصا الدولتين اللتين كانتا محتلتين شواطىء المغرب الاقصى وهما : البرتغالية والاسبانية .

فطلب من أحد القناصل الاوروبيين الذين كانت له معهم معاملات رسمية ووداد بة جلب بعض التواريخ فى هذا الموضوع فجلب له منها ما

تيسر واتخذ لذلك ترجمانا خاصا مـن التراجمة الموظفين باحدى السفارات الاوروبية فصار يترجم له تلك التواريخ ويقيد منها مـا دعت الحاجة اليه حتى استوعب ما أمكنه العثور عليه ثم اتخذ كاتبا خاصا لتدوين التـاريخ المذكور فرتبه ووضع تراجمه وصار يمليه على الكاتب املاء من غير تقييد ـ كما أخبر بذلك ـ الا بعض المسائل المهمة التى تعرض أثنـاء التاليف حتى أتـم املاءه فى مدة (١) يسيرة وذلك بثغر الجديدة فى أواخر سنة ١٢٩٧ هـ ١٨٨٠ م .

ولما أتم تأليفه واطلع عليه السلطان المولى الحسن استحسنه وكتب لـــه ظهيرا شريفا بالتنويه به واهتم بطبعه ولم يتيسر ذلك فى الحين لما ذكرنا مـن تعذر المطابـع .

ثم أن صاحب الترجمة لما عزم على طبعه على نفقته بمصر وصل الكلام فيه الى آخر دولة مولاى الحسن واول دولة مولاى عبد العزيز وذلك فى متم ذى الحجة عام ١٣١١ هـ ١٨٩٤ م فتم طبعه فى أواخر رمضان عام ١٣١٢ هـ ١٨٩٥ م على نسخة صححها بنفسه حيث أن نسخته الاصلية التى كان أملاها حفظت بالمكتبة السلطانية الخاصة بمكناسة الزيتون .

فهذا سبب تأليف تاريخ الاستقصا وكيفيته حسبما قرره المؤلف قيـــد حياته لاكبر أنجاله .

ومن هذا يعلم أن المؤلف تجشم مشاق عظيمة فى جمع هـذا التأليف وتدوينه لانه لم يتيسر له العثور على جميع التواريخ المؤلفة فى المغرب فضلا عن غيره لا سيما التواريخ الاوربية لعدم معرفته بالالسن الاجنبية وكـــون التاليف الخطية جلها محرف مصحف ولا توجد مكاتيب عمومية تعين على تحقيق ما يعرض من المسائل الدقيـقة حسبما سبـق بيـان ذلك ؟ فللمؤلف

---

(١) ذكر المؤلف فى آخر النصف الاول منه أنه شرع فى املائه منتصف رجب عام ١٢٩٧ هـ وفرغ منه فى منتصف ذى الحجة من السنة المذكورة ؛ وعليه فتكون المدة التى استغرقها فى املاء النصف الاول خمسة أشهر فقط . اهـ صفحة ١٠٥ من الجزء الثانى طبع مصر عام ١٣١٢ .

العذر فيما لم يمكنه تحريره من تاريخ البربر ودول المغرب قبل الاسلام .
وربما يظن بعض المؤلفين بعده ممن وقف على تأليفه هذا أنه قصر فى سياق بعض الاخبار مع أنه نثر ما فى كنانته وأتى بما فى وسعه وطاقته وما لم يتعرض له أو ضرب عنه صفحا انما ذلك لمقصد سياسى خصوصا فيما يرجع للاعصر المتأخرة ، اذ لم يكن الوقت يساعد على ذكر كل شىء لا سيما والهيئة الاجتماعية التى ألف لها التأليف اذ ذاك ما زالت فى حالة لا تقبل أكثر مما ذكر والانسان ابن وقته وهو ملزم بمسايرة ابناء عصره .

ولو أتيح له الوقوف على بعض ما هو موجود الآن من التآليف والاحصاءات بغير لغته لكان بادر الى ترجمته واستخراج فوائده ودرره لانه كان معروفا بسمو الهمة متعطشا لكل ما يمس بتاريخ هذه الامة ومن أتى بالمستطاع ففوق جهده لا يلام .

هذا وقد ترجم تاريخ الاستقصا الى اللغة الفرنسية واشترك فى ترجمته جماعة من المستشرقين ، فقام بترجمة القسم الاول القنصل الفرنسى المسيو كرول (١) ، والقسم الثانى المسيو كولان (٢) المستشرق الفرنسى ، والقسم الثالث الاستاذ اسمعيل حامد الجزائرى ، والقسم الرابع أحد أنجال المؤلف المحررين لهذه الترجمة وهو الاستاذ محمد، والقسم الخامس المسيو فيمى(٣) الفرنسى ، وطبع الجميع فى مجموعة «أرشيف ماروكان (٤)» . كما ترجمت منه قطع وتراجم أخرى مختلفة فى موضوعات شتى ترجع للسياسة والاجتماع المغربى الى الاسبانية والبرتغالية والايطالية والانجليزية الخ . وبالجملة فهو عمدة المؤرخين ومورد المستشرقين وقد طبقت شهرته الخافقين ولم يظهر الى حد الآن تاريخ مغربى يوازيه أو يغنى عنه ويسد مسده فهو العمدة والمؤرخون عيال عليه .

---

1) Graulle. 2) G. S. Colin. 3) Fumey. 4) Archives Marocaines

وفاتـــــه:

لما انقطع صاحب الترجمة عن الاشغال المخزنية وتفرغ للكتابة والمطالعة والتأليف وتأديب أكبر أنجاله وتزويده بالعلوم العربية التى خاض فيها ولا تستفاد من غيره اليه . لزم بيته فكان لايخرج منه الا لالقاء درس أو أداء فريضة دينية فتسبب عن قلة حركته وتعب فكـــره بالسهر والمراجعة وحل عويص المشكلات ضعف فى قواه البشرية . فبدا لـه أن يخرج الى مزرعته بالبادية قاصدا صلة الرحم مع أخيه الذى كـان مقيما هنـــاك ، وبعد ذلك يتوجه لزيارة ضريح الشيخ المولى عبد السلام بن مشيش بجبل العلم ويعرج على تطوان والعرائش ويتفقد أحبابه وأخواله المستوطنين هنا كعسى أن يجد راحة مما ألم به من تعب الفكر وضعف القوى البشرية .

ولما أزمع على تنفيذ هذا العزم المهم فاجـــأه المرض فأظهر التجلد لمن كان يريد مرافقته فى هذه الوجهة ثم أعرض عـن ذلك ووجه معهم ولده الاكبر محمد العربى واستمر به المرض نحو نصف شهر ، وكـــان يتزايد يوما فيوما ولم ينجع فيه علاج الاطباء الماهرين الى أن توفاه الله فـى غيبة ولده المذكور طلوع فجر يوم الخميس السادس عشر من جمدى الاولى عام خمسة عشر وثلاثمائة وألف هجرية الموافق للثانى عشر مـن أكتوبر سنة سبع وتسعين وثمانمائة وألف مسيحية .

واحتفل أهل العدوتين (الرباط وسلا) احتفـــالا عظيمـا بجنازته مع المحافظة على السنة طبق ما أوصى به ليلة وفاته ولم يتخلف أحد عن مشهدها من كبير أو صغير . ودفن ضحوة اليـــوم المذكور بالمقبرة المعروفة بمقبرة باب المعلقة من سلا خارج الباب المعروف بهذا الاسم وقبره معروف مشهور هناك يقصد للزيارة ، يبعد عـــن شاطىء البحر المحيط بنحو المائة وخمسين مترا . وبعد الفراغ من دفنه جاء الغيم والسحاب من كل جانب ، ثـم أرسل الله الغيث فسقى قبره رحمة وأمنا ، وتوالت الامطار تنـزل مكررة حتـى تلطخت المبانى وعصفت الرياح والزوابـع وسقطت الحيطان وقلعت الاشجار

من أماكنها وعم ذلك المغرب كله وكان الحادث عظيما أفزع الناس وأخبر الطاعنون فى السن منهم أنهم لم يروا مثله فيما مضى واسترسل ذلك الى الليل ، وما زال الناس يؤرخون بيوم وفاته لما وقع فيه الى الآن ويعتقدون اتصالا بين وفاته وبين هذه الحوادث الجوية لما كان له من التعظيم والوقع فى نفوسهم ،

ورثاه جماعة من أهل عصره بالقصائد البديعة منهم تلميذاه الفقيه المؤرخ محمد بن على الدكالى السلاوى ، وأديب سلا الفقيه الحاج الطيب عواد وغيرهما نظما ونثرا (رحمه الله) . فأما قصيدة محمد بن على الدكالى فمطلعها :

ما ذا يكف مدامعى وهيامى ... وقد انكوى قلبى بنار حمامى ؟
من كان مغترا بأحلام الدنا ... نكأنه فيه لمن النيام

الى أن قال :

أو ما ترى فى كل حين ناعيا ... يصمى النهى فى الصحب والاعلام؟
لم يخل عصر دون خطب فادح ... ومصيبة فى أنجم الاسلام
كمصيبتى فى فقد أحمد ذى العلا ... أعنى أبا العباس ، خير امام

الى أن قال :

فى كل قطر عنه ذكر شائع ... بالشكر والاجلال والاعظام
لكن هذا الدهر يطوى مثله ... ويجوز ما أسدى من الانعام
بينا أبو العباس ينشر فضله ... ويحوطه بنانه ، ويحامى
اذ جاءه كأس الحمام كما أتى ... من قبله رفعا الى آدام
كل الحوادث للفناء مصيرها ... فالى متى نصغى الى الاحلام
لا بد من يوم ترد ودائع ... فيه ، وينهى العمر للاعدام
مد الحمام يديه نحو علائه ... فغدا يلبى فى سرور نام
ما راعه هول الحمام وبطشه ... بل صحت الافكار بالاسقام
لم يخل من ذكر الاله وحبه ... والشوق للمولى وذى الاكرام
ما زال يوصى بالمهم ويختشى ... من بدعة تبدو بذى الايام

حتى قضى ذاك الهمام مهنئا　　بالعفو ، والغفران ، والانعام
بكت العيون مع القلوب لفقده　　حتى السماء بكت بدمع هامى
غيث أصاب القبر منه رحمة　　وبشارة ببلوغ كل مرام
وجرى بيوم الفقد أمر ما جرى　　فى سالف الاعصار والايام
عصفت رياح الجو حتى زلزلت　　راسى البناء ومعظم الآجام
واغبر وجه الافق وانصب الحيا　　يحكى دماء الجرح والآلام
خطب أقام قيامة وكسا السما　　ثوب الحداد لفقد بحر طامى
حجبت عن الابصار شمس نهارنا　　لما اختفى بالرمس بدر تمام
أسفى على تلك المعارف بعده　　من ذا يقوم بحفظها ويحامى ؟
أسفى على أخلاقه وصفائها　　وسنائه الوقاد فى الاظلام
أسفى على فك العويص ومن له　　بعد ابن ناصر ناصر الاسلام ؟
أسفى على علم الحديث وسيرة　　ومناقب الانصار والاعلام
أسفى على التفسير بعد غيابه　　من يحسن التحقيق فى الابهام ؟
أسفى على آدابه وعلومه　　فقدت بفقد جلاله المتسامى
أسفى على علم الاوائل سامه　　فأطاعه العاصى بلا الزام
كان المشارك فى جميع أصوله　　والمنتقى لمعين كل مرام
وأعاد ميت العلم حيا خالدا　　بالنشر والتأليف والاحكام
من ذا يحقق بعده من أمر ذا　　ما أشكلت معناه للافهام ؟
لهفى على تلك المواقف من يقم　　بقيامه فيها ، وحسن كلام
لهفى على نصح العباد ووعظهم　　ذهب الكفيل بكل ذا ، والحامى
يادهر بع ما شئت من رتب العلا　　ان الجدير بها رهين حمام
عجبا لعصر صار يخفى مثله　　وبه سما أكرم بخير امام

الى أن قال عند ختمها وهى طويلة :

أرخت عام وفاته فأتى بذا　　شرف له يتلى على الايام

***　　١٢٨٠ ١٥

١٣١٥

وأما قصيدة الاديب الحاج الطيب عواد فقد توجها بنثر نصه :

ولكاتبه سامحه الله يرثى شيخه امام المعقول والمنقول ، وقبلة الايمة الجهابذة الفحول ، من بكت لفقده الخضراء ، وزلزلت الغبـراء ، وانقضت الشماريخ ، وذيل بيوم موته التاريخ ، العالم العلامـة النحرير ، المخصوص بكمال التحقيق وأساليب التحرير ، صدر الصدور والمدارس ، وزينة المحافل والمجالس ، المرقى بهمته لنيل المزايا والسلم ، المبهم بالبراهين الساطعة لمن يهرج بزخارف القول وتكلم ، من ارتشف مـن ثدى الفصاحة والبـلاغة ورضع ، وسجد له يراع البراعة فـى زوايا الطروس وخضع ، الروض الهتون ، وصاحب الفلك المشحون ، أبو الاستقصا ، وراوية المغرب الاقصى ، الحاوى من كل فن الطارف والتالد ، أبو العباس أحمد بـن أبى البقاء خالد الناصرى ، وذلك بعد انتقاله لدار البقـاء ، بمدة مديدة ، وسنين عديدة ، مضت كالسنة ، تناهز الست عشرة سنة ، واجهنا الله واياه بوجوه السرور ، الباسمة الثغور .

أهالى الطول بعد الطـول ترثى ... بمـا اكتسبوه تعصيـا وارثا
لقد كانوا محل الروح من ... كما كانـوا لتلك الروح جنثا
ومـذ أفلت شموسهم وغابت ... نجومهم ، بقينـا ـ حوث ـ يوثا
ولا كالجعفرى الطود المكنى : ... أبا العباس ، مـن قد كـان ليثا
مهيبا ، بـل هماما ، بـل اماما ؛ ... يحث على خصال الخير حثـا
ومن نشر العلوم بحسن قصد ... وعن تحصيلها القـوم استحثا
له فيها اليـد الطولى جميعا ... ويعطى صعبهـا نظـرا وبحثا
سمين نتاجه لا زال غضـا ... وما كـل السمين يصير غثـا
يجـد السير فى طلب المعالى ... ولا يرضى ، اذا مـا جـد مكثا
اذا مـا مثلـه فى ذا تـوانى ... فمنه لا تـرى عجزا وريثا
أبـو عزم ، وجـد ، وانتقـاد ... يبث العلـم والاسرار بثـا
ويرشد لاتبـاع الخير جهرا ... وينفث جوهرا من فيـه نفثا
على نفـع العبـاد يرى حريصا ... يود عمومه ، ذكـرا وأنثـى

يجل المستفيد ويرتضيه … اذا استفتى واياه استبثا
معاذ الله ان أعطاك عهدا … ترى يوما له نقضا ونكثا
اذا ما سل سيف النصر يوما … محا من رام افسادا وعيثا
ففى سد الذرائع كان فردا … ومالك وقته أو كان ليثا
وان تحرز مفاخره تجده … حوى شطر الفخار ، وزاد ثلثا
اذا ما أمحلت أرض المعانى … سقاها من سماء الفهم غيثا
فتصبح فى اخضرار وابتهاج … تطاوع من يشا نسلا وحرثا
وحقك ما رأيت له نظيرا … ولست ترى لقول الحق حنثا
على فقدانه تبكى البواكى … فقد أمسى رداء المجد رثا
وموئل من تراه الى فناء … أبى المولى بدار الحزن لبثا
سقى مزن الرحيم له ضريحا … يصاحب روحه حشرا وبعثا

الى غير ذلك من القصائد والقطع الشعرية والنثرية ، تغمده الله بغفرانه وعامله برضوانه ، ومهد له فى الفردوس الاعلى من جنانه ، وجزاه عما قام به من خدمة الدين والوطن بنشر العلم الصحيح والارشاد الى طريق الحق والصدع به والذب عن السنة ورفع لوائها خير ما جزى به من آمن بالله ودعا اليه وعمل صالحا وأولئك هم المفلحون .

تقديره :

لما كان المترجم له رحمه الله بالمنزلة التى بوأه الله اياها علما وفضلا وشهرة وذكاء ونبلا فقد قصده الجم الغفير من علماء وطلبة وقته وترددوا الى بيته ، ولازموه للاخذ عنه فانتفعوا به ، واعترفوا بفضله ، وخصوه بالثناء العاطر ، والمدح الفاخر نظما ونثرا ، فمن ذلك ما ترجم له به أحد أعيان تلامذته العلامة المؤرخ أبو عبد الله محمد بن على الدكالى السلاوى فى تاريخه المعنون : « بأزهار البستان فى أخبار العدوتين ومحاسن الاعيان »

ما نصه :

الشيخ العلامة المشارك الاستاذ الفاضل أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى الجعفرى رحمه الله . من بيت جلالة ودين ، وشرف نسب وحسب راسخ العمد مكين ، يتوارثون المجد طريفا وتليدا ، ويتوشحونه والدا ووليدا ، وهذا السيد فى محاسنه اعجوبة وحده ، ولست أدرى بما أصف كماله ومجده ، كان آية الله ذكاء ونبلا ، وتحصيلا وفضلا ، وهمة ناكبت السهى ، وتحقيقا فى المعارف بد فيه النهى ، أتقن العلوم الآلية فكان فيها اماما ، وحرر المقاصد من سواها فملك منها زماما ، فهو انسان كامل ، لم يحلم الدهر بمثله ولا يعثر له على نظير فيقاس بشكله ، وقدما قيل : ان النفيس غريب حيثما كانا .

مشارك محصل ، مطلع منصف فى علوم شتى ، من ذوى المروءات والاحتفاظ بالرسوم الدينية والاخذ بالجد والنهج الواضح ، لا تاخذه فى الله لومة لائم ، أخو وقار لاتهزه العواصف ، ورقة تسبق فى اللين العواطف ، وله تحقيق بجزئيات العلوم وكليتها وأصنافها وأشتاتها ، خالط المألوف منها والمتروك ، واستصفى من قديمها لبابا ما خالطته الظنون والشكوك ، ملأ ذكر آدابه المغارب والمشارق ، وحلى لبات الدواوين بطنانات قصائده المسطورة فى المهارق . وله تآليف شتى فى أكثر العلوم ما بين مطول مفيد ، ومختصر للمستفيد ، ولسانه فى المحاضرة والدرس كقلمه فى التصنيف والاملاء ، طويل الباع ، رحب الذراع ، طلق العنان ، بالحجة والبيان ، ملآن بالبرهان . عريض الفذلكة الموقوف على المقصود بامعان فصيح التعبير ذلق اللسان بالحجة ، عصامى النفس ، صعب المقاد الا فى طريق الحق ، فألين من كف عذراء محدرة ، له اطلاع تام بالاصلين واحاطة كبرى بالعلوم اللسانية ، وله فى المنطق ملكة عجيبة ، وفى الفقه لا يجارى . أما علوم الادب فهو ابن بجدتها الهمام ، عارف بأحوال الزمان وذويه مشاور فى دولة السلطان القدس مولاى الحسن أمير المومنين ألحفه الله رضوانه ، وأيام الوزير الكبير أبى العباس أحمد بن موسى بن أحمد رحمهم الله .

وبالجملة فهو الجامع لاشتات المكرمات ، والحائز قصب السبق فى سائر المعلومات ، دروسه محافل للتحقيـــق ، وتآليفه رياض مونقـــة بالتحرير والتدقيق ، وأشعاره السحر الحلال ، أو الماء الزلال ، وأخلاقه حسنة تاخذ بمجامع القلوب رقة وظرفا ، ونزاهة ولطفا ، وفكاهة يستنزل بهـا الهم من صياصيها ويقود الشرود من نواصيها ، مجالسه فى المحاضرات نـزه الاسماع والارواح ، ومسرات للقلوب والاشباح .

أحاديث لو صيغت لالهت بحسنها * عن الدر، أو شمت لاغنت عن المسك

وله مع هذه الحالـة دؤوب على المعارف وعكوف ، أخبرنى رحمه الله بمديـنة فاس سنة ست وثلاثمائة وألف أنـه أقام فى مطالعة مقدمة تاريـخ العبر لولى الدين ابن خلدون خمسة أعوام يفك معماها ، ويتفهم مغزاها ، حتى لاح له من محياها يـوح ، وامتزجت علومها الجمة بفكره فسرت فـى تاموره مسرى الروح . وكان يستظهر ديوان أبـــى الطيب المتنبى ويعجب بمحاسنه وخصوصا بما فيه من الحماسة ويطرب لسماع انشاده .

وكان علماء تلك الحضرة الفاسية يعرفون قدره ويجلونه غاية الاجلال ويتعجبون من وجود ذلك الفرد على تلك الحال حائزا لصفات الكمال ، ولا بدع فانه انفرد بالمعارف فى وقته ، وعز أن يلحق فـــى نعته . كـان شيخ الحرمين الشريفين شيخ شيوخنا العلامة الصالح أحمد بن زين دحلان رحمه الله وجه للمغرب الاقصى على تاريخ جامع استوعب أخبار ملوك المغرب من لدن الفتح الى عصرنا ، فلـم يلف على هذه الصفة الا تأليف شيخنا صاحب الترجمة المعنون بالاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى فوجـه للسيد دحلان منه نسخة فأكبر شأنها وطار بها سرورا وعجب من وجود مثل ذلك التاريخ العجيب فى زمانه وأثنى عليه ، ودعا لمؤلفه ، حدثنى بذلك الثقة عمن حدثه عن السيد دحلان المذكور .

وأعجب من ذلك مـا حدثنى بـــه شيخنا صاحب الترجمة رحمه الله بمدينة فاس أيضا أنه لم يتكلف فى جمعه لذلك التاريخ العجيب مشقـة ولا أطال فيه مدة ، بل أملى جله املاء بالجديدة صانها الله لمـا كان مستخدما بها

محررا بدون تسويد ولا اعادة تخريج ، ومثل ذلك غريب فى صناعة التاليف عند من يعانيها ولكن مثل شيخنا المتسع العارضة اصحيح الافكار السالم الذهن لا يحتاج الى تسويد أو اعادة تخريج ، فتبارك الله أحسن الخالقين . وقد ألم ببعض محاسن هذا الامام الفاضل خاتمة الشعراء المجيدين بسلا حاطها الله أبو عبد الله محمد بن ناصر حركات رحمه الله حيث يقول فى قصيدته البائية التى مدحه بها ومطلعها :

بأمى أنتم وأبى * برغم مكابر وأبى(١)

وترجمة هذا الفاضل أوسع من أن يحاط بها وفى هذه الصبابة كفاية للعجلان ، وبلغة تسد رمق اللهفان ، والا فمزاياه ومحاسنه وماجرياته تخص بديوان ، انتهى .

ومرض صاحب الترجمة مرة مرضا شديدا حتى خيف عليه منه ثم تداركه الله بالراحة والعافية ففرح بذلك أهله وذووه ورفقاؤه وتلامذته ، وهنأه بالعافية تلميذه أبو عبد الله محمد بن على المذكور بالقطعة الآتية :

حق الهناء وجاءت السراء	وانزاح عنا الهم والاسواء
وتوالت الافراح فى تنسيقها	والايك قد غنت بها ورقاء
والروض فاح عبيره ، وتناثرت	من زهره الحمراء والصفراء
ونثار طل فى اخضرار غصونه	كالدر ، لكن أرضه خضراء
وبشير يمن مسفر عن غرة	ضاءت بنور جبينها الانحاء
لما بدا وصف الشفا لامامنا	حبر العلوم ، سرت بذا الانباء
علامة الدنيا ، وفرد زمانه	من وصفه التأليف ، والافتاء
والدرس والنصح الذى عم الورى	والذكر والتقييد والاملاء
العالم العلامة الطود الذى	علمت جلالة قدره الزوراء
شيخى أبو العباس أحمد من صفت	أخلاقه ، يحكى صفاها الماء
وتكاملت أوصافه وتعددت	آثاره المحمودة الغراء
دمت سعادته ودام شفاؤه	ما عطرت من ذكره الارجاء

(١) سناتى بهذه القصيدة بتمامها فى هذا الفصل .

وقد ذكره أيضا أبو عبد الله ابن على المذكور فى تأليفه المسمى «اتحاف أشراف الملا ، ببعض أخبار الرباط وسلا» قال :

ومنهم الشيخ أبو العباس ... أحمد صدر الجلة الاكياس
وهو ابن خالد بن ناصر ، العلم ... الاوحد الفرد النزيه المحترم
آخر أهل الفضل علما ودها ... وخبرة جلت . وجازت السهى
مشارك محصل محقق ... نهامة دراكة مدقق
مؤرخ نسابة اخبارى ... محاضر مخالط الاكثر
محدث ، أخو أصول وفروع ... عنده لكل عرفان نزوع
وشارك الاعلام فى التعالم ... وللذى بعد الطبيعة نمى
وكان فى الرياضى والمسيقى ... أخا دراية ، وذا تدقيق
واضطلعت أفكاره لما بدا ... من المعارف جديدا فغدا
مستشرفا لها وصار دريا ... بجلها ، وبخفاها حريا
فعظم الفيد وجل الخطر ... وكثر الخير وطاب الخبر
فلم يكن فى عصره مماثله ... ولا مقارب له يشاكله
وفى الذى ألف أعظم دليل ... على مقالنا ، فراجع واستدل
ألف فى التاريخ والاداب ... والفقه والرسم وفى الانساب
وغيرها من فائد الاوضاع ... مما ينيل الفيد ، كالامتاع
حاور منكرا وجود الصانع ... بما أفاده بوجه نافع
وعاد للحق بأوضح دليل ... واسهل الطرق ببرهان جليل
وهو مسير سفن البحار ... بغير ربان ، ولا مجارى
بل وحدها تسافر استقلالا! ... فاظهر الدهرى لذا اختلالا !
قال له الشيخ : كفاك فاعترف ! ... فانما الكون كما قبل وصف!
سفينة ليست تسير وحدها ! ... ومن يدبر جمعها وفردها ؟
قال : يقال قوة لا تعرف ! ... وانما بقدرة تتصف !
قال له الشيخ : بلى ، رب الوجود! ... هو مدبر الخفاء والشهود !
وما زعمتم قوة ليس كذاك ... فانما الجهل محيط بسناك !

فاعترف الدهرى بأن الصانعا ... مدبر الكون ولا منازعا !
والتزم التقبيل للنعال ... لما بدا الحق بلا اشكال
وكان فى الدرس فصيحا ممتعا ... ينفع من خص ومن عم معا
وفى الخطابة تخال قسا ... وفى المحاضرة جل أنسا
وكان كشكولا لكل فضل ... وعيبة ليس لها من مثل
وهو امامى ومفيدى الاكبر ... وهو ملاذى بسلا المعتبر
لازمت درسه لدى التفسير ... فى معظم القرآن بالتحبير
وفى سواه لم أزل مرددا ... لفيده ، وللمعالى مسندا
سحت عليه سحب الرضوان ... فى كل حين بارتفاع شان
قضى بأرضة سلا حميدا ... بعام يه (١) عصرنا رشيدا
وفقدت بفقده المعارف ... ومن سحاب الغيث صب واكف
على ثراه عندما فرغنا ... من دفنه وربنا دعونا !
وأرسل الجو بريح عاصف ! ... واتصل الغيث بمالم يوصف !

وممن مدحه أيضا أديب سلا فى وقته أبو عبد الله محمد بن ناصر حركات السلاوى قال :

بأمى أنتم وأبى ... برغم مكابر وأبى
اخلائى وان خنتم ... وضرب الخل كالضرب
محاسنكم وحاسدكم ... كخذلان ومكتئب
سبت عقلى - ولاعجب - ... فكم غيرى بهن سبى
أحبكم . وكم حب ... ترى خيرا من النسب
وسر الحب فى قلبى ... قلوب الناس كالقلب
نصبت لرفعكم أملى ... لكى أنجو من النصب
صلوا عبدا لكم أضحى ... سدى متقطع السبب

---

(١) أى عام خمسة عشر .

يحن الى الذهاب الى ... رضاكم لا الى الذهب
تقربه اليكم بال ... خضوع لكم من القرب
ومطلوبى لان أحظى ... من الرضوان بالارب
لعل الله يغفر لى ... بفضلكم ويلطف بى
وراجيكم وآملكم ... وايم الله لم يخب
ألا يا أحمد المجلى ... محياه دجى الكرب
جمعت من المعالى ك ... ـل مجتمع ، ومنشعب
زها بك كل ديوان ... من الاشعار والخطب
وقد عرفتك أنواع ال ... ـعلوم بدون ما ريب
وقد نشبت بنهيتك ال ... ـمعانى كل منتشب
وقد ألقت أزمتها ... اليك تقول : ها سلبى
سلا عما ذكرت سلا ... بتصديقى اذا تجب
به زانت محاسنها ... كزين اللحظ بالهدب
به تاهت على الامصا ... ر تسحب حلة العجب
به افتخرت على الاحبا ... ر فخر الافق بالشهب
لقد فاق الورى طرا ... بحسن الخلق والادب
وناديه البهى العارى ... من الافحاش والصخب
تمهر فى العلا طفلا ... ونال الفخر وهو صبى
مقر العلم مقربه ... قرير الجفن بالكتب
رمى أغراض معناه ... بأسهم فهمه الصيب
فلم تعب الذى قد حا ... ز من شيم ولم تعب
حبيت بنصرة يانا ... صرى على ذوى الحرب
وخلد فضلكم يا خا ... لدى لرفع مكتتب
ظفرت بكل مختار ... لذى أمل ومنتخب
وحسبك يا أبا العبا ... س ما قد نلت من حسب
بنفسك أنت سدت فلم ... تقل للفخر : كان أبى

على أن العلا تنمى — الى آبائك النجب
نحارير مشاهير — ذوو الاقدار والرتب
لقد سادوا وقد قادوا — وقد جادوا بمطيب
لهم قصب السباق يرى — فيما لله للنصب
لزوم المكرمات لهم — لزوم الكف للشعب
مفاخرهم لها فى كـ — ـل عصر شهرة الشهب
ألا يا لائمى فيهم — لقد أفسدت فارتئب
متى أضحيت فى تعب — بتعنيفى ولم تعب
فهم قومى الذين بهم — أؤمل نجح مطلبى
أساتيذى وأشياخى — حماة الصارخ الشجب
بهم واليهم لا زا — ل مفتخرى ومنتسبى
ومن أعراضهم هربى — وفى اقبالهم رغبى
الى أحسابهم أبدا — بأكم صاد وكم سغب
بهم ضاءت مغاربنا — ضياء البدر فى الغرب
وأشرق فى المشارق نور — بهجتهم ، فسل تجب
أجل جلة قاموا — بسنة خير كل نبى
محمدنا أجل الخلق من — عجم ومن عرب
صلاة الله دائمة — عليه لمنتهى الحقب
كذا أهلوه ما ضحكت — بروق من بكا السحب
وأصحاب وأنصار — مع الازواج والعقب
أبا العباس ته فخرا — على ارغام كل غبى
فأنت المرء فى نبل — وأنت الفرد فى أرب
وأنت البحر ما تلغفـ — ـظ بالياقوت لا الحطب
عصامى عظامى — حميد البعد والقرب
أحق فتى تحلى بالـ — زكى النفس والحسب
وبالعلام والاستا — ذ والنحرير والارب

وبالعدل الرضى الـ — مرضى ذى الانصاف والهذب
ومشكلة جلوت عن — غوامضها دجى الريب
بتحقيق وتدقيق، — وتوضيح وكشف، خبى
توقفها عليك كما — مسببة على السبب
وكم علم حدائقه — بغير شذاك لم تطب
وأغراض لمغناه — بدون حجاك لم تصب
فيا قاموس قد أربى — على الايام بالعجب
فلا تنفك زخارا — بلج العلم والادب
لتبعث لى سميك من — بويبى آخرى طلبى

وقد مدحه أيضا الشيخ العلامة القاضى الاديب الحاج أحمد سكيرج بقصيدته التى قرض فيها تاريخ الاستقصا وهى :

اذا رمت تاريخا لمغربنا الاقصى — عليك بتأليف يسمى بالاستقصا
كتاب تجلت فيه صورة من مضى — لدى كل ذى عينين يفحصها فحصا
تجلت مرائيها بمرآته التى — صفت وانجلى فيه القريب مع الاقصى
كأنك اذ تقرأه كنت معاصرا — لمن صار عنهم، مخبرا بالذى أحصى
فراجع اذا ما شئت كل مؤرخ — ترى ممن الاستقصاء ما فيه قد خصا
يعبر فيه بالحقائق كاشفا — خفايا أمور قد مضت طبق ما نصا
وقد شاد فى أوج الكمال قصوره — بغير قصور وهو عنه نفى النقصا
وكم من حسود رام ينكر فضله — ولكنه فى الناس فى ريقه غصا
فطالعه تشهد بالذى قد شهدته — فكم شاهد يتلوه منه نفى الخرصا
مؤلفه الحبر المبرز أحمد — محامده لم يحصها الناس باستقصا
وقد جد فى تحريره فى «جديدة» — فجاء جديدا فيه سهل ما استعصى
وقد جاء تأليفا بأسلوبه سبى — نفوسا بتحقيق لها قرب الاقصى
فأكرم بهذا الناصرى الجعفرى الذى — به كان فى نشر المعارف مختصا
جنى زهر أفنان الفنون لطالب — وطلعتها للمشترى تنتج الرقصا
فجازاه خيرا ربه فى الذى به — أفاد وأعطاه مكارم لا تحصى
وبارك فى أنجاله وأنالهم — كمال الرضى فيما به عم أو خصا

* * *

وأثنى عليه أيضا فى القصيدة التى خاطب بها أنجاله بقوله :

وأبوهم محيى مآثر من مضى فى عصره بمناقب لم تنكر

وهو المبجل أحمد ذو المنصب الـ اسمى السلاوى الناصرى الحبر السرى

المتقن التأليف حقا المعنو م وللقلوب بخبرة وتبصر

فانظر للاستقصاء فهو به أتى فى عالم التاريخ أصدق مخبر

ولديه فى الاداب والانساب ما هو زهر أفنان وطلعة مشترى

وممن ترجم له فى فهرسة أشياخه واثنى عليه الفقيه العلامة القاضى عبد القادر المراكشى دارا ، الدكالى أصلا رحمه الله قال :

ومنهم علامة زمانه ، ونادرة قطره وأعجوبة أوانه ، العالم العلامة الحبر الفهامة ، رئيس العلوم وجبل التقوى ، وشيخ من أسند وروى ، أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى ، اذا شملتك اندية دروسه ترى حبرا بحرا ، وعالما هو بجميع أوضاع العلوم أعلم وادرى ، يوضح من كلام الفحول كل ما أشكل ، ويحل من مقفلات المسائل ما تعاصى عن الافهام وأعضل .

فلله من حبر يفيد جليسه بما يملأ الاوطاب زبدا ومن عسل

قرأنا عليه بمراكش فى حدود سنة ١٢٩٥ مقدمة تلخيص القزوينى كلها بمختصر السعد ومطالعة المطول والاطول ، كان يجلس بعد صلاة العصر الى أن يتدانى الغروب ، ومجالس من الصحيح وشمائل الترمذى بقصد الاخذ ومذاكرات وتحقيقات وافادات الخ .

هذا وقد أطبق أهل عصره ومن بعدهم على الثناء عليه ، والشهادة له بطول الباع وسعة الاطلاع ، والاستقلال التام فى الفكر والرأى والمجاهرة بنصرة السنة والتحذير من البدع والصراحة فى القول بالحق ولو كان مرا ، مع الاخلاص فى محبة وطنه المغرب الاقصى ، والتفانى فى سبل الدفاع عن كيانه الدينى والسياسى والاقتصادى والاجتماعى والادبى بقلمه ولسانه ، ومحض النصح لذوى الامر والرياسة فى وقته وتحذيرهم مغبة التوانى والتفريط والاخذ بالحيطة وسلوك السياسة الناجعة فى تدبير

شؤون البلاد وتسيير دفة ادارتها فى الخارج والداخل .

وقد ترجم له الجم الغفير من الكتاب والمؤلفين المسلمين والاوروبيين ونقلوا عنه واعتمدوه فى أبحاثهم الاجتماعية والتاريخية والدينية بحيث لا تكاد تجد موسوعة أو فهرسا الا وله فيه ذكر .

ولو تتبعنا من كتب فيه من المسلمين والفرنسيين والاسبانيين والبرتغاليين والانجليز وغيرهم لطال بنا الكلام فيما أصبح معلوما عند أرباب الصحف والاقلام .

خاتمة :

لقد تحصل من سرد سيرة وأخبار حياة هذا الرجل المنقولة عما كتبه عن نفسه وما هو مقرر معروف من أحواله فى عائلته وقومه وما يستنتج من مطالعة مجموع مؤلفاته ونتف أفكاره أنه كان نسيج وحده ، وفريد دهره ، كأنما كان ينظر الى المستقبل من وراء حجاب ، ويكشف عن أحوال الدهر بنور أفكاره الطائبة النقاب ، ولو نشأ فى عصر غير الذى نشأ فيه ، وأمة أرقى من التى أوجده الله فيها لظهر منه العجب العجاب .

وهذا مع كونه لم يفارق هذه الاقطار المغربية ، ولم يطلع على لسان من الاسن الاجنبية ، ومع ذلك فقد طرق مواضيع شتى فى فنون مختلفة برهن فيها على كمال مقدرته وسعة مداركه فى عصر لم يكن أحد من أبناء جلدته يهتم بشىء مما كان يرمى اليه أو يقدر قدر العلوم التى خاض فيها ، أو تصدى اليها ويعرف أهمية المنازع الاجتماعية والاخلاقية التى كان يهتم بها فجزاه الله خيرا على ذلك . وقد بسطنا ترجمته فى محل غير هذا وشرحنا جل هذه النقط التى المعنا بها فى هذه العجالة. وفى هذا القدر كفاية ومقنع .

١٨ ربيع الاول ١٣٤٠

١٩ دجنبر ١٩٢١

جعفر الناصرى - محمد الناصرى



كتـــاب

الاستقصا

لاخبار دول المغرب الاقصى

تأليف :

الشيخ ابو العباس أحمد بن خالد الناصري

الجزء الا ول

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الملك المعبود (١) ، الرءوف الرحيم الودود ، المخرج للخلق من ظلمة العدم الى نور الوجود ، الفاتح عليهم بمعرفته ، والتحقق بوحدانيته ، كل باب مسدود ، الدال لهم على باهر حكمته ، وعظيم قدرته ، بالمعنى المعقول والحس المشهود ، فلا يرتاب فى أنه الواحد القدير ، العليم الخبير ، الا الكفور الكنود ، خلق العباد وقدر آجالهم ، وأحصى أنفاسهم وأعمالهم ، وأوقفهم من شرعه على نهج سوى وحد محدود ، فمن وقف عنده وأطاع ، فقد فاز من ثمرة الايجاد بالمقصود ، ومن حاد عنه واستكبر ، فقد أورد نفسه الردى وبئس الورد المورود ، نحمده تعالى على ما أسبغ من النعم البيض وكسا من البرود ، وأزاح من العلل ووقى من

---

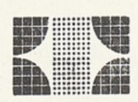
(١) الحمد لله ، يقول مؤلف هذا الكتاب أحمد الناصرى عفا الله عنه : انى ألتمس ممن يقف عليه من ساداتنا العلماء - وفرهم الله - أن ينظر فيه بعين الانصاف حسب الامكان ، بل وبعين الاغضاء عما لا يكاد يسلم منه انسان ، وأن يعاملنا فيه بمقتضى قول القائل :

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها * كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

وقد قال الامام مالك رضى الله عنه : كل كلام منه مقبول ومردود ، الا كلام صاحب هذا القبر صلى الله عليه وسلم . واذا كان الشيخ خليل رضى الله عنه على علو قدره فى العلم والتحقيق ، وطول باعه فى التحرير والتدقيق يقول : وأسأل بلسان التضرع والخشوع وخطاب التذلل والخضوع أن ينظر بعين الرضا والصواب .. الخ فماذا عسى نقول نحن حثالة الحثالة فى هذا الزمان الذى انمحى فيه من العلم حقيقته ورسمه ، ولم يبق منه الا اسمه . اللهم استر عوراتنا ، وأمن روعاتنا ، واغفر زلاتنا ، وارحمنا بفضلك ياأرحم الراحمين يارب العالمين آمين . وكتب فى أواسط رجب الفرد الحرام عام ١٣٠٦

٢

النوب السود ، (ونشهد) أن لا الـه الا الله وحده لا شريك له شهادة نتبوأ بها من الجنان السدر المخضود ، والطلح المنضود ، والظل الممدود ، (ونشهد) أن سيدنا ونبينا ومولانا محمدا عبده ورسوله أكرم مبعوث وأشرف مولود ، صاحب المقام المحمود ، واللواء المعقود ، والحوض المورود ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين هم فى محافل السلم بدور وفى جحافل الحـرب أسود ، ولهم فى اتباعه ونصرته اليد البيضاء والباع الممدود ، والدعاء لامـير المؤمنين مولانا الحسن ابن أمير المؤمنين مولانا محمد ابن أمير المؤمنين مولانا عبد الرحمن كوكب السعود ، ومنبع الكرم والجود ، والمنير بطلعته الغراء ، وامامته البيضاء ، الاغوار والنجود ، لازالت به ملة الاسلام بحول الله فـى صعود ، تردى الكفر وتنفى البغى وتذود ، وتصول عـلى الضلال وتسود ، آمين (وبعد) فيقول مؤلفه أحمد بن خالد الناصرى السلاوى عفا الله عنه : هذا - بعون الله - كتاب الاستقصا ، لاخبار دول المغـرب الاقصى ، كتاب جمعته لنفسى ، ولمن شاء الله من أبناء جنسى ، ذكرت فيه دول هذا القطر المغربى من لدن الفتح الاسلامى الى وقتنا هذا الذى هو آخـر القرن الثالث عشر ، سالكا فيما انقله من ذلك سبيل الاختصار ، آتيـا منه بمـا تسمو الـيه النفوس من حوادث الاعصار ، ملمعا بما لابد منه مـن وفيات بعض الائـمة المقتدى بهم فى الدين ، متبركا أولا بذكر رسول الله صلى الله عليه وسلـم وخلفائه الراشدين ، متحريا من النقول أصحها ، ومن العبارات أفصحهـا ، والله تعالى المسئـول ، فى بلـوغ المـأمول ، فمنه سبحانه المنـة والطول ، وبيده تعالى القوة والحـول .



مقدمة فى فضل علـــم التاريـخ (١)

اعلم أن علم التاريخ من أجل العلوم قدرا ، وأرفعها منزلة وذكـرا ، وأنفعها عائدة وذخرا ، وكفاه شرفا أن الله تعالى شحن كتـابه العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، من أخبار الامم الماضية والقرون الخالية ، بما أفحم به أكابر أهل الكتاب ، وأتى من ذلك بما لـم يكن لهـم فى ظن ولا حساب ، ثم لم يكتف تعالى بذلك حتى امتن به على نبيه الكريم. وجعله من جملة ما أسداه اليه من الخير العميم ، فقال جل وعلا : تلك القرى نقص عليك من أنبائها . وقال : وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك . وقال : لقد كان فى قصصهم عبرة لاولى الالباب . وقد كـان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يحدث أصحابه بأخبار الامم الذين قبلهم ، ويحكى من ذلك ما يشرح به صدورهم ، ويقوى ايمانهم ، ويؤكد فضلهم ، وكتاب بدء الخلق من صحيح البخارى رحمه الله كفيـل بهذا الشأن ، وآت من القدر المهم منه بما يبرد غلة العطشان . (قال بعضهم) : احتج الله تعـالى فى القرآن على أهل الكتابين بالتاريخ فقال تعالى : يأهل الكتـاب لم تحـاجون فى ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده أفلا تعقلـون . (وحكى بدر الدين القرافى رحمه الله) ان الامام الشافعى رضى الله عنه كان يقـول ما معناه دأبت فى قراءة علم التاريخ كذا وكذا سنة وما قرأته الا لاستعين بـه على الفقه . (قلت) معنى كلام الشافعى هذا أن علم التاريخ لما كان مطلعا عـلى أحوال الامم والاجيال ومفصحا عن عوائد الملوك والاقيال ومبينا من أعراف

---

(١) قال مؤلفه عفا الله عنه الذى لابن حزم فى صدر الجمهرة وكذا لابن عبد البر فى صدر كتاب النسب : هو علم النسب لا علم التاريخ كما هنـا ، وأنكر ابن حزم أن يكون ذلك أعنى أن علم النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضر مرويا عن رسول الله صلى الله عليه وسلـم ، ورده ببرهانين فانظره . ولكن علم النسب وعلم التاريخ متلازمان . والله أعلم .

الناس وأزيائهم ونحلهم وأديانهم ما فيه عبرة لمن اعتبر وحكمة بالغة لمن تدبر وافتكر ، كان معينا على الفقه ولابد وذلك أن جل الاحكام الشرعية مبنى على العرف وما كان مبنيا على العرف لابد أن يطرد باطراده وينعكس بانعكاسه ، ولهذا ترى فتاوى الفقهاء تختلف باختلاف الأعصار والاقطار بل والاشخاص والاحوال ، وهذا السبب بعينه هو السر فى اختلاف شرائع الرسل عليهم الصلاة والسلام وتباينها حتى جاء موسى بشرع وعيسى باخر ومحمد بسوى ذلك صلى الله على جميعهم وسلم ، ثم فائدة التاريخ ليست محصورة فيما ذكرناه بل له فوائد أخر جليلة لو قيل بعدم حصرها ما بعد ، قال الجلال السيوطى رحمه الله : من فوائد التاريخ واقعة رئيس الرؤساء (١) المشهورة مع اليهود ببغداد وحاصلها أنهم أظهروا رسما تديما يتضمن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر باسقاط الجزية عن يهود خيبر وفيه شهادة جماعة من الصحابة منهم على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فرفع الرسم الى رئيس الرؤساء وعظمت حيرة الناس فى شأنه ، ثم عرض على الحافظ أبى بكر الخطيب البغدادى (٢) فتأمله وقال : هذا مزور . فقيل له : بم عرفته ؟ قال : فيه شهادة معاوية وهو انما أسلم عام الفتح سنة ثمان من الهجرة وخيبر فتحت سنة سبع . وفيه شهادة سعد بن معاذ وهو مات يوم بنى قريظة وذلك قبل فتح خيبر . فسر الناس بذلك وزالت حيرتهم اه . قال العلامة القادرى فى الازهار الندية : وفى حدود صدر هذه المائة – أعنى المائة الحادية عشرة – ظهر نحو هذا الكتاب المزور بمعناه والرفع على خطوطه بتاريخ سبع وعشرين وسبعمائة بالموحدة ثم ظهر أيضا بتاريخ ست وثمانمائة ثم تعدد ظهوره مرارا آخرها سنة اثنتين وأربعين وألف مسمى فيه جماعة ممن شهرتهم بالدين والعلم قاطعة بالتقول عليهم فى ذلك – انظر بقية كلامه –

---

(١) وزير القائم بأمر الله العباسى على بن الحسين المعروف بابن المسلمة.

(٢) أحمد بن على بن ثابت المتوفى سنة ٤٦٣ انظر ترجمته بطبقات السبكى وغيرها صفحة ١٢ جزء٢ .

(قلت) وقد وقفت فى بعض التقاييد المظنون بها الصحة على كلام للاديب أبى عبد الله اليفرنى المعروف بالصغير فى هذا المعنى ، قال : جرى بمجلس شيخنا قاضى الجماعة فلان الفلانى (١) ذكر علم التاريخ فقال : ان علم التاريخ يضر جهله ، وتنفع معرفته ، لا كما قيل : انه علم لا ينفع وجهالة لا تضر . قال : وانظر ما وقع فى هذا الوقت فى حدود عشر ومائة وألف : من أن نفرا من يهود فاس الجديد امتنعوا من أداء الجزية وأخرجوا ظهيرا قديما مضمنه أن النبى صلى الله عليه وسلم عقد لموسى بن حيى بن أخطب أخى صفية رضى الله عنها ، ولاهل بيت صفية الامان : لا يطأ أرضهم جيش ، ولا عليهم نزل ، ولهم ربط العمائم ، فعلى من أحب الله ورسوله أن يؤمنهم . وكتب على بن أبى طالب ، وشهد عتيق بن أبى قحافة ، وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبى سفيان . وتاريخ شهادتهم فى ذى القعدة سنة تسع من الهجرة . قال شيخنا : فظهر لى ولعلماء العصر ، أن ذلك زور وافتراء ، لا شك فيه ولا امتراء ، لان التاريخ بالهجرة انما حدث زمن عمر ، سنة سبع عشرة لاسباب اقتضت ذلك كما فى ابن حجر ، ولان أهل التاريخ لم يذكروا لصفية أخا اسمه موسى ، وانما المروى فى الاحاديث أنه عليه الصلاة والسلام

---

(١) هو العلامة احمد بن ناجى ، قال أبو العباس الحافى فى فهرسته فى حقه : ومنهم شيخنا الفقيه العلامة سيدى أحمد بن محمد بن ناجى السجلماسى ، تولى القضاء بسلا والرباط ونواحيهما ، وبقى متوليا بهما نحو العشرين سنة ثم تولى القضاء بفاس ثم بمكناسة الزيتون ، حضرنا عليه فى تفسير القرآن العظيم ، وفى رسالة ابن أبى زيد ، وذلك كله بمحروسة سلا ، وصحيح البخارى وصحيح مسلم بن الحجاج . وقرأت عليه شمائل الترمذى ، وكان رحمه الله معظما لجميع من ينتسب الطلب ، وقورا ذا تؤدة وهمة عالية ، وكلمة نافذة عند السلطان وغيره . توفى رحمه الله بمحروسة مكناسة يوم الجمعة ٢٤ من رجب عام ١١٢٢ . ودفن داخل المدينة المذكورة بروضة السيدة عائشة العدوية اه .

قتل أبا صفية وزوجها ، ولان الظهير الذى استظهروا به نسخة من الاصل الذى فيه خطوط الصحابة ، وقد أرخوا الاستنساخ من الاصل بسنة ثلاث وعشرين وسبعمائة ، فقد تأخر خط الصحابة بزعمهم الى المائة الثامنة وكيف يتوصل فى المائة الثامنة الى أن ذلك خط الصحابة ؟ . هذا خلاصة ما كتبه أهل فاس فى ابطال الظهير . ولما رفع ذلك الى السلطان المولى اسماعيل رحمه الله عاقب اليهود عقابا شديدا اه . (وبالجملة) : ففضيلة علم التاريخ شهيرة ، وفائدته جليلة خطيرة ، ومادحه محمود غير ملوم ، والحديث بفضله حديث بمعلوم ، ولله در ابن الخطيب اذ يقول :

وبعد فالتاريخ والاخبار	فيه لنفس العاقل اعتبار
وفيه للمستبصر استبصار	كيف أتى القوم وكيف صاروا
يجرى على الحاضر حكم الغائب	فيثبت الحق بسهم صائب
وينظر الدنيا بعين النبل	ويترك الجهل لاهل الجهل

وقال الآخر :

ليس بانسان ولا عاقل	من لا يعى التاريخ فى صدره
ومن روى أخبار من قد مضى	أضاف أعمارا الى عمره



ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الاربعة رضى الله عنهم

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو : أبو القاسم محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أد بن أدد بن اليسع بن الهيميسع بن سلامان ابن نبت بن حمل بن قيدار بن اسمعيل بن ابراهيم عليهما السلام ابن تارح وهو آزر بن ناحور بن ساروغ بن ارغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح عليه السلام ابن لامك بن متوشلخ بن حنوخ ابن يرد بن مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيت بن آدم عليهما السلام . فأما ما بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين عدنان فمتفق عليه عند علماء الاسلام ؛ وأما ما بين عدنان واسمعيل ، فمختلف فيه اختلافا كثيرا ، ما بين سبعة آباء الى نحو الاربعين (١) والمختار ما ذكرناه تبعا لابى الفداء . وأما ما بين اسمعيل وآدم عليهما السلام فمتفق عليه عند أهل الكتاب وهى أسماء أعجمية يكثر تغييرها لصعوبة النطق بحروفها ، والله أعلم ؛(قال ابن خلدون) ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفيل ، لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الاول ، لاربعين سنة من ملك كسرى انو شروان ، وقيل لثمان وأربعين ولثمانمائة واثنتين وثمانين سنة لذى القرنين (٢) ، ومات أبوه عبد الله وأمه حامل به ، وكفله جده عبد المطلب ، واسترضع له امرأة من بنى

---

(١) وقد عدها صاحب الاغانى أربعين أبا ، وهو الاقرب الى الصواب ، اذ بين معد واسماعيل نحو من ست عشرة مائة سنة على التحقيق ، ويستحيل فى العادة أن يكون فى هذه المدة ثمانية آباء .

(٢) ولاحدى وسبعين وخمسمائة سنة من ولادة المسيح عليه السلام .

سعد بن بكر ، اسمها حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية ، فكان عندها نحو أربع سنين ، وشق صدره صلى الله عليه وسلم وهو عندها فى السنة الرابعة من مولده فخافت عليه وردته الى أمه ، ثم ماتت أمه عقب ذلك ، واستمر فى كفالة جده عبد المطلب الى أن توفى أيضا لمضى ثمان سنين من مولده صلى الله عليه وسلم فأوصى به عبد المطلب الى ابنه أبى طالب ، فكفله أبو طالب أحسن كفالة ، وقام بشأنه أتم قيام ، ونشأ صلى الله عليه وسلم نشأة طيبة ، يحفظه ربه ويكلؤه لما يريد به من كرامته ، ويهىء له من نبوته ورسالته . وتزوج خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وشهد بناء الكعبة وهو ابن خمس وثلاثين سنة ، ووضع الحجر الاسود بيده الشريفة فى موضعه بعد أن تراضت قبائل قريش عليه ، ثم آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة على رأس أربعين سنة من عمره صلى الله عليه وسلم (أخرج) البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصالحة . ولمسلم الصادقة فى النوم فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب اليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه ، والتحنث التعبد الليالى ذوات العدد قبل أن يرجع الى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الوحى وفى رواية حتى فجئه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال اقرأ فقال ما أنا بقارىء قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال اقرأ ، قلت : ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد. ثم أرسلنى فقال اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ، فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال : زملونى زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، ثم قال لخديجة أى خديجة مالى وأخبرها الخبر ، وقال لقد خشيت على نفسى ، قالت له خديجة : كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا انك لتصل الرحم ، وتصدق

الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد ابن عبد العزى وهو ابن عم خديجة ، وكان امرأ تنصر فى الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الانجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخا كبيرا قد عمى ، فقالت له خديجة : أى ابن عم ، اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة : يابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى فقال له ورقة هذا الناموس الذى أنزل الله على موسى ياليتنى فيها جذعا ليتنى أكون حيا اذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو مخرجى هم ؟ قال نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به الا عودى ، وان يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا ، ثم لم يلبث ورقة أن توفى وفتر الوحى فترة حتى حزن النبى صلى الله عليه وسلم فيما بلغنا حزنا غدا منه مرارا كى يتردى من رؤوس شواهق الجبال ، فكلما أوفى بذروة جبل لكى يلقى نفسه منه تبدى له جبريل فقال : يامحمد انك رسول الله حقا ، فيسكن لذلك جأشه وتقر عينه فيرجع . فاذا طالت عليه فترة الوحى غدا لمثل ذلك فيتبدى له جبريل فيقول له مثل ذلك . ثم نزل عليه بعد فترة الوحى سورة المدثر . قال العلماء : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول الوحى عليه نبيا فقط ثلاث سنين لم يؤمر فيها بانذار ، ثم أتاه جبريل عليه السلام برسالة من ربه عز وجل ، فكان فيما أنزل عليه فى ذلك قوله تعالى : وأنذر عشيرتك الاقربين . روى محمد بن اسحق بسنده عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ياعلى ان الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الاقربين فضقت بذلك ذرعا وعرفت أنى متى أباديهم بهذا الامر أرى منهم ما أكره ، فصمت عليها حتى جاءنى جبريل فقال يامحمد ان لاتفعل ما تؤمر يعذبك ربك فاصنع لنا طعاما واجعل لنا عليه رجل شاة واملأ لنا عسا من لبن ثم اجمع لى بنى عبد المطلب حتى أبلغهم ما أمرت به ففعلت ما أمرنى به ثم دعوتهم له وكانوا يومئذ نحو أربعين رجلا يزيدون رجلا أو ينقصونه

فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب ، فلما اجتمعوا دعانى بالطعام الذى صنعت فجئت به فتناول رسول الله صلى الله عليه وسلم جذبة من اللحم فشقها بأسنانه ثم ألقاها فى نواحى الصحنة ثم قال : كلوا باسم الله فأكل القوم حتى ما لهم بشىء من حاجة ، وأيم الله ان كان الرجل الواحد ليأكل مثل ما قدمت لجميعهم ، ثم قال اسق القوم فجئتهم بذلك العس فشربوا حتى رووا جميعا ، وأيم الله ان كان الرجل الواحد ليشرب مثله ، فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكلمهم بدره أبو لهب فقال : سحركم صاحبكم ، فتفرق القوم ولم يكلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال الغد ياعلى ان هذا الرجل قد سبقنى الى ما سمعت من القول فتفرق القوم قبل ان اكلمهم فاعدد لنا من الطعام مثل ما صنعت ؛ ثم اجمعهم ففعلت ثم جمعتهم ثم دعانى بالطعام فقربته ففعل كما فعل بالامس فأكلوا وشربوا ، ثم تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «يابنى عبد المطلب انى قد جئتكم بخيرى الدنيا والآخرة وقد أمرنى الله عز وجل أن أدعوكم اليه ، فأيكم يوازرنى على أمرى هذا ويكون أخى ووصيى وخليفتى فيكم» فأحجم القوم عنها جميعا ؟ ـ وأنا أحدثهم سنا ـ فقلت يارسول الله : أنا أكون وزيرك عليه ، فأخذ برقبتى ثم قال : هذا أخى ووصيى وخليفتى فيكم فاسمعوا له واطيعوا . فقام القوم يضحكون ويقولون لابى طالب : قد أمرك أن تسمع لعلى وتطيع . وأخرج البخارى ومسلم عن ابن عباس قال : لما نزلت «وأنذر عشيرتك الاقربين» صعد النبى صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادى : يابنى فهر ، يابنى عدى لبطون قريش ، حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل اذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو ؟ فجاء أبو لهب وقريش فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذبا ، قال فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت «تبت يدا أبى لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب» ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر ربه صابرا محتسبا فيما يناله

من المحن وضروب الاذى معلنا بالتذكير والانذار ، داعيا الى الله آناء الليل وأطراف النهار ، وأسلم معه جماعة من السابقين الى الاسلام كخديجة وعلى وأبى بكر وزيد بن حارثة وعثمان وسائر العشرة سوى عمر بن الخطاب فان أسلامه كان قد تأخر قليلا ، ونصبت قريش العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وافترقت كلمتهم عليه ، وانحاز بنو هاشم وبنو المطلب الى أبى طالب ، وتعاهدت قريش على أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا ينفعوهم بشىء . ونال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين آمنوا معه من الاذى فوق ما يوصف ؛ وهاجر جماعة منهم الى النجاشى بالحبشة فرارا بدينهم من الفتنة ؛ وحدب على رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه أبو طالب وقام دونه وذب عنه سفهاء قريش ومنعه منهم ما استطاع ؛ وكانت خديجة رضى الله عنها توازره على أمره وتسليه وتهون عليه ما يلقاه من قومه فكان صلى الله عليه وسلم يرتاح لذلك ويخف عليه بعض ما يجد . ثم توفى أبو طالب فى شوال سنة عشر من النبوة ؛ وتوفيت خديجة بعد ذلك بيسير ؛ وكانت وفاتهما قبل الهجرة بثلاث سنين ، فعظمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المصيبة وتتابعت عليه المحن حتى كان يسمى ذلك العام عام الحزن. ونالت قريش منه ما لم تكن تطمع فى نيله قبل ذلك ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تلك الثلاث سنين اذا حضر الموسم خرج الى قبائل العرب بمنى . وطاف عليهم قبيلة قبيلة ، يدعوهم الى الله تعالى ويعرض عليهم نفسه ويسألهم النصرة له والقيام معه حتى يبلغ رسالة ربه ؛ فان قريشا قد عتت على الله وكذبت رسوله وردت عليه كرامته ، ويقول فيما يقول : يابنى فلان انى رسول الله اليكم يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الانداد وأن تؤمنوا بى وتصدقونى . ولقى صلى الله عليه وسلم فى هذه المدة من الشدائد ما رفع الله به فى عليين درجته ، وأجزل به كرامته ، وشرف منزلته ؛ وحاز به فى جوار الله تعالى أكرم نزل ؛ وصار امام أولى العزم من الرسل صلى الله على جميعهم وسلم .
ولما أراد الله اظهار دينه واعزاز نبيه خرج صلى الله عليه وسلم فى بعض

١٢

المواسم يعرض نفسه على القبائل كما كان يصنع ، فبينما هو عند العقبة بمنى اذ لقى ستة نفر من الخزرج من أهل مدينة يثرب ؛ وأهلها يومئذ قبيلتان : الاوس والخزرج ، ويجمعهم أب واحد ، وهم من عرب اليمن والنفر الستة هم : أبو أمامة أسعد بن زرارة ، وعوف بن الحرث وهو ابن عفراء ، ورافع بن مالك بن العجلان وقطبة بن عامر بن حديدة ، وعقبة بن عامر بن نابى ، وجابر بن عبد الله رضى الله عنهم ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أنتم؟ قالوا نفر من الخزرج ، قال : أمن موالى يهود ؟ — وكانوا يحالفون قريظة والنضير — قالوا : نعم ، قال : أفلا تجلسون حتى أكلمكم قالوا : بلى ، فجلسوا معه فدعاهم الى الله عز وجل وعرض عليهم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن . قال ومما كان صنع الله لهم فى الاسلام ، ان اليهود كانوا معهم ببلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم وهم أهل أوثان وشرك وكانوا اذا كان بينهم شىء قالوا : ان نبينا الآن مبعوث قد أظل زمانه سنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وارم ، فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ودعاهم الى الله عز وجل ، قال بعضهم لبعض : ياقوم تعلموا والله انه النبى الذى توعدكم به يهود ، فلا يسبقنكم اليه . فأجابوه وصدقوه وأسلموا معه وقالوا : انا قد تركنا قومنا وبينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى الله أن يجمعهم بك ، وسنقدم عليهم وندعوهم الى أمرك فان يجمعهم الله عليك فلا أحد أعز منك ؛ ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعين الى بلادهم . فلما قدموا المدينة ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعوهم الى الاسلام حتى فشا فيهم ، فلم تبق دار من دور الانصار الا وفيها ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى اذا كان العام المقبل وافى الموسم من الانصار اثنا عشر رجلا منهم خمسة من الستة الذين ذكرناهم آنفا — عدى جابر بن عبد الله فانه لم يحضرها — وسبعة من غيرهم وهم : معاذ بن الحرث أخو عوف بن الحرث المذكور ، وذكوان بن عبد القيس ، ويزيد بن ثعلبة البلوى ، وعبادة بن الصامت ، والعباس بن عبادة بن نضلة ، وهؤلاء العشرة من الخوارج . ومن الاوس : أبو الهيثم مالك بن التيهان ،

وعويم بن ساعدة ، فلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعقبة فبايعوه بيعة النساء : أن لايشركوا بالله شيئا ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم الى آخر الآية . فقال صلى الله عليه وسلم : فان وفيتم فلكم الجنة ؛ وان غشيتم شيئا من ذلك فأخذتم بحده فى الدنيا فهو كفارة لكم ، وان ستر عليكم فأمركم الى الله عز وجل ، ان شاء عذبكم وان شاء غفر لكم . قال : وذلك قبل أن تفرض الحرب . فلما انصرف القوم بعث معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ابن قصى ، ومعه عمرو بن أم مكتوم الاعمى ليعلمهم القرآن وشرائع الاسلام، ويفقههم فى الدين ؛ فكان مصعب بالمدينة يسمى : المقرىء ؛ وكان منزله على أسعد بن زرارة فأسلم على يده كثير من الاوس والخزرج ، منهم : أسيد بن حضير ، وسعد بن معاذ ـ سيدا الاوس ـ وسعد هذا هو الذى يقول فيه حسان بن ثابت رضى الله عنه :

وما اهتز عرش الله من أجل هالك * سمعنا بـه الا لسعد : أبى عمرو

ولم تبق دار من دور الانصار الا وفيها رجال ونساء مسلمون الا ما كان من دار بنى أمية بن زيد وخطمة ووائل ، وواقف بطون من الاوس وكانوا فى عوالى المدينة، وكان فيهم أبو قيس بن الاسلت الشاعر سيدا مطاعا فوقف بهم عن الاسلام حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة، ومضى بدر ، وأحد ، والخندق . فأسلموا كلهم ، ثم ان مصعب بن عمير رجع الى مكة من العام المقبل وذلك سنة ثلاث عشرة من المبعث ، وخرج معه من الانصار الذين أسلموا . ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان ؛ بعضهم من الاوس وبعضهم من الخزرج مع حجاج قومهم من أهل الشرك ، فلما وصلوا الى مكة، واعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجتمعوا به ليلا فى أوسط أيام التشريق بالعقبة من منى ، وجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه الا أنه أحب أن يتوثق لابن أخيه فقال يامعشر الخزرج : ان محمدا منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا وهو فى عز ومنعة من قومه وبلده ، وأنه قد

١٤

أبى الا الانحياز اليكم واللحوق بكم ، فان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وان كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه فمن الآن فدعوه فقالوا : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يارسول الله وخذ لنفسك ولربك ما شئت ، فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا القرآن ودعا الى الله عز وجل ورغب فى الاسلام ، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم ونساءكم وأبناءكم ، قال : فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : والذى بعثك بالحق نبيا لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا فبايعنا يارسول الله فنحن أهل الحرب وأهل الحلقة ، ورثناها كابرا عن كابر ، فاعترض القول ـ والبراء يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أبو الهيثم بن التيهان فقال يارسول الله : ان بيننا وبين الناس حبالا يعنى : عهودا ، وانا قاطعوها فهل عسيت ان فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا ؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنتم منى وأنا منكم ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرجوا الى منكم اثنى عشر نقيبا يكونون كفلاء على قومهم بما فيهم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم ، فأخرجوا له اثنى عشر نقيبا تسعة من الخزرج وثلاثة من الاوس .

قال عاصم بن عمر بن قتادة : ان القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال العباس بن عبادة بن نضلة : يامعشر الخزرج هل تدرون على ما تبايعون هذا الرجل ؟ انكم تبايعونه على حرب الاحمر والاسود ، فان كنتم ترون أنكم اذا نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلا أسلمتموه فمن الآن فهو والله خزى الدنيا والآخرة ، وان كنتم ترون انكم وافون له بما دعوتموه اليه على نهكة الاموال وقتل الاشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة ، قالوا : فانا نأخذه على مصيبة الاموال وقتل الاشراف ، فما لنا بذلك يارسول الله ان نحن وفينا ؟ قال : الجنة . قالوا : أبسط يدك فبسط يده فبايعوه ، وأول من ضرب على يده البراء بن معرور ثم تتابع القوم، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انفضوا الى رحالكم فقال العباس بن

عبادة ابن نضلة : والذى بعثك بالحق لئن شئت لنميلن غدا على أهـل منى بأسيافنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انى لم أومر بذلك ، ولكن ارجعوا الى رحالكم ، ثم انصرف القوم راجعين الى المدينة ، وأمر النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه بالهجرة الى المدينة فخرجوا ارسالا . وأقـام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ينتظر الاذن من ربه فى الهجرة ، وبقى معه أبو بكر الصديق ، وعلى بن أبى طالب الى أن أذن الله لنبيـه فى الهجرة ، فهاجر كما هو معلوم فى كتب الحديث والسير . ولما استقر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة أظهـر الاسلام ، وشرع الاحكـام ، وبين الحلال والحرام ، ونزل عليه من القرآن السبع الطول سوى سورة الانعام فانها نزلت بمكة . ونزل عليه قوله تعالى : «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلمـوا ، وان الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله » فكانت هذه أول آية نزلت بالاذن فى القتال ، فجاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الله حق جهاده ، ونال من نصرة الدين واعلاء كلمة الله غاية مراده ، وانثالت عليه وفود العرب من كل ناحيـة ، ولبت دعـوته مـن أماكنها الدانية والقاصية وضرب الاسلام بجرانه فى جزيرة العرب كلها ، وأجمع على التمسك بدينه أهل عقدها وحلها . قال القاضى عياض رحمه الله فى كتاب الشفا : فتح على رسول الله صـلى الله عليه وسلم فى حيـاته بـلاد الحجاز واليمن ، وجميع جزيرة العرب وما دانى ذلك مـن الشام والعراق وجبى اليه من أخماسها وجزيتها وصدقاتها مـا لا يجبى للملوك الا بعضه ، وهادته جماعة من ملوك الاقاليم ، فما استأثر بشىء منه ولا أمسك منه درهما بل صرفه مصارفه وأغنى به غيره ، وقوى به المسلمين صلى الله عليه وسلـم ولما حصل المقصود من بعثته صـلى الله عليه وسلـم ، وأظهر دينه على الديـن كله ، أنزل الله تعالى عليه : «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » قال المفسرون : نزلت هذه الآية يوم الجمعة بعـد العصر يوم عرفة والنبى صلى الله عليه وسلم واقف بعرفات على ناقته العضباء ، فكادت عضد الناقة تندق ، وبركت لثقـل الوحى ، وذلك فى حجة الوداع

سنة عشر من الهجرة . روى أنه لما نزلت هذه الآية بكى عمر ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : ما يبكيك ياعمر ؟ فقال : أبكانى انا كنا فى زيادة من ديننا فأما اذا كمل فانه لم يكمل شىء الا نقص . قال : صدقت ، فكانت هذه الآية نعى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عاش بعدها احدى وثمانين يوما ومات صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الاول ، وقيل : لاثنتى عشرة ليلة . قال الخازن فى تفسيره وهو الاصح : سنة احدى عشرة من الهجرة (١) . فمجموع عمره صلى الله عليه وسلم : ثلاث وستون سنة على الصحيح . (أخرج) البخارى ومسلم عن ابن عباس قال : أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن أربعين سنة فمكث ثلاث عشرة سنة يوحى اليه ثم أمر بالهجرة فهاجر الى المدينة فمكث بها عشر سنين ، ثم توفى صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثلاث وستين سنة . قال الشيخ محيى الدين النووى : ورد فى عمره صلى الله عليه وسلم ثلاث روايات احداها أنه صلى الله عليه وسلم توفى وهو ابن ستين سنة ، الثانية خمس وستون سنة ، والثالثة ثلاث وستون سنة وهى أصحها وأشهرها اهـ .
وفضل رسول الله صلى الله عليه وسلم أشهر من أن يشرح ويبين ، فهو حجة الله فى الارض ، وشهيده على الخلق ، ومصطفاه من البشر ، والمخصوص بمزية النبوة وآدم بين الماء والطين ، ولله در ابن الخطيب اذ يقول :

يامصطفى من قبل نشأة آدم ... والكون لم تفتح له أغلاق
أيروم مخلوق ثناءك بعد ما ... أثنى على أخلاقك الخلاق ؟

---

(١) الموافق لسنة ٥٧١ من الميلاد

١٧

خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه

هو أبو بكر – واسمه عبد الله – وقيل : عتيق – ابن أبى قحافة ... واسمه عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب التيمى المعروف بالصديق ، يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرة بن كعب ، ولى الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم باجماع من الصحابة ، ومن تأخر عنها أولا رجع اليها ثانيا ، الا ما كان من سعد بن عبادة الانصارى ، فانه توقف عن بيعته ، وذلك أنه لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتمعت الانصار فى سقيفة بنى ساعدة ، وهموا بمبايعة سعد بن عبادة سيد الخزرج ، لانهم كانوا يرون أنهم أحق بالامر ، لانهم الذين آووا ونصروا ، وتبوأوا الدار والايمان من قبل المهاجرين ، ولما انتهى الخبر الى أبى بكر وعمر أفزعهما ذلك ، وبادرا الى السقيفة ومعهما أبو عبيدة بن الجراح ، فوجدوا الانصار بها على ما بلغهم من العزم على بيعة سعد ، فحاجهم أبو بكر رضى الله عنه وقال : نحن أولياء رسول الله صلى الله عليه وسلم وعشيرته ، وأحق الناس بالامر بعده فنحن الامراء وأنتم الوزراء فقال الحباب بن المنذر : لا ، والله لا نفعل منا أمير ومنكم أمير ، وان شئتم أعدناها جذعة ، أناجذيلها المحكك وعذيقها المرجب ، فقام بشير بن سعد الانصارى فقال : ألا ان محمدا صلى الله عليه وسلم من قريش ، وان قومه أحق وأولى بالامر بعده ، ونحن وان كنا أولى فضل فى الجهاد وسابقة فى الدين ، فما أردنا بذلك الا رضى الله وطاعة نبيه ، فلا نبتغى به من الدنيا عوضا ولا نستطيل به على الناس ، ثم أشار أبو بكر بأن يبايعوا أحد الرجلين اما عمر بن الخطاب واما أبا عبيدة بن الجراح فكرها ذلك وبايعا أبا بكر ، وسبقهما اليه بشير بن سعد ، ثم تناجى الاوس فيما بينهم وكان فيهم أسيد بن حضير أحد النقباء – فكرهوا امارة الخزرج عليهم ، ومالوا الى بيعة أبى بكر فبايعوه ، وأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر حتى

كـادوا يطأون سعد بن عبادة وهو مضطجع بينهم يوعك ، فقـال رجل مـن أصحابه : قتلتم سعد بن عبادة ، فقـال عمر : قتله الله فقال أبوبكر : مهلا ياعمر ، الرفق هنا أبلغ . ثم لحق سعد بالشام فلم يزل هناك حتى توفى أيام عمر رحم الله جميعهم . وكانت بيعة أبى بكر يـوم الثلاثاء الثانى من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل دفنه ، ولمـا توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت عامة العرب ؛ لان كلمة الاسلام لـم تكـن رسخت فى قلوبهم على ما ينبغى ، ومنع آخرون منهم الزكاة وقالـوا : نصلى ولا نؤدى الزكاة ظنا منهم أن ذلك كان واجبا عليهم فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم فقط ، واضطرب أمر المسلمين عند وفاته صلى الله عليه وسلم لقلتهم وكثرة عدوهم . قالت عائشة رضى الله عنها : لما توفـى رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب ، ونجم النفاق ، واشرأبت اليهودية والنصرانية ونزل بأبى بكر ما لو نزل بالجبال الراسية لهاضها ، وصـار المسلمون كالغنم المطيرة فى الليلة الشاتية لفقد نبيهم . وقال أبو بكر بن عياش : سمعت أبا حصين(١) يقول : ما ولد بعد النبيئين أفضل من أبى بكر الصديق ، لقد قـام مقام نبى من الانبياء فى قتال أهل الردة . (وفى الصحيح) عـن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبـو بكر وكفر من كفر من العرب قال عمر : ياأبا بكر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لااله الا الله ، فمن قال لااله الا الله فقد عصم منى ماله ونفسه الا بحقه وحسابه على الله ؟ قال أبو بكر : والله لاقاتلن من فرق بـين الصلاة والزكاة فان الزكاة حق المال ، والله لو منعونى عناقا كانوا يؤدونها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها قال عمر : فوالله ما هو الا أن رأيت أن قد شرح الله صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحـق . (وحكى ابـن خلدون) : أن أبا بكر رضى الله عنه لما عزم على قتـال أهل الردة استخلف

---

(١) عثمان بن عاصم الكوفى توفى سنة ١٢٨

أسامة بن زيد بعد رجوعه من بعثه الذى كـــان بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه قبل وفاته ، فبقى فى المدينة حتى أنفذه أبـــو بكر بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، فخرج أبـــو بكر فى جماعة مـــن المسلمين الى ذى حسى والى ذى القصة ـ موضعين قرب المدينة ـ ثم سار حتى نزل على أهل الربذة بالابريق وبها عبس وذبيان وبنو بكر بن عبد مناة بن كنانة وثعلبة ابن سعد وغيرهم ـ فقاتلهم أبو بكر وهزمهم ورجع الى المدينة ، ثم خرج الى ذى القصة ثانيا فعقد فيه أحد عشر لواء ، على أحد عشر جندا لقتال أهل الردة ، وأمر كل واحد باستنفار من يليه من المسلمين من كل قبيلة ، وعقد للامراء على تلك الاجناد: منهم خالد بن الوليد ، وخالد بن سعيد بن العاص، وعمرو بن العاص وغيرهم ، وكتب لهم عهودهم بنص واحـد : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا عهد من أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عـن الاسلام ، وعهد اليه أن يتقى الله ما استطاع فـى أمره كله ـ سره وجهره ـ وأمره بالجد فى أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الاسلام الى أمانى الشيطان ، بعد أن يعذر اليهم فيدعوهم بدعاية الاسلام ، فان أجابوه أمسك عنهم وان لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقروا له ، ثم ينبئهم بالذى عليهم والذى لهم ، فياخذ ما عليهم ويعطيهم الذى لهم ، لاينظرهم ولا يـرد المسلمين عن قتال عدوهم ، فان أجاب الى أمر الله تعالى وأقر له قبـــل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف . وانما يقاتل من كفر بالله على الاقرار بما جاء من عند الله ، فاذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل وكان الله حسيبه بعد فيما استسربه . ومن لم يجب الى داعية الله قوتل وقتل حيث كان وحيث بلـــغ مراغمة ، لايقبل الله من أحد شيئا مما أعطى الا الاسلام ، فمـــن أجابه وأقر به قبل منه وأعانه ، ومن أبى قاتله ، فان أظهره الله عليـــه قتلهم فيه كـــل قتلة بالسلاح والنيران ، ثم قسم ما أفاء الله عليه الا الخمس فانه يبلغناه ، ويمنع أصحابه العجلة والفساد . وأن لايدخل فيهم حشوا حتى يعرفهم ويعلم ما هم لئلا يكونوا عيونا ولئلا يؤتى المسلمون مـــن قبلهم . وأن يقتصد بالمسلمين

ويرفق بهم فى السير والمنزل ، ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ، ويستوصى بالمسلمين فى حسن الصحبة ولين القول اﻫ . وكتب الى كل من بعث اليه الجنود من المرتدين كتابا واحدا أيضا وجعله فى نسخ متعددة بيد رسل تقدموا أمام الامراء يأمرهم فيه بالتمسك بكلمة الاسلام وينهاهم عن الارتداد ويحذرهم عاقبته وسوء أثره - تركنا ذكره اختصارا - وكان أول ما بدأ به خالد بن الوليد رحمه الله من القتال : قتال طليحة بن خويلد الاسدى : أسد خزيمة ؛ وكان كاهنا وادعى النبوة فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبعه أفاريق من قومه بنى أسد ومن غيرهم ؛ فوجه اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرار بن الازور ليقاتله ؛ فبينما ضرار يريد مناجزته اذ ورد عليه الخبر بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ففت ذلك فى عضد ضرار وانكفأ راجعا بمن معه من المسلمين الى المدينة ؛ وعظم أمر طليحة حينئذ ، واستطار شرره ، وانضمت اليه غطفان وبعض طيىء وأخلاط من العرب على ماء من مياه بنى أسد يقال له : بزاخة ؛ فسار اليهم خالد رحمه الله فأوقع بهم وقعة شنعاء ، فل بها جمعهم وقتل من قتل منهم ونجا طليحة الى الشام برأس طمرة ولجام ؛ وبقى هناك الى أن أسلم وحسن اسلامه ؛ وكانت له فى قتال فارس والروم زمان الفتح اليد البيضاء ؛ ثم تتبع خالد رحمه الله أهل الردة قبيلة قبيلة وجمعا جمعا ؛ فقتل وحرق ورضخ بالحجارة ورمى من رؤوس الجبال وأبلغ فى النكاية بكل وجه فخشعت نفوس المرتدين وخامر قلوبهم الرعب وقوم اعوجاجهم الطعن والضرب حتى راجعوا الاسلام كرها . وكان من أعظمهم شوكة وأشدهم قوة بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب وكان موطنهم باليمامة وهى : بلاد واسعة ذات نخل وزرع على أربعة أيام من مكة . وكان مسيلمة هذا قد قدم على النبى صلى الله عليه وسلم فى وفد بنى حنيفة فأسلم ثم ارتد وادعى النبوة استقلالا ثم مشاركة مع النبى صلى الله عليه وسلم . وشهد له بذلك الرجال ابن عنفوة أحد أشراف بنى حنيفة وكان قد هاجر الى النبى صلى الله عليه وسلم وأقام عنده وقرأ القرآن وتفقه فى الدين - فلما ارتد مسيلمة بعثه

النبى صلى الله عليه وسلم معلما لاهل اليمامة ومشغبا عن مسليمة فكان من أعظم الفتن على بنى حنيفة فانه شهد لمسليمة بالنبوة واتبعه على شأنه وصار مؤذنا له يشهد له بالرسالة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فعظم شأنه فيهم . وكان مسيلمة ينتهى اليه رأيه وكان يأتى بأسجاع كثيرة يزعم أنها قرآن ينزل عليه ويأتى بمخارق من الشعبذة ويقول انها معجزاته ، فتقع على خلاف المقصود اهانة من الله له . فنهض خالد رحمه الله بعد الفراغ من طليحة وغيره من أهل الردة الى بنى حنيفة – وهم يومئذ كثير – يقال كانوا أربعين ألف مقاتل ولما سمعوا بدنو خالد منهم خرجوا وعسكروا فى منتهى ريف اليمامة واستنفروا الناس فنفروا معهم وأقبل خالد وعلى مقدمته شرحبيل بن حسنة ؟ ونازل بنى حنيفة – وكان الرجال بن عنفوة على مقدمة مسيلمة فالتقوا واقتتلوا واشتدت الحرب وانكشف المسلمون حتى دخل بنو حنيفة خباء خالد ثم تراجع المسلمون وكروا على بنى حنيفة وقاتل ثابت بن قيس بن شماس حتى قتل ثم زيد بن الخطاب أخو عمر كذلك ثم أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ثم مولاه سالم ثم البراء أخو أنس بن مالك وكان تأخذه عند الحرب رعدة حتى ينتفض ويقعد عليه الرجال حتى يبول ثم يثور كالاسد فقاتل ذلك اليوم وفعل الافاعيل واستحر القتل فى المسلمين خصوصا قراء القرآن وأهل السابقة . (قال ابن خلدون) : قتل يوم اليمامة من الانصار ما ينيف على الثلاثمائة وستين ومن المهاجرين مثلها ومن التابعين لهم مثلها أو يزيدون وفشت الجراحات فيمن بقى ثم هزم الله العدو وألجأهم المسلمون الى حديقة كانت هناك وفيها مسيلمة فقال البراء بن مالك : ألقونى عليهم من أعلى الجدار فاقتحم وقاتلهم على باب الحديقة حتى دخل بعض المسلمين عليهم ، واقتحم الباقون من أعلى الحيطان فقتل من بنى حنيفة يومئذ سبعة عشر ألف مقاتل . فسميت الحديقة حديقة الموت . وأما مسيلمة فقتله وحشى بالحربة التى قتل بها حمزة بن عبد المطلب يوم أحد وشاركه فى قتله رجل من الانصار ثم صالح خالد بنى حنيفة فى خبر طويل . وهذه الوقعة من أعظم الوقعات التى كانت فى زمن أبى بكر رضى الله عنه وهى كانت السبب

الداعى الى جمع القرآن فى المصحف ، واستمر كذلك الى أن جمعه عثمان ابن عفان رضى الله عنه الجمع الثانى فى المصحف . (ففى الصحيح) عن زيد ابن ثابت رضى الله عنه قال : أرسل الى أبو بكر مقتل أهل اليمامة ، فاذا عمر بن الخطاب عنده ؟ قال أبو بكر رضى الله عنه : ان عمر أتانى فقال : أن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن وانى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن ، وانى أرى أن تأمر بجمع القرآن قال أبو بكر : قلت لعمر : كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال عمر : هو والله خير ، فلم يزل عمر يراجعنى فيه حتى شرح الله لذلك صدرى ورأيت الذى رأى عمر . قال زيد بن ثابت - وعمر عنده جالس لا يتكلم - فقال أبو بكر : انك رجل شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن ؟ قلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال أبو بكر : هو والله خير . فلم أزل أراجعهم حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر . فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والاكتاف والعسف واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الانصارى لم أجدها مع أحد غيره: «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم» . حتى خاتمة براءة . فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حياته حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر اه . ولما فرغ خالد من أمر اليمامة بعث اليه أبو بكر فى المحرم سنة اثنتى عشرة يأمره بالسير الى العراق وذلك عندما أجمعت العرب على الاسلام واتفقوا على التمسك بكلمته وأخلصوا الطاعة لله وللخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمت لابى بكر رضى الله عنه همة فى قتال فارس والروم أهل الدولتين العظيمتين فى العالم يومئذ فتوجه خالد رحمه الله نحو فارس وكان عذابا من عذاب الله أرسله على اهل الكفر والضلال وما مثله الا قول المتنبى :

وما كان الا النار فى كل موضع * يثير غبارا فى مكان دخان

فتوجه خالد رحمه الله وفتح الحيرة وما وراءها من أعمال العراق وفتح الانبار وعين التمر وأوقع الوقائع العظيمة بمسالح أهل فارس وجيوشهم حتى أخافهم فى بلادهم وهم بالاقتحام عليهم ومقاتلتهم فى عقر دارهم وكتب اليهم بكتابين يتوعدهم ويتهددهم ثم صرفه أبو بكر رضى الله عنه الى الشام فشهد اليرموك مع جيوش المسلمين الذين كانوا هناك . ففى الاكتفاء عن عبد الله بن أبى أوفى الخزاعى ـ وكانت له صحبة ـ قال : لما أراد أبو بكر أن يجهز الجنود الى الشام دعا عمر وعثمان وعلى بن أبى طالب وعبد الرحمن ابن عوف وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وأبا عبيدة بن الجراح ووجوه المهاجرين والانصار من أهل بدر وغيرهم فدخلوا عليه ـ وأنا فيهم ـ فقال : ان الله لاتحصى نعمه ولا تبلغ جزاءها الاعمال فله الحمد كثيرا على ما اصطنع عندكم ثم جمع كلمتكم واصلح ذات بينكم وهداكم الى الاسلام ونفى عنكم الشيطان فليس يطمع أن تشركوا بالله ولا أن تتخذوا الها غيره فالعرب اليوم بنو أم وأب وقد رأيت أن أستنفرهم الى الروم بالشام فمن هلك منهم هلك شهيدا وما عند الله خير للابرار ومن عاش منهم عاش مدافعا عن الدين مستوجبا على الله ثواب المجاهدين . هذا رأيى الذى رأيت فليشر على امرؤ بمبلغ رأيه . فأجاب كل من الحاضرين باستصواب رأيه وتقوية عزمه . فجهز أبو بكر رضى الله عنه جيوشا وأمر عليهم أمراء : كخالد بن سعيد بن العاص وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبى جهل والوليد بن عقبة ويزيد ابن أبى سفيان وأمر أبا عبيدة بن الجراح على جميعهم وعين له حمص وأوصى كل واحد منهم بما تنبغى الوصية به فكان بسبب تلك الجموع وقعة اليرموك بين المسلمين والروم فى رجب سنة ثلاث عشرة من الهجرة بعد وفاة أبى بكر رضى الله عنه بنحو شهر، لان وفاته رضى الله عنه كانت مساء ليلة الثلاثاء بين العشاءين لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة فكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال وعمره ثلاث وستون سنة رضى الله عنه ونفعنا به .

٢٤

خلافة أمير المومنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه

هو أول من دعى أمير المؤمنين ـ وكان أبو بكر قبله يدعى : خليفة رسول الله ـ وهو أبو حفص عمر بن الخطاب بن نفيل مصغرا بن عبد العزى ابن رياح بكسر الراء وفتح المثناة التحتية بن عبد الله بن قرط بضم القاف ابن رزاح بفتح الراء بن عدى بن كعب بن لؤى ـ يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كعب بن لؤى ـ ولى الخلافة بعد أبى بكر رضى الله عنه بعهد منه اليه . قال ابن خلدون : لما احتضر أبو بكر عهد الى عمر رضى الله عنهما بالامر من بعده بعد أن شاور عليه طلحة وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم وأخبرهم بما يريد فيه ، فأثنوا على رأيه فأشرف على الناس وقال : «انى قد استخلفت عمر ولم آل لكم نصحا فاسمعوا له وأطيعوا» ودعا عثمان فأمره فكتب : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة فى الحال التى يؤمن فيها الكافر وينيب فيها الفاجر . انى استعملت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيرا فان صبر وعدل فذلك علمى به ورأيى فيه ، وان جار وبدل فلا علم لى بالغيب ، والخير أردت ولكل امرىء ما اكتسب «وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون» . فكان أول ما أنفذه من الامور عزل خالد بن الوليد عن امارة الجيوش بالشام وتولية أبى عبيدة وجاء الخبر بذلك والمسلمون مواقفون عدوهم باليرموك ، فكتم أبو عبيدة الامر كله حتى انقضى أمر اليرموك . وكان فتح دمشق بعدها فحينئذ أظهر أبو عبيدة امارته وعزل خالد . فسمع خالد وأطاع ـ وقيل فى هذا الخبر غير هذا مما هو مبسوط فى كتب الفتح ـ ثم ان عمر رضى الله عنه سدد عزمه وارهف حده لغزو فارس والروم فتابع عليهم الجنود وعين لكل أمير عمله ، وعقد لابى عبيد بن مسعود الثقفى على جيش من المسلمين وبعثه نحو العراق فاستشهد أبو عبيد بموضع يقال له : قس الناطف على

الفرات فولى مكانه المثنى بن حارثة الشيبانى وكان بطــلا من الابطال نظير خالد بن الوليد فى يمن النقيبة والجراءة على الاعداء ، فأوقع بأهل فــارس عدة وقعات منها وقعة البويب قتل فيها من الفرس مائة ألف أو يزيدون ثم ان عمر رضى الله عنه استأنف الجد لجهاد فارس وقال : والله لاضربن ملوك العجم بملوك العرب ، فلم يدع رئيسا ولا ذا رأى ولا خطيبا ولا شاعرا الا رماهم به ، فرماهم بوجوه الناس وكتب الى المثنى يأمره أن يخرج بالمسلمين من بين العجم ويتفرق بهم على المياه بحيالهم ، وان يدعو الفرسان وأهل النجدات من ربيعة ومضر ويحضرهم طوعا وكرها ، ثم حج عمر سنة ثلاث عشرة ورجع الى المدينة فوافته أمداد العرب بها . فعقد عليهم لسعد بن أبى وقاص رضى الله عنه وولاه حرب العراق وأوصاه وقال : «ياسعد بن أم سعد لا يغرنك من الله أن يقال : خال رسول الله فان الله لا يمحو السىء بالسيىء ولكنه يمحو السيىء بالحسن وليس بين الله وبين أحد نسب الا بطاعته فالناس فى دين الله سواء الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة فانظر الامر الذى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلزمه فألزمه وعليك بالصبر » ثم سرحه فى أربعة آلاف ممن اجتمع اليه فيهم وجوه العرب وأشرافها وانضاف اليه فى طريقه جموع أخر فكانت له فى هذا الوجه وقعة القادسية المشهورة دامت فيها الحرب بين المسلمين والفرس أربعة أيام بلياليها وقتل فيها رستم زعيم الفرس وصاحب حربها واستلحمت جنوده وكان الفتح الذى لم يكن له فى الاسلام نظير وذلك فى المحرم سنة أربع عشرة ـ وقيل خمس عشرة ـ ثم كان بعدها فتح المدائن (١) وجلولاء وسائر بلاد العراق وغيرها من بلاد فارس والجبل وارمينية واذربيجان وسجستان وكرمان ومكران وخراسان وغير ذلك مما يطول ذكره وكذا استولى جيوش المسلمين الذين بالشام على بلاد الشام والجزيرة

---

(١) المدائن يعنى بها اقطيزبيون وسيلانسيا على شاطىء نهر الدجلة جنوب بغداد ومجموعها الآن هو المعروف بالمدائن . ولفظ أقطيزبيون فارسى .

وانطاكية وغيرها من بلاد الروم ومصر والاسكندرية وبرقة وطرابلس الغرب وغير ذلك . (وفى سنة أربع عشرة) أمر عمر رضى الله عنه باختطاط البصرة والكوفة بعراق العرب لما بلغه من وخامة البلاد وان العرب قد تغيرت ألوانهم بالعراق فاذن لهم فى اختطاط المصرين وان لا يتجاوزوا فى بنائهما السنة . ويقال ان اختطاط الكوفة كان فى سنة سبع عشرة (وفى سنة خمس عشرة) وضع عمر الديوان وفرض العطاء للمسلمين ولم يكن قبل ذلك وروى الزهرى عن ابن المسيب : أن ذلك كان فى المحرم سنة عشرين . قال ابن خلدون : يقال وضع عمر الديوان لسبب مال أتى به أبو هريرة من البحرين فاستكثروه وتعبوا فى قسمه فسموا الى احصاء الاموال وضبط العطاء والحقوق فأشار خالد بن الوليد بالديوان وقال : رأيت ملوك الشام يدونون فقبل منه عمر . وقيل : بل أشار عليه به الهرمزان لما رآه يبعث البعوث بغير ديوان فقال له : ومن يعلم بغيبة من يغيب منهم فان من تخلف أخل بمكانه وانما يضبط ذلك الكتاب فأثبت لهم ديوانا . فأمر عمر رضى الله عنه عقيل ابن أبى طالب ومخزمة بن نوفل وجبير بن مطعم — وكانوا من كتاب قريش — فكتبوا ديوان العساكر الاسلامية مرتبا على الانساب مبتدأ فيه بقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الاقرب فالاقرب بعد أن قال على وعبد الرحمن بن عوف لعمر : ابدأ بنفسك فقال : لا بل بعم رسول الله صلى الله عليه وسلم فبدأ بالعباس ثم بالاقرب فالاقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم وفرض لاهل بدر خمسة آلاف وفرض لمن بعدهم الى الحديبية أربعة آلاف أربعة آلاف ثم لمن بعدهم ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف ثم ألفين وخمسمائة ؛ ثم لاهل القادسية وأهل الشام ألفين ألفين، وفرض لمن بعد القادسية واليرموك ألفا ألفا ولروادفهم خمسمائة خمسمائة ثم ثلاثمائة ثم مائتين وخمسين ثم مائتين ، وأعطى نساء النبى صلى الله عليه وسلم لكل واحدة عشرة آلاف وفضل عائشة بألفين ، وجعل النساء على مراتب : فلاهل بدر خمسمائة ثم أربعمائة ثم ثلاثمائة ثم مائتين ، والصبيان مائة مائة والمساكين جريبين فى الشهر ولم يترك فى بيت المال شيئا . وسئل فى ذلك فأبى وقال : هى فتنة

لمن بعدى . ثم سأل رضى الله عنه الصحابة فى قوته هو من بيت المال فأذنوا له ، وسألوه فى الزيادة على لسان ابنته حفصة ـ متكتمين عنه ـ فغضب وامتنع .

وفى سنة ست عشرة قدم جبلة بن الايهم ملك غسان على عمر رضى الله عنه فى جماعة من أصحابه مسلمين، فتلقاه المسلمون ودخل فى زى حسن وبين يديه جنائب مقادة وعلى أصحابه الديباج حتى تطاول النساء من خدورهن لرؤيته؛ وأكرم عمر وفادته واحسن نزله وأجله بأرفع رتب المهاجرين ، ثم خرج عمر للحج فى هذه السنة فحج معه جبلة فبينما جبلة يطوف بالبيت اذ وطىء رجل من فزارة فضل ازاره فلطمه جبلة فهشم أنفه ، فأقبل الفزارى الى عمر وشكاه ؛ فأحضره عمر وقال له : افتد نفسك والا أمرته بلطمك . فقال جبلة : كيف ذاك وأنا ملك وهو سوقة ؟ فقال عمر : ان الاسلام جمعكما وسوى بين الملك والسوقة فى الحد . فقال جبلة : كنت أظن انى بالاسلام أعز منى فى الجاهلية ! فقال عمر : دع عنك هذا . فقال جبلة : انى أتنصر ! فقال عمر : ان تنصرت ضربت عنقك ! فقال له : أنظرنى ليلتى هذه ؛ فأنظره فلما جاء الليل سار جبلة بخيله ورجله الى الشام ثم منها الى القسطنطينية ، وتبعه خمسمائة رجل من قومه فتنصروا عن آخرهم . وفرح هرقل به وأكرمه ثم ندم جبلة على فعلته تلك وقال :

تنصرت الاشراف من عار لطمة	وما كان فيها لو صبرت لها ضرر
تكنفنى فيها لجاج ونخوة	وبعت لها العين الصحيحة بالعور
فياليت أمى لم تلدنى وليتنى	رجعت الى القول الذى قاله عمر
ويااليتنى أرعى المخاض بقفرة	وكنت أسيرا فى ربيعة أو مضر
ويااليت لى بالشام أدنى معيشة	أجالس قومى ذاهب السمع والبصر
أدين بما دانوا به من شريعة	وقد يحبس العير الدجون على الدبر

وكان قد مضى رسول عمر الى هرقل وشاهد ما هو فيه جبلة من النعمة فأرسل جبلة بخمسمائة دينار الى حسان بن ثابت وأمضاها له عمر ؛ فمدحه حسان بن ثابت بأبيات منها :

ان ابن جفنة من بقية معشر　　لم يغذهم آباؤهم باللوم
لم ينسنى بالشام اذ هو ربها　　كلا ، ولا متنصرا بالروم
يعطى الجزيل ولا يراه عنده　　الا كبعض عطية المذموم

(وفى سنة سبع عشرة) جيء الى عمر بالهرمزان ملك الاهواز أسيرا ومعه وفد فيهم أنس بن مالك والاحنف ابن قيس ، فلما وصلوا به الى المدينة ألبسوه كسوته من الديباج المذهب ووضعوا على رأسه تاجه – وهو مكلل بالياقوت – ليراه عمر والمسلمون على هيئته التى يكون عليها فى ملكه ! فطلبوا عمر فلم يجدوه فسألوا عنه فقيل : هو فى المسجد . فأتوه فاذا هو نائم فجلسوا دونه فقال الهرمزان : أين هو عمر ؟ قالوا : هو ذا . قال : فأين حرسه وحجابه ؟ قالوا ليس له حارس ولا حاجب ! فنظر الهرمزان الى عمر وقال : عدلت فأمنت فنمت ، واستيقظ عمر لجلبة الناس فقال : الهرمزان ؟ قالوا نعم ياأمير المومنين . فقال : الحمد لله الذى أذل بالاسلام هذا وأشباهه ؛ وأمر بنزع ما عليه فنزعوه وألبسوه ثوبا ضيقا . فقال عمر : كيف رأيت عاقبة أمر الله فيك ؟ فقال الهرمزان : لما خلى الله بيننا وبينكم فى الجاهلية غلبناكم ولما كان الله الآن معكم غلبتمونا (وفى سنة ثمان عشرة) كانت مجاعة الرمادة وطاعون عمواس ؛ وحلف عمر لايذوق السمن واللبن حتى يحيى الناس واستسقى عمر بالعباس عم النبى صلى الله عليه وسلم فسقوا . وهلك بالطاعون أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل ويزيد ابن أبى سفيان والحرث بن هشام وسهيل بن عمرو وابنه عتبة فى آخرين أمثالهم ، وتفانى الناس بالشام وبالبصرة أيضا ؛ ولما فحش أثر الطاعون بالشام أجمع عمر المسير اليه ليقسم مواريث المسلمين ويتطوف على الثغور ففعل ورجع وكانت له خرجة أخرى قبل هذا لفتح بيت المقدس (وفى سنة عشرين) فتح عمرو بن العاص مصر والاسكندرية وشهد الفتح معه الزبير بن العوام وجماعة من كبار الصحابة . (وفى سنة اثنتين وعشرين) سار عمرو بن العاص الى برقة فصالحه أهلها على الجزية . ثم سار الى طرابلس الغرب فحاصرها وفتحها عنوة . (وفى سنة ثلاث وعشرين) كانت وفاة عمر

رضى الله عنه على ما سياتى . وفى الصحيح عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر . (وعنه أيضا) قال : لما أسلم عمر كان الاسلام كالرجل المقبل لا يزداد الا قوة ولما مات عمر كان الاسلام كالرجل المدبر لايزداد الا ضعفا . وعند ابن أبى شيبة رضى الله عنه قال : كان اسلام عمر عزا وهجرته نصرا وامارته رحمة . وفى الصحيح أيضا عن ابن عمر وأبى هريرة رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بينا أنا نائم رأيتنى على قليب وعليها دلو فنزعت منها ما شاء الله ثم أخذها ابن أبى قحافة فنزع منها ذنوبا أو ذنوبين وفى نزعه ضعف والله يغفر له ثم استحالت غربا فأخذها عمر بن الخطاب فلم أر عبقريا من الناس ينزع نزع عمر . وفى رواية : فلم أر عبقريا من الناس يفرى فريه حتى ضرب الناس بعطن» قال النووى رحمه الله : قالوا : هذا المنام مثال لما جرى للخليفتين من ظهور آثارهما الصالحة وانتفاع الناس بهما ، وكل ذلك ماخوذ من النبى صلى الله عليه وسلم لانه صاحب الامر نقام به أكمل قيام وقرر قواعد الدين ثم خلفه أبو بكر فقاتل أهل الردة وقطع دابرهم . ثم خلفه عمر فطالت مدة خلافته عشر سنين وزيادة ، واتسع الاسلام فى زمانه فشبه أمر المسلمين بقليب فيه الماء الذى فيه حياتهم وصلاحهم وأميرهم بالمستقى لهم منها وسعته هى قيامه بمصالحهم اه . (قلت) من تأمل أمر عمر رضى الله عنه علم أنه كان عجبا من العجب فانه عمد الى ثلاث دول هى أعظم دول العالم فى ذلك الوقت : دولة الفرس ودولة الروم ودولة القبط فحاربهم فى نفس واحد وفرق جيوشه عليهم مع قلة المسلمين اذ ذاك وشظف عيشهم فغلبهم على ممالكهم وأزال عزهم ، وكسر كراسيهم ، وأمات نخوتهم ! بحيث ضرب الجزية على رقابهم طول أحقابهم ! فلم يطالبوا بعدها بثار ولا عادوا الى جماح ونفار بل أعطوا المقادة وأسلموا أنفسهم للصغار . ثم لم يكتف بذلك حتى أغزى خيل المسلمين أطراف المعمور من خراسان والترك وبلاد النوبة وبلاد البربر ، ولعمرى ما أمر الاسكندر الذى تضرب الامم به المثل فى الغلبة والتمكن فى الارض الا دون أمر عمر بكثير . فان

الاسكندر كان غازيا بجميع جيشه متوليا ذلك بنفسه ! جوالا فى الارض غير مقيم ووجهته فى حروبه وجهة واحدة كلما فرغ من مملكة انتقل الى غيرها تاركا للتى خلف وراءه غير ملتفت اليها ، وكأنه كان لا غرض له الا فى اظهار القوة والبطش والغلبة على الامم دون ما سوى ذلك من تصريف الممالك طوع الامر والنهى . ولذا قال حمزة الاصبهانى فى كتابه تواريخ الامم : وما رواه القصاص من ان الاسكندر بنى بأرض ايران عدة مدن منها اصبهان ، ومرو ، وهراة ، وسمرقند ، فحديث لا أصل له . لان الرجل كان مخربا لاعامرا اه . فأما عمر رضى الله عنه فانه لما استولت جيوشه على أكثر المعمور ، صرف ممالكها طوع أمره حتى جبى اليه خراجها ، وثبتت استقامتها وزال اعوجاجها ، أقوى ما كانوا شوكة وأشد قوة ، وأكثر حامية ، ولم يمت رحمه الله حتى انتهت خيله فى جهة الشرق الى نهر بلخ ، وفى جهة الشمال الى البيضاء على مائتى فرسخ من بلنجر ، وفى جهة المغرب الى تخوم الروم وبلاد برقة وطرابلس الغرب . كل ذلك فى مدة يسيرة لم يجاوز معظمها الثلاث سنين ، وهو مع ذلك فى جوف بيته متردد فيما بين منزله ومسجده ، لم يستعمل لذلك كثير أسباب ، ولا أجلب بنفسه بخيل ولا ركاب ، انما هو الرأى الميمون ، والنصر المضمون ، والامر الجارى بين الكاف والنون ، والوعد المنجز بقوله تعالى : «ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» فأما وفاة عمر رضى الله عنه فروى ابن سعد باسناد صحيح : أن عمر كان لا يأذن لمن احتلم من أولاد العجم فى دخول المدينة ، حتى كتب اليه المغيرة بن شعبة ـ وهو على الكوفة ـ فذكر له أن عنده غلاما صنعا ، وهو يستأذنه أن يدخله المدينة ، ويقول : ان له أعمالا تنفع الناس ، انه حداد ، نقاش ، نجار ، فأذن له عمر ، وضرب عليه مولاه كل شهر مائة فشكى الى عمر شدة الخراج فقال له : ما خراجك بكثير فى جنب ما تعمل ، فانصرف ساخطا ، فلبث عمر ليالى فمر به العبد فقال عمر : ألم أحدث أنك تقول لو شئت لصنعت رحى تطحن بالريح ؟ فالتفت اليه عابسا فقال : لاصنعن لك رحى يتحدث الناس بها فأقبل عمر على من معه فقال :

توعدني العبد ، فلبث ليالي ثم اشتمل على خنجر ذى رأسين نصابه فى وسطه فكمن فى زاوية من زوايا المسجد فى الغلس ، حتى خرج عمر يوقظ الناس للصلاة – وكان عمر يفعل ذلك – فلما دنا عمر وثب عليه فطعنه ثلاث طعنات احداهن تحت السرة قد خرقت الصفاق وهى التى قتلتـه . (وفى صحيح البخارى) عن عمرو بن ميمون قال : رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه قبل أن يصاب بأيام بالمدينة وقف على حذيفة بن اليمان وعثمان بـن حنيف قال كيف فعلتما ؟ – فى أرض السواد – أتخافا ن ان تكونا قد حملتما الارض ما لا تطيق ؟ – يعنى من الخراج – قالا : حملناها أمرا هى له مطيقة ما فيها كبير فضل قال : أنظرا أن تكونا حملتما الارض ما لا تطيـق ؟ قالا : لا . فقال عمر : لئن سلمنى الله تعالى لادعن أرامل أهل العراق لا يحتجن الى رجل بعدى أبدا . قال : فما أتت عليه رابعة حـتى أصيب . قال عمرو بن ميمون : انى لقائم ما بينى وبينه الا عبد الله بـن عباس غداة أصيب وكان اذا مر بين الصفين قال : استووا حتى اذا لـم ير فيهن خللا تقدم فكبر ، وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك فـى الركعة الاولى حتى يجتمع الناس ، فما هو الا أن كبر فسمعته يقول : قتلنـى أو أكلنى الكلب حين طعنه أبو لؤلؤة واسمه فيروز فطار العلج بسكين ذات طرفين لا يمر على أحد يمينا ولا شمالا الا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلا مـات منهم سبعة . فلما رأى ذلك رجل من المسلمين واسمه حطاب التميمى اليربوعى طرح عليه برنوسا فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه . وتناول عمر يـد عبد الرحمن بن عوف فقدمه ، فمن يلى عمر فقد رأى الـذى أرى ، وأما نواحى المسجد فانهم لا يدرون ، غير أنهم قد فقدوا صوت عمر وهم يقولون سبحان الله سبحان الله ، فصلى بهم عبد الرحمن بـن عوف صلاة خفيفة . فلما انصرفوا قال : يابن عباس أنظر من قتلنى فجال ساعـة ثم جاء فقال : غلام المغيرة قال : الصنع ؟ قال : نعم . قال قاتله الله لقـد أمرت به معروفا الحمد لله الذى لم يجعل ميتتى بيد رجل يدعى الاسلام قد كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة – وكان العباس أكثرهم رقيقـا – قال : ان

شئت فعلنا : أى ان شئت قتلنا . قال : كذبت ! بعـد ما تكلموا بلسانكم ! وصلوا الى قبلتكم ! وحجوا حجكم ! فاحتمل الى بيته فانطلقنا معه وكان الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ . فقائل يقول : لا بأس ، وقائل يقول : أخاف عليه فأتى بنبيذ فشربه فخرج من جرحه ، ثم أتى بلبن فشربه فخرج من جرحه ، فعلموا أنه ميت ، فدخلنا عليه وجاء الناس يثنون عليه ، وجاء رجل شاب فقال : أبشر ياأمير المؤمنين ببشرى الله لك بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقدم فى الاسلام ما قد علمت ، ثم وليت فعدلت ثم شهادة قال وددت أن ذلك كفاف لا على ولا لى . فلما ادبر الشاب اذا ازاره يمس الارض ، قال ردوا على الغلام ، قال : يابن أخى ارفع ثوبك فانه أنقى لثوبك ! وأتقى لربك ! ياعبد الله ابن عمر ، انظر ماذا على من الدين ، فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفا أو نحوه ، قال : ان وفى له مال آل عمر فأده من أموالهم ، والا فاسأل فى بنى عدى بن كعب ، فان لم تف أموالهم فاسأل فى قريش ولا تعدهم الى غيرهم ، فأد عنى هذا المال ، انطلق الى عائشة أم المؤمنين ، فقل : يقرأ عليك عمر السلام — ولا تقل أمير المؤمنين ، فانى لست اليوم للمؤمنين أميرا — وقل : يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه ، فسلم واستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكى ، فقال : يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ، ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه ، فقالت : كنت أريده لنفسى ولأوثرنه به اليوم على نفسى . فلما أقبل قيل : هذا عبد الله بن عمر قد جاء قال : ارفعونى فاسنده رجل اليه ، فقال : ما لديك ؟ قال : الذى تحب ياأمير المؤمنين . أذنت . قال : الحمد لله ! ما كان من شىء أهم على من ذلك ، فاذا أنا قضيت فاحملونى ، ثم سلم فقل : يستأذن عمر بن الخطاب ، فان اذنت لى فادخلونى ، وان ردتنى ردونى الى مقابر المسلمين وجاءت أم المؤمنين حفصة — والنساء تسير معها — فلما رأيناها قمنا ، فولجت عليه فبكت عنده ساعة ، واستأذن الرجال فولجت داخلا لهم ، فسمعنا بكاءها من الداخل ، فقالوا أوص ياأمير المؤمنين : استخلف ، قال : ما أجد أحدا أحق بهذا الامر

من هؤلاء النفر أو الرهط الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، فسمى : عليا ، وعثمان ، والزبير ، وطلحة ؛ وسعدا ؛ وعبد الرحمن وقال : يشهدكم عبد الله ابن عمر وليس له من الامر شىء كهيئة التعزية له فان أصابت الامارة سعدا فهو ذاك ، والا فليستعن به أيكم ما أمر فانى لم أعزله عن عجز ولا خيانة ، وقال : أوصى الخليفة من بعدى بالمهاجرين الاولين أن يعرف لهم حقهم ، ويحفظ لهم حرمتهم ، وأوصيه بالانصار الذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم : أن يقبل من محسنهم ، وأن يعفى عن مسيئهم ؛ وأوصيه بالانصار خيرا ، فانهم ردء الاسلام ، وجباة المال ، وغيظ العدو . وان لا يؤخذ منهم الا فضلهم عن رضاهم . وأوصيه بالاعراب خيرا ، فانهم أصل العرب ومادة الاسلام أن يؤخذ من حواشى أموالهم وترد على فقرائهم . وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله : أن يوفى لهم بعهدهم ؛ وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا الا طاقتهم . فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشى فسلم عبد الله بن عمر وقال : يستأذن عمر بن الخطاب قالت : أدخلوه فأدخل فوضع هنالك مع صاحبيه ؛ فلما فرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط : فقال عبد الرحمن : اجعلوا أمركم الى ثلاثة منكم فقال الزبير : قد جعلت أمرى الى على ، فقال طلحة : قد جعلت أمرى الى عثمان ؛ وقال سعد : قد جعلت أمرى الى عبد الرحمن بن عوف ؛ فقال عبد الرحمن : أيكما يتبرأ من هذا الامر فنجعله اليه ؛ والله عليه والاسلام لينظرن أفضلهم فى نفسه فأسكت الشيخان ! فقال عبد الرحمن : أفتجعلونه الى والله على أن لا آلو عن أفضلكم ؟ قالا : نعم فأخذ بيد أحدهما فقال : لك من قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم والقدم ما قد علمت ، فالله عليك لئن أمرتك لتعدلن ولئن أمرت عثمان لتسمعن ولتطيعن ، ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك ، فلما أخذ الميثاق قال : ارفع يدك ياعثمان ، فبايعه وبايع له على وولج أهل الدار فبايعوه اهـ .

وكانت وفاة عمر رضى الله عنه يوم السبت منسلخ ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين ، ودفن يوم الاحد هلال المحرم سنة أربع وعشرين ، وكانت مدة

خلافته عشر سنين وستة أشهر وثمانية أيام ـ كذا لابى الفداء ـ . وفى حديث عائشة مما خرجه أبو عمر بن عبد البر ، ناحت الجن على عمر رضى الله عنه ـ قبل أن يموت بثلاث ـ فقالت :

أبعد قتيل بالمدينة أظلمت ... له الارض تهتز العضاه بأسوق
جزى الله خيرا من امام وباركت ... يد الله فى ذاك الاديم الممزق
فمن يسع أو يركب جناح نعامة ... ليدرك ما قدمت بالامس يسبق
قضيت أمورا ثم غادرت بعدها ... بوائق من أكمامها لم تفتق

* * *

خلافة أمير المومنين عثمان بن عفان رضى الله عنه

هو أبو عمرو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عبد مناف ، ولى الخلافة بعد عمر رضى الله عنه باختيار أهل الشورى له وقد تقدم خبر ذلك مستوفى . ولما بويع رقى المنبر وقام خطيبا فحمد الله وتشهد ثم ارتج عليه فقال : ان أول كل أمر صعب وان أعش فستأتيكم الخطب على وجهها ان شاء الله . ثم نزل . وأقر عمال عمر كلهم الا ما كان من المغيرة بن شعبة أمير الكوفة فانه عزله واستبدل به سعد بن أبى وقاص لوصية عمر بذلك ، ثم بعد مدة نحو سنة عزل من عزل من عمال عمر واستبدل بهم آخرين كان فيهم من هو من قرابته ، فعزل سعد بن أبى وقاص عن الكوفة وولى عليها الوليد بن عقبة ، وكان أخا عثمان من أمه ، وعزل عمرو بن العاص عن مصر وولى عليها عبد الله بن سعد ابن أبى سرح العامرى . وكان أخاه من الرضاعة ، ثم عزل بعد ذلك أبا موسى الاشعرى عن البصرة ، وولى عليها عبد الله بن عامر بن كريز ، وهو ابن خاله ، واستكتب مروان ابن الحكم بن أبى العاص وهو ابن عمه ، كل ذلك كان لمصلحة اقتضاها

الحال ، وضم حمص وقنسرين وفلسطين وغيرها من بلاد الشام الى معاوية بن أبى سفيان : أمير دمشق ومضى رضى الله عنه على سنن عمر فى الجهاد ، وتجهيز الجيوش وتكتيب الكتائب ، حتى اتسعت خطة الاسلام اتساعا أعظم منه فى خلافة عمر رضى الله عنه ، وكان لاول خلافة عثمان قد انتقض بعض الثغور والجهات ، مثل الاسكندرية وبعض بلاد العجم وفارس ونحو ذلك ، فتلافاها بالغزو والبعوث ، حتى عادت الى الطاعة ، وأدت ما كانت تؤديه أيام عمر أو أكثر ، وفتح عليه بلاد أرمينية ، مثل تفليس ، وقاليقلا ، وخلاط ، والسيرجان ، وعدة حصون . وانتهى الفتح الى مدينة الباب — وكان ذلك على يد سلمان بن ربيعة الباهلى سنة أربع وعشرين — وغزا معاوية صاحب الشام أيضا بلاد الروم حتى بلغ عمورية ، ووجد ما بين انطاكية وطرطوس من حصون الروم خاليا ، فجمع فيها العساكر حتى رجع وخربها وكذا استتم المسلمون فى خلافة عثمان رضى الله عنه فتح مدن خراسان والجوزجان والطالقان وطخارستان وما وراء النهر الى فرغانة فى الشرق ، وانتهى الفتح أيضا الى كابل وزابلستان وهى بلاد غزنة من ثغور الهند فى الجنوب .



فتـــح افريقيـــة

وفتح فى خلافة عثمان رضى الله عنه افريقيـة ـ أيضا ـ مـن بلاد المغرب ، وكان من خبرها أنه لما كانت سنة ست وعشرين من الهجرة ، عزل عثمان رضى الله عنه عمرو بن العاص رضى الله عنه عـن خـراج مـصر ، واستعمل مكانه عبد الله بن سعد بن أبى سرح رضى الله عـنه ، فلما قدم ابن أبى سرح مصر كان على خراجها ، وعمـرو بن العاص على حربـها ، فكتب ابن أبى سرح الى عثمان يشكو عمرا فاستقدمه عثمان ! واستقـل ابن أبى سرح بالخراج والحرب معا . ثم أمره عثمان بغزو افريقية بعد أن كـان عمرو بن العاص استشار عمر رضى الله عنه فى غزوها فمنعـه من ذلـك ، وقال له : تلك المفرقة وليست بافريقية أو كلاما هذا معنـاه . ولما (١) أمر عثمان ابن ابى سرح بغزوها قال له : ان فتح الله عليك فلك خمس الخمس من الغنائم ، ثم عقد عثمان لعبد الله بن نافـع بن عبد القيس عـلى جنـد ، ولعبد الله بن نافع بن الحـرث (٢) على آخـر وسرحهما ، فخـرجـوا الى افريقية فى عشرة آلاف ، وصالحهم أهلها على مال يؤدونه ، ولم يقدروا عـلى التوغل فيها لكثرة أهلها . ثم ان ابن أبـى سرح استأذن عثمـان فى ذلـك واستمده ، فاستشار عثمـان الصحابة رضى الله عنهم فأشـاروا بـه ، فجـهز العساكر من المدينة وفيهم جماعة من الصحابة منهم ابن عبـاس وابـن عمر وابن عمرو بن العاص وابن جعفـر والحسن والحسين رضى الله عنهم . وساروا مع ابن أبى سرح سنة ست وعشرين ، ولقيهم عقبـة بن نافـع فيمن

---

(١) هذا كان فى غزوة قبل هذه سنة خمس وعشرين . (مؤلف)

(٢) وفى رواية : الحصين ، بدل الحرث كما فى الطبرى والاكتفا وهو الاصـــح .

معه من المسلمين ببرقة (١) ، ثم ساروا الى طرابلس ، فنهبوا الروم عندها ثم ساروا الى افريقية ، وبثوا السرايا فى كل ناحية . وكان ملكهم جرجير يملك ما بين طرابلس وطنجة تحت ولاية هرقل ، ويحمل اليه الخراج . فلما بلغه الخبر جمع مائة وعشرين ألفا من العساكر ولقيهم على يوم وليلة من سبيطلة : دار ملكهم ، وأقاموا يقتتلون ، ودعوه الى الاسلام أو الجزية فاستكبر ، ولحقهم عبد الله بن الزبير مددا بعثه عثمان لما أبطأت أخبارهم ، وسمع جرجير بوصول المدد ففت فى عضده ، وشهد ابن الزبير معهم القتال وقد غاب ابن أبى سرح ، فسأل عنه فقيل : انه سمع منادى جرجير يقول من قتل ابن أبى سرح فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتى فخاف وتأخر عن شهود القتال ، فقال له ابن الزبير : تنادى أنت بأن من قتل جرجير نفلته مائة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده ، فخاف جرجير أشد منه . ثم قال عبد الله بن الزبير لابن أبى سرح : الرأى أن تترك جماعة من أبطال المسلمين المشاهير متأهبين للحرب وتقاتل الروم بباقى العسكر الى أن يضجروا فتركبهم بالآخرين على غرة لعل الله ينصرنا عليهم ، ووافق على ذلك أعيان الصحابة ، ففعلوا ذلك وركبوا من الغد الى الزوال وألحوا عليهم حتى أتعبوهم ثم افترقوا ، وأركب عبد الله الفريق الذين كانوا مستريحين فكبروا وحملوا حملة رجل واحد حتى غشوا الروم فى خيامهم فانهزموا وقتل كثير منهم ، وقتل ابن الزبير جرجير ، وأخذت ابنته سبية فنفلها ابن أبى سرح ابن الزبير ، ثم حاصر ابن أبى سرح سبيطلة حتى فتحها . وكان سهم الفارس فيها ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألفا ، وبث جيوشه فى البلاد الى قفصة، فسبوا وغنموا، وبعث عسكرا الى حصن الاجم — وقد اجتمع به أهل البلاد — فحاصره وفتحه على الامان ، ثم صالحه أهل افريقية على ألفى ألف وخمسمائة ألف دينار . وأرسل عبد الله بن أبى سرح عبد الله بن الزبير بخبر الفتح

---

(١) وكانوا بها منذ فتحوا زويلة فى ولاية عمرو بن العاص على مصر زمان عمر رضى الله عنه .

وبالخمس الى عثمان رضى الله عنه ، فاشتراه مروان بن الحكم بخمسمائة ألف دينار ، ثم وضعها عنه عثمان . وأعطى ابن أبى سرح خمس الخمس من الغزوة الاولى ، ثم بعد تمام الصلح رجع عبد الله بن أبى سرح الى مصر بعد مقامه بافريقية سنة وثلاثة أشهر ، ويقال : انه لما فتح افريقية أمر عثمان رضى الله عنه عبد الله بن نافع (١) ان يسير الى جهة الاندلس فغزا تلك الجهة وعاد الى افريقية فأقام بها واليا من قبل عثمان ورجع ابن أبى سرح الى مصر والله أعلم .

وفى سنة ثمان وعشرين استأذن معاوية عثمان فى غزو البحر فأذن له ، وقد كان معاوية وهو بحمص أيام عمر رضى الله عنه كتب اليه فى شأن جزيرة قبرس يقول : ان قرية من قرى حمص يسمع أهلها نباح كلاب قبرس وصياح ديوكهم ، فكتب عمر الى عمرو بن العاص يقول : صف لى البحر وراكبه ! فكتب اليه عمرو يقول : هو خلق كبير يركبه خلق صغير ليس الا السماء والماء ، ان ركد أقلق القلوب وان تحرك أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة ، والشك كثرة ، وراكبه دود على عود ، ان مال غرق ، وان نجا فرق . فكتب عمر الى معاوية : والذى بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلما أبدا وقد بلغنى أن بحر الشام يشرف على أطول جبل بالارض فيستأذن الله كل يوم وليلة فى أن يغرق الارض فكيف أحمل الجنود على هذا البحر الكافر ؟ وبالله لمسلم واحد أحب الى مما حوت الروم ، فاياك أن تعرض لى فى ذلك فقد علمت ما لقى العلاء منى . ثم لما كانت خلافة عثمان ألح معاوية عليه فى غزو البحر فأجابه على خيار الناس وطوعهم فاختار الغزو جماعة من الصحابة ؛ فيهم أبو ذر ، وأبو الدرداء ، وشداد بن أوس ، وعبادة بن الصامت وزوجه أم حرام بنت ملحان ، واستعمل عليهم عبد الله بن قيس حليف بنى فزارة . وساروا الى قبرس وجاء عبد الله بن أبى سرح من مصر فاجتمعوا عليها وصالحهم أهلها على سبعة آلاف دينار

---

(١) هو ابن عبد القيس كما عند الطبرى

لكل سنة ويؤدون مثلها للروم ولا منعة لهم على المسلمين ممن أرادهم من سواهم ، وعلى أن يكونوا عينا للمسلمين على عدوهم ، ويكون طريق الغزو للمسلمين عليهم . وكانت هذه الغزاة سنة ثمان وعشرين كما قدمنا ـ وقيل غير ذلك ـ وفيها توفيت أم حرام بنت ملحان سقطت عن دابتها حين خرجت من البحر وكان النبى صلى الله عليه وسلم أخبرها بذلك، وهو نائم عندها كما فى الصحيح ؛ وأقام عبد الله بن قيس على البحر فغزا خمسين غزوة لم ينكب فيها أحد الى أن نزل فى بعض الايام فى ساحل المرفأ من أرض الروم فثاروا اليه فقتلوه ونجا الملاح ، وكان استخلف سفيان بن عوف الازدى على السفن فجاء الى أهل المرفأ وقاتلهم حتى قتل ، وقتل معه جماعة من المسلمين .

وفى سنة ثلاثين : جمع عثمان القرآن الجمع الثانى فى المصاحف وفيها هلك يزدجرد كسرى فارا من جيوش المسلمين بمدينة مرو من خراسان وهو آخر الاكاسرة ، وبموته انقرضت دولة آل ساسان . وكان من خبر جمع القرآن ما أخرجه البخارى عن ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية واذربيجان مع أهل العراق فافزع حذيفة اختلافهم فى القراءة فقال حذيفة لعثمان : ياأمير المومنين أدرك هذه الامة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان الى حفصة أن أرسلى الينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها اليك ، فأرسلت بها حفصة الى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام فنسخوها فى المصاحف وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فانما نزل بلسانهم ففعلوا ؟ حتى اذا نسخوا الصحف فى المصاحف رد عثمان الصحف الى حفصة ؟ فأرسل الى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق . قال ابن شهاب : وأخبرنى خارجة بن زيد بن ثابت أنه سمع أباه زيد بن ثابت قال فقدت آية

من الاحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الانصارى « من المومنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » فألحقناها فى سورتها فى المصحف.

وفى سنة ثلاث وثلاثين : تكلم جماعة من أهل الكوفة فى عثمان بأنه ولى جماعة من أهل بيته لا يصلحون للولاية ونقموا عليه أمورا أخر لاحاجة بنا الى ذكرها مع أنه كان فيها مجتهدا . وذلك أن عثمان رضى الله عنه كان فيه مزيد حياء ورأفة وبرور بأقاربه وكان عمر رضى الله عنه مرهوب الجانب عند الخاصة والعامة ، له عين كالئة على الرعية بصيرا بما يأتون ويذرون. محدثا فى ذلك كما أخبر عنه صلى الله عليه وسلم ؛ وكان من الحزم والضبط على ما وصفته به عائشة رضى الله عنها اذ قالت : رحم الله عمر كان أحوذيا نسيج وحده قد أعد للامور أقرانها فكان عثمان ألين جانبا من عمر فتوسع الناس فى زمانه فى أمور الدنيا أكثر مما كانوا عليه فى زمان عمر، واستعملوا النفيس من الملبس والمسكن والمطعم ، واقتنوا الضياع والآثاث .

قال المسعودى فى مروج الذهب : وفى أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال فكان له يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار ، وألف الف درهم ، وقيمة ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرهما مائتا ألف دينار ، وخلف ابلا وخيلا كثيرة ، وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار ، وخلف ألف فرس ، وألف أمة ، وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم ، ومن ناحية السراة أكثر من ذلك ، وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس ، وله ألف بعير ، وعشرة آلاف من الغنم ، وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانون ألفا ، وخلف زيد ابن ثابت من الفضة والذهب ما كان يكسر بالفؤوس ، غير ما خلف من الاموال والضياع بمائة ألف دينار ، وبنى الزبير داره بالبصرة ، وكذلك بنى بمصر والاسكندرية والكوفة ، وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبناها بالجص والاجر والساج . وبنى سعد بن أبى وقاص داره بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرفات . وبنى المقداد داره

بالمدينة وجعلها مجصصة الظاهر والباطن . وخلف يعلى بن منية خمسين ألف دينار وغير ذلك مما قيمته ثلاثمائة ألف درهم . اه كلام المسعودى فاستحالت الاحوال فى زمان عثمان كما ترى ، ولما رأى ذلك بعض الناس ممن لم يكن له رسوخ فى الفقه والدين ولا هو من أهل السابقة من فضلاء الصحابة والمسلمين ، صاروا ينقمون على عثمان بأنه أهمل أمر الرعية وخالف سيرة العمرين مع ما انضاف الى ذلك من تولية أقاربه ، وحاشاه من ذلك رضى الله عنه فان الرجل كان مجتهدا ــ وهو أهل للاجتهاد ــ وما تخيلوه من اهماله أمر الرعية حتى استحال أمرها الى ما ذكر تخيل باطل ، اذ ليس ذلك فى طوقه ولا بسببه ، وانما طبيعة العمران البشرى تقتضى ذلك بسبب ما فتح على المسلمين من الاقاليم والممالك والاقطار والنواحى والامصار وترادف الجبايات الفائقة الحصر وانثيال كنوز كسرى وقيصر وغيرهم من ملوك الارض عليهم ، فأنى يبقى الامر على حاله مع هذا الفتح العجيب والنصر الغريب ، وقد قيل دوام الحال من المحال والناس ليسوا على قدم واحد فى الزهد فى الدنيا ، فالحق الذى لاعوج فيه ولا أمت أن عثمان رضى الله عنه كان على الحق حتى لقى ربه ، وما يعتدون به عليه من مخالفة الشيخين رضى الله عنهما ــ ان صح ــ فمحله الاجتهاد كما قلنا ، ومعلوم أن أحكام الشرع تدور مع المصالح والمفاسد وتختلف باختلاف الازمان والاحوال كما لا يخفى على من له أدنى مسيس بالفقه .

قال ابن خلدون : اختلاف الصحابة والتابعين انما يقع فى الامور الدينية، وينشأ عن الاجتهاد فى الادلة الصحيحة والمدارك المعتبرة والمجتهدون اذا اختلفوا، فان قلنا : ان الحق فى المسائل الاجتهادية فى واحد من الطرفين ومن لم يصادفه فهو مخطىء ، فان جهته لا تتعين باجماع فيبقى الكل على احتمال الاصابة ، والتأثيم مدفوع عن الكل اجماعا ؛ وان قلنا ان الكل حق وان كل مجتهد مصيب ، فأحرى بنفى الخطأ والتأثيم . ثم استمر اولئك الناقمون على عثمان رضى الله عنه وتمادوا فى طعنهم وتشغيبهم حتى تفاقم الامر وشرى الداء ، واعوز الدواء ، واختلط المرعى بالهمل .

وكان ما كان مما لست أذكره　　فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

وآخر الامر أنه لما كانت سنة خمس وثلاثين قدم من مصر جمع قيل ألف ، وقيل سبعمائة ، وقدم من الكوفة جمع آخر ومن البصرة كذلك وحاصروا عثمان رضى الله عنه فى داره ، وكانت خطوب ، وقطعوا عنه الماء واستمر الحصار نحو أربعين يوما ، ثم تسور عليه جماعة من أهل مصر داره فقتلوه وسال دمه على المصحف . يقال ان الذى تولى قتله كنانة بن بشر التجيبى ؛ وطعنه عمرو بن الحمق طعنات وجاء عمير بن ضابىء البرجمى ـ وكان أبوه قد مات فى سجن عثمان ـ فوثب عليه حتى كسر ضلعا من أضلاعه . وكان قتله لثمان عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين وكانت مدة خلافته اثنتى عشرة سنة الا اثنى عشر يوما ، وقيل : انه قتل صبيحة عيد الاضحى من السنة المذكورة وهو الذى عند ابن الخطيب فى رقم الحلل ؛ وابن بدرون فى شرح العبدونية ؛ ويؤيده قول حسان بن ثابت يرثيه :

ضحوا باشمط عنوان السجود به　　يقطع الليل تسبيحا وقرآنا

لتسمعن وشيكا فى ديارهم　　الله أكبر ، ياثارات عثمانا

وقول الفرزدق بعده :

عثمان اذ قتلوه وانتهكوا　　دمه صبيحة ليلة النحر

رحمه الله تعالى ورضى عنه ونفعنا به .



خلافة أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه

هو أبو الحسن على بن أبى طالب ـ واسمه عبد مناف ـ بن عبد المطلب جد النبى صلى الله عليه وسلم ـ واسمه شيبة ـ وفيه يجتمع مع النبى صلى الله عليه وسلم ، بويع بعد مقتل عثمان رضى الله عنه باتفاق من يعتبر أهل الحل والعقد بعد امتناعه من ذلك

قال ابن خلدون : لما قتل عثمان اجتمع طلحة والزبير والمهاجرون والانصار وأتوا عليا يبايعونه فأبى وقال : أكون وزيرا لكم خير من أن أكون أميرا ، ومن اخترتم رضيته فألحوا عليه وقالوا : لا نعلم أحق منك ولا نختار غيرك حتى غلبوه فى ذلك فخرج الى المسجد وبايعوه ، وأول من بايعه طلحة ثم الزبير بعد أن خيرهما ، ويقال : انهما ادعيا الاكراه بعد ذلك بأربعة أشهر وتخلف عن بيعة على رضى الله عنه ناس من الصحابة وغيرهم فلم يبغضهم وقال : أولئك قوم قعدوا عن الحق ولم يقوموا مع الباطل ! ولما ولى الخلافة رضى الله عنه أحيى السنة وأمات البدعة وأوضح منار الحق وأخمد نار الباطل ولم تأخذه فى الله لومة لائم .

ولما دخلت سنة ست وثلاثين فرق عماله على النواحى فبعث الى الكوفة عمارة بن شهاب وكان من المهاجرين وولى على البصرة عثمان بن حنيف الانصارى وعلى اليمن عبيد الله بن عباس ـ وكان من الاجواد ـ وعلى مصر قيس بن سعد بن عبادة الانصارى وكان من أهل الجود والشجاعة والرأى وعلى الشام سهل بن حنيف الانصارى ، فلما وصل سهل الى تبوك لقيته خيل فقالوا من أنت ؟ قال : أمير على الشام فقالوا : ان كان بعثك غير عثمان فارجع . فرجع الى على . ومضى قيس بن سعد الى مصر فوليها واعتزلت عنه فرقة كانوا عثمانية وأبوا أن يدخلوا فى طاعة على حتى يقتل قتلة عثمان . ومضى عثمان بن حنيف الى البصرة فدخلها واتبعته فرقة وخالفته أخرى . ومضى عمارة بن شهاب الى الكوفة فلقيه طلحة بن خويلد الاسدى الذى

كان ادعى النبوة زمان الردة فقال له : ان أهل الكوفة لا يستبدلون بأميرهم أحدا - وكان عليها أبو موسى الاشعرى من قبل عثمان رحمه الله تعالى - فرجع عمارة الى على ومضى عبيد الله بن عباس الى اليمن فوليها وكان العامل بها من قبل عثمان يعلى بن منية ، فأخذ ما كان بها من المال ولحق بمكة ومعه ستمائة بعير وصار مع عائشة رضى الله عنها وذلك ان عائشة كانت خرجت الى مكة زمان حصار عثمان فقضت نسكها وانقلبت تريد المدينة فلقيها الخبر بمقتل عثمان فأعظمت ذلك ودعت الى الطلب بدمه ، ولحق بها طلحة والزبير وعبد الله بن عامر ، وجماعة من بنى أمية ، واتفق رأيهم على المضى الى البصرة للاستيلاء عليها . وكان عبد الله بن عمر قد قدم مكة من المدينة فدعوه الى المسير معهم فأبى . وأعطى يعلى بن منية عائشة الجمل المسمى بعسكر وكان اشتراه بمائة دينار فركبته وساروا ، فمروا فى طريقهم بماء يقال له : الحوأب فنبحتهم كلابه فقالت عائشة : أى ماء هذا؟ فقيل ماء الحوأب فصرخت بأعلى صوتها وقالت : انا لله وانا اليه راجعون ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وعنده نساؤه : ليت شعرى أيتكن تنبحها كلاب الحوأب ، ثم ضربت عضد الجمل فأناخته وقالت : ردونى ، أنا والله صاحبة ماء الحوأب ، وقامت بهم يوما وليلة الى أن قيل : النجاء فقد ادرككم على بن أبى طالب ، وغلبوها على رأيها فارتحلوا نحو البصرة فاستولوا عليها بعد قتال مع أميرها عثمان بن حنيف . ولما بلغ عليا رضى الله عنه مسير عائشة وطلحة والزبير الى البصرة سار نحوهم فى أربعة آلاف من أهل المدينة فيهم أربعمائة ممن بايع تحت الشجرة وثمانمائة من الانصار . وكانت رايته مع ابنه محمد بن الحنفية ، وعلى ميمنته الحسن ، وعلى ميسرته الحسين ، وعلى الخيل عمار بن ياسر ، وعلى الرجالة محمد بن أبى بكر الصديق وعلى مقدمته عبد الله بن العباس . وكان مسيره فى ربيع الآخر سنة ست وثلاثين .

ولما وصل على الى ذى قار لقيه أمير البصرة عثمان بن حنيف ، وأخبره الخبر . فقال على : ان الناس وليهم قبلى رجلان فعملا بالكتاب والسنة ثم

وليهم ثالث فقالوا فى حقه وفعلوا ثم بايعونى وبايعنى طلحة والزبير ثم نكثا . ومن العجب انقيادهما لابى بكر وعمر وعثمان وخلافهما على ، والله انهما ليعلمان انى لست بدون رجل ممن تقدم . ثم سار على يؤم البصرة فيمن معه من أهل المدينة وأهل الكوفة ، وانضم الى عائشة وطلحة والزبير جمع آخر . والتقوا بمكان يقال له : الخريبة عند موضع قصر عبيد الله بن زياد يوم الخميس النصف من جمادى الآخرة من السنة المذكورة . ولما تراءى الجمعان خرج طلحة والزبير ، وجاءهم على حتى اختلفت أعناق دوابهم فقال على : لقد أعددتما سلاحا وخيلا ورجالا ان كنتما أعددتما عند الله عذرا . ألم أكن أخاكما فى دينكما تحرمان دمى وأحرم دمكما ؟ فهل من حدث أحل لكما دمى ؟ قال طلحة : ألبت على عثمان قال على : (يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق) . فلعن الله قتلة عثمان . ياطلحة أما بايعتنى؟ قال والسيف على عنقى . ثم قال للزبير : أتذكر يوم قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم لتقاتلنه وأنت له ظالم ؟ قال : اللهم نعم ولو ذكرت ذلك قبل مسيرى ما سرت ووالله لا أقاتلنك أبدا . وافترقوا . وكان على رضى الله عنه قد بعث اليهم قبل اللقاء القعقاع بن عمرو التميمى وأمره أن يشير بالصلح ما استطاع . فقدم القعقاع على عائشة أولا وقال : أى أماه ما أشخصك ؟ قالت : أريد الاصلاح بين الناس قال : فابعثى الى طلحة والزبير فاسمعى منى ومنهما فبعثت اليهما فجاءا فقال لهما القعقاع انى سألت أم المؤمنين ما أقدمها فقالت الاصلاح فقال طلحة والزبير كذلك هو . قال القعقاع : فأخبرانى ما هو ؟ قالا : قتلة عثمان فان تركهم ترك للقرآن . قال : فقد قتلتم منهم عددا من أهل البصرة ـ يعنى حين قتلوا أميرها عثمان ابن حنيف ـ قال : وغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وطلبتم حرقوص بن زهير فمنعه ستة آلاف . فان قاتلتم هؤلاء كلهم اجتمع ربيعة ومضر على حربكم فأين الاصلاح ؟ قالت عائشة : فما ذا تقول أنت ؟ قال : هذا الامر دواؤه التسكين ، فاذا سكن الامر اختلجوا : أى أخذوا على غرة . فقالوا قد أصبت وأحسنت ! فارجع الى على فان كان على مثل رأيك صلح الامر .

فرجع القعقاع الى على فأعجبه وأشرف القوم على الصلح . وعلم بذلك جماعة ممن كان سعى فى قتل عثمان أو رضى به . فقالوا : ان يصطلح هؤلاء فعلى دمائنا يصطلحون ، ثم تعاقدوا على أنهم اذا التقوا بجيش عائشة وطلحة والزبير انشبوا القتال حتى يشتغل الناس عما عزموا عليه من الصلح ، فكان كذلك ، فانه لما كانت صبيحة الليلة التى اجتمع فيها على بطلحة والزبير غلس أولئك المتعاهدون على انشاب الحرب ـ وما يشعر بهم أحد ـ وصمدت منهم مضر الى مضر وربيعة الى ربيعة واليمن الى اليمن فوضعوا فيهم السلاح على حين غفلة فثار الناس وتسابقوا الى خيولهم وزحف البعض الى البعض واشتبكت الحرب ، فكانت الوقعة العظمى المعروفة بوقعة الجمل يـــوم الخميس لعشر بقين من الشهر المذكور أعنى جمادى الاخيرة سنة ست وثلاثـــين ، وقتل طلحة فى المعركة ، والزبير وهو راجع الى المدينة ، وعقر الجمل الذى كانت عليه عائشة . وأمر على رضى الله عنه بنقـــل هودجها الى دار عبد الله بن خلف الخزاعى ، ونادى منادى على يوم الجمل وكذا يوم صفين الآتى : أن لاتتبعوا مدبرا ولا تجهزوا على جريح ولا تدخلوا الدور . ثم صلى على القتلى من الجانبين ، وأمر بالاطراف فدفنت فى قبر عظيم ، وجمع مـــا كان فى العسكر من الاثاث وبعث به الى مسجد البصرة وقال : مـــن عرف شيئا فليأخذه الا سلاحا عليه ميسم السلطان . وأحصى القتلى مـــن الجانبين فكانوا عشرة آلاف ـ منهم من ضبة ألف رجل ـ وبلغ عليا أن بعض الغوغاء عرض لعائشة رضى الله عنها بالقول السىء فأحضر البعض منهـــم وأوجعهم ضربا ، ثم جهزها الى المدينة بما احتاجت اليه وبعث معها أخاهـــا محمد بن أبى بكر فى أربعين امرأة من نساء البصرة اختارهن لمرافقتها، وجاء يوم ارتحالها فودعها واستعتب لها واستعتبت له ومشى معها أميالا وشيعها بنوه مسافة يـــوم . وذلك غرة رجب . فذهبت الى مكة وأقامت بها حتى حجت تلك السنة ثـــم رجعت الى المدينة . واستعمل على رضى الله عنه عـــلى البصرة عبد الله بن عباس وسار الى الكوفة فنزل بها وانتظم له الامر بالعراق ومصر واليمن والحرمين وفارس وخراسان ولم يبق خارجا عن طاعته الا أهل الشام وأميرهم معاوية

ابن أبى سفيان ، فبعث اليه على رضى الله عنه جرير بـــن عبد الله البجلى يامره بالدخول فيما دخل فيــه المهاجرون والانصار ، فلما قـــدم جرير على معاوية ماطله حتى قدم عليه عمرو بن العاص من فلسطين فاستشاره فأشـار عليه بترك البيعة والطلب بدم عثمان وأن يقاتل معـه على أنـه اذا ظفر ولاه مصر . فأجابه معاوية الى ذلك . ورجع جرير الى على رضى الله عنه بالخبر. فسار على من الكوفة قاصدا معاوية ومن معه بالشام ، وقدم عليه عبد الله بن عباس ومن معه من أهل البصرة فقال على رضى الله عنه :

لاصبحن العاص وابن العاص   سبعين ألفـــا عاقدى النواصى
مجنبـــين الخيـــل بالقلاص   مستحقبـــين حلـــق الدلاص

وسار معاوية ومعه عمرو بن العاص وأهـل الشام مـــن دمشق يريد عليا وتأنى معاوية فى مسيره .



حرب صفين

وخرجت سنة ست وثلاثين ودخلت سنة سبع بعدها فاجتمع الجيشان بصفين وتراسوا وتداعوا الى الصلح فلم يقض الله بذلك ، وكانت حرب يسيرة بالنسبة لما بعدها ولما دخل صفر وقع بينهما القتال فكانت وقعات كثيرة بصفين يقال : انها تسعون وقعة وكانت مدة مقامهم على الحرب مائة يوم وعشرة أيام ، وعدد القتلى بصفين من أهل الشام خمسة وأربعون ألفا ومن أهل العراق خمسة وعشرون ألفا ، منهم ستة وعشرون من أهل بدر . وكان على رضى الله عنه قد تقدم الى أصحابه أن لا يقاتلوهم حتى يبدأوهم بالقتال ، وأن لا يقتلوا مدبرا ولا يكشفوا عورة ولا يأخذوا من أموالهم شيئا . وقاتل عمار بن ياسر رضى الله عنه مع على قتالا عظيما وكان عمره قد نيف على تسعين سنة وكانت الحربة فى يده ويده ترتعد فقال : هذه راية قاتلت بها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات وهذه الرابعة ، ودعا بقدح من لبن فشرب منه ثم قال : صدق الله ورسوله اليوم ألقى الاحبة : محمدا وحزبه . قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان آخر رزقى من الدنيا ضيحة لبن . وروى أنه كان يرتجز (١) :

نحن قتلناكم على تأويله   كما قتلناكم على تنزيله
ضربا يزيل الهام عن مقيله   ويذهل الخليل عن خليله

ولم يزل عمار يقاتل ذلك اليوم حتى استشهد رضى الله عنه .

وفى الصحيح المتفق عليه : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ويح عمار تقتله الفئة الباغية ، وبعد قتل عمار رضى الله عنه انتخب على اثنى عشر ألفا ــ بعد أن روى لهم حديث عمار ــ وحمل بهم على عسكر معاوية

---

(١) يعنى متمثلا لان البيتين رويا لعبد الله بن رواحة رضى الله عنه .

فلم يبق لاهل الشام صف الا انتقض ثم نادى يامعاوية على م نقتـــل الناس بيننا ؟ هلم أحاكمك الى الله فأينا قتل صاحبه استقام له الامر ! فقال له عمرو ابن العاص : أنصفك . فقال معاوية : لكنك ما أنصفت ، ثم تقاتلوا ليلة الهرير شبهت بليلة القادسية ـ وكانت ليلة الجمعة ـ واستمر القتـال الى الصباح ، وكان على يسير بين الصفوف ويحرض كـــل كتيبة على التقدم حتى أصبح والمعركة كلها خلف ظهره . (وروى) أنه كبر تلك الليلة سبعمائة تكبيرة وكانت عادته : أنه كلما قتل قتيلا كبر ودام القتال الى ضحى يوم الجمعة ، وقاتل الاشتر النخعى قتالا عظيما حتى انتهى الى معسكرهم . وقتـــل صاحب رايتهم ، وأمده على بالرجال . فلما رأى عمرو شدة الامر قال لمعاوية : مر الناس يرفعون المصاحف على الرماح ويقولون : كتاب الله بيننا وبينكم ، فان قبلوا ذلك ارتفع عنا القتال وان أبى بعضهم وجدنا فى افتراقهم راحة ، ففعلوا ذلك . فقال الناس : نجيب الى كتب الله ، فقال على : «ياعباد الله امضوا على حقكم فى قتال عدوكم فان عمرا ومعاوية وابن أبـــى معيط وابن أبى سرح والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، وأنـا أعرف بهم منكم ، ويحكم والله ما رفعوها الا خديعة ومكيدة» فقالـــوا : لا يسعنا أن ندعى الى كتاب الله فلا نقبل . فقـال على : « انـما قاتلناهـم ليدينوا بكتاب الله فانهم نبذوه» فقال جماعة من القراء الذين صاروا خوارج : ياعلى أجب الى كتاب الله والا دفعناك برمتك الى القوم أو فعلنا بك ما فعلنا بابن عفان . فقال على رضى الله عنه : «ان تطيعونى فقاتلـــوا وان تعصونى فافعلوا ما بدا لكم» وآخر الامر انهم اتفقوا على أن يحكموا رجلين من الجانبين وما حكما به عليهم صاروا اليه . فاختار أهل الشام عمـرو بن العاص داهيـة العـرب واختار أهل العراق أبا موسى الاشعرى بعد مراجعات وقعت بين على وبينهم واجتمع الحكمـان عند عـلى لتكتب القضيـة بحضـوره ، فكتبوا : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين عـلى بن أبى طالب فقال عمرو بن العاص انما هو أميركم وليس هو بأميرنا . فقال الاحنف : لا تمحوا اسم أمير المومنين . وقال الاشعث : امحها . فقال على : الله أكبر

سنة بسنة ! والله انى لكاتب القضية يوم الحديبية ، فكتبت محمدا رسول الله فقالت قريش : لست برسول الله ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، فأمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمحوه فقلت : لا أستطيع قال : فأرنيه ، فأريته اياه فمحاه بيده ، فقال لى : انك ستدعى الى مثلها فتجيب ! ثم كتب الكتاب : هذا ما تقاضى عليه على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان قاضى على على أهل الكوفة ومن معهم ؛ وقاضى معاوية على أهل الشام ومن معهم انا ننزل عند حكم الله وكتابه وأن لايجمع بيننا غيره وان كتاب الله بيننا من فاتحته الى خاتمته نحيي ما أحيى ونميت ما أمات ، فما وجد الحكمان فى كتاب الله وهما : أبو موسى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عملا به ؛ ومالم يجدا فى كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة . وأخذ الحكمان من على ومعاوية ومن الجندين العهود والمواثيق انهما آمنان على أنفسهما وأهلهما والامة لهما أنصار على الذى يتقاضيان عليه ، وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الامة ولا يورداها فى حرب ولا فرقة ، وأجلا القضاء الى رمضان من السنة ، وان أحبا أن يؤخرا ذلك أخراه ، وان مكان قضيتهما مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام . وشهد رجال من أهل العراق ورجال من أهل الشام ، ووضعوا خطوطهم فى الصحيفة ودعى الاشتر النخعى ليشهد فقال : لا صحبتنى يمينى ولا نفعتنى بعدها شمالى ان وضع لى فيها اسم . وكتب الكتاب فى يوم الاربعاء لثلاث عشرة ليلة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين وعينوا موضع الحكم بدومة الجندل فوقع الاجتماع للاجل المذكور .

وحاصل ما كان من ذلك أن الحكمين اتفقا على خلع على ومعاوية ويكون الامر شورى بين الناس حتى يختاروا من يقدمونه للامر . وقدم عمرو بن العاص أبا موسى على نفسه فى الكلام فتكلم أبو موسى على رؤوس الناس بما اتفقا عليه من خلع على ومعاوية حتى ينظر الناس لانفسهم . فلما سكت أبو موسى قام عمرو فقال : « أيها الناس ان هذا قد خلع صاحبه وقد خلعته كما خلعه ، واثبت معاوية فهو ولى ابن عفان وأحق الناس بمقامه . » فكذبه

أبو موسى وتنازعا وتشاتما ومرج أمر الناس ولم يحصلوا على طائل . وانسل أبو موسى الاشعرى الى مكة فأقام بها ولم يرجع الى على حياء منه . ومضى عمرو بن العاص فى أهل الشام فسلموا على معاوية بالخلافة ولام على أصحابه فيما كان منهم من عصيانه أولا وانخداعهم لاهل الشام آخرا وقال فيما قال « كأنى واياكم كما قال أخو جشم (١) :

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوا فلم يستبينوا الرشد الا ضحى الغد»

وقال : «ان هذين الحكمين اللذين اخترتموهما تركا حكم الله وحكما بهوى النفس واختلفا فى حكمهما فلم يرشدهما الله ، فتأهبوا للجهاد واستعدوا للسير » . وأصبح على رضى الله عنه غاديا يريد الشام فى ثمانية وسبعين ألفا.

وكانت الخوارج قد خرجوا عليه واعتزلوه وقالوا : حكمت الرجال فى دين الله ! ولا حكم الا لله ! وبلغه أن الخوارج قد اجتمعوا بالنهروان وتعاهدوا على حرب المسلمين ثم بلغه أن خوارج البصرة لقوا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريبا من النهروان نعرفهم بنفسه فسألوه عن أبى بكر وعمر فأثنى خيرا ، ثم عن عثمان فى أول خلافته وآخرها ، فقال : كان محقا فى الاول والآخر ، فسألوه عن على قبل التحكيم وبعده ، فقال : هو أعلم بالله وأشد توقيا على دينه . فقالوا : انك توالى الرجال على أسمائها ثم ذبحوه وبقروا بطن امرأته . وقتلوا معهما ثلاث نسوة من طىء ، ومن عجيب أمرهم انهم لقوا مسلما ونصرانيا فقتلوا المسلم وقالوا : احفظوا ذمة نبيكم فى النصرانى ، فسار اليهم على رضى الله عنه وأرسل اليهم ان ادفعوا قتلة اخواننا منكم فنكف عنكم حتى نلقى أهل المغرب (٢) فلعل الله يردكم الى خير ، فأرسلوا اليه كلنا قد قتلهم وكلنا يستحل دماءكم ، فأتاهم على رضى الله عنه فقال : «أيتها العصبة التى أخرجها المراء من الحق الى الباطل ، وأصبحت فى اللبس والخطب العظيم ، انى

---

(١) هو دريد بن الصمة .

(٢)يعنى بذلك أهل الشام .

نذير لكم أن تصبحوا تلقاكم الامة غدا صرعى بأثناء هذا النهر بغير بينة منكم ولا برهان ، ألم تعلموا أنى قد نهيتكم عن الحكومة الى وأخبرتكم أن القوم انما طلبوها خديعة فعصيتمونى وحملتمونى على أن حكمت ، ولما حكمت شرطت وأخذت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات فانقلبا وحكما بغير حكم الكتاب ، فنبذنا أمرهما ونحن على أمرنا الاول ، فما الذى أصابكم ؟ ومن أين أتيتم ؟ » قالوا : «حكمنا وكنا بذلك كافرين وقد تبنا ، فان تبت كما تبنا فنحن قومك ، والا فاعتزلنا ونحن ننابذك على سواء ان الله لا يحب الخائنين» فقال على رضى الله عنه : «صبحكم حاصب ، ولا بقى منكم وافد ، أبعد ايمانى برسول الله صلى الله عليه وسلم وجهادى فى سبيل الله وهجرتى مع رسول الله أشهد على نفسى بالكفر ؟ (قد ضللت اذا وما أنا من المهتدين) . وروى أنه لما كلمهم واحتج عليهم تنادوا : «لا تخاطبوهم ولا تكلموهم ، وتهيأوا للقاء الرب . الرواح الرواح الى الجنة » فخرج على رضى الله عنه فعبأ الناس ميمنة وميسرة ووقف هو القلب فى مضر وجعل على الخيل أبا أيوب الانصارى وعلى أهل المدينة ـ وكانوا سبعمائة ـ قيس بن سعد بن عبادة . وعبأت الخوارج على نحو هذه التعبية ورفع على رضى الله عنه مع أبى أيوب الانصارى راية الامان . فنادى أبو أيوب من أتى هذه الراية ولم يقاتل ولم يستعرض فهو آمن ، ومن انصرف الى الكوفة أو المدائن فهو آمن ، ومن انصرف عن هذه الجماعة فهو آمن ، فاعتزل فروة بن نوفل الاشجعى فى خمسمائة وقال : «أعتزل حتى يتضح لى الامر فى قتال على » فنزل الدسكرة وخرج آخرون الى الكوفة ورجع آخرون الى على رضى الله عنه وكانوا أربعة آلاف فبقى منهم ألف وثمانمائة فحمل عليهم على والناس وزحفوا هم الى على رضى الله عنه ينادون : الرواح الرواح الى الجنة فاستقبلهم الرماة وعطفت عليهم الخيل من المجنبتين ، ونهض اليهم الرجال بالسلاح فهلكوا كلهم فى ساعة واحدة كأنما قيل لهم موتوا فماتوا . وكان جملة من قتل من أصحاب على رضى الله عنه سبعة نفر ؛ فطلب على رضى الله عنه المخدج فى القتلى فلم يوجد ، فقام

رضى الله عنه وعليه أثر الحزن لفقده فانتهى الى قتلى بعضهم فوق بعض فقال : «إفرجوا» ففرجوا يمينا وشمالا فاستخرجوه فقال : « الله أكبر والله ما كذبت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وانه لناقص اليد ما فيها عظم طرفها مثل ثدى المرأة عليها خمس شعرات أو سبع رؤوسها معقفة » ثم قال : « ائتونى به » فنظر الى منكبه فاذا اللحم مجتمع على منكبه كثدى المرأة عليها شعرات سود اذا مدت اللحمة امتدت حتى تحاذى بطن يده الاخرى ثم تترك فتعود الى منكبه فقال أصحاب على رضى الله عنه :ـ«قد قطع الله دابرهم آخر الدهر» فقال على : «والذى نفسى بيده انهم لفى أصلاب الرجال وأرحام النساء لاتخرج خارجة الا خرجت بعدها مثلها حتى تخرج خارجة بين الفرات ودجلة يقال لهم الشمط فيخرج اليهم رجل منا أهل البيت فيقتلهم فلا تخرج لهم بعدها خارجة الى يوم القيامة»

وفى الصحيح عن سويد بن غفلة قال : قال على رضى الله عنه : «اذا حدثتكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا فوالله لأن أخر من السماء أحب الى من أن أكذب عليه واذا حدثتكم فيما بينى وبينكم فان الحرب خدعة وانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول سيخرج قوم فى آخر الزمان أحداث الاسنان سفهاء الاحلام يقولون من خير قول البرية لايجاوز ايمانهم حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فان فى قتلهم أجرا لمن قتلهم»

ثم ان عليا رضى الله عنه ندب أصحابه الى غزو الشام فتثاقلوا عليه ولما وصلوا الى الكوفة تسللوا الى بيوتهم وتركوا المعسكر خاليا . ولما رأى على ذلك دخل الكوفة ثم ندبهم ثانيا فلم ينفروا ثم ثالثا فلم ينشط منهم الا القليل ، فخطبهم وأغلظ فى عتابهم وأعلمهم بما له عليهم من الطاعة فى الحق والنصح فتثاقلوا وسكتوا واستمر الحال الى أن استأثر به ربه وأراحه من شغبهم وقبضه اليه ونقله الى كرامته وجنته ، سابق مضمار الايمان والهجرة والنصرة والنجدة والصهر والقربى والقناعة والجهاد والعلم والزهد رضى الله عنه .

وكان من خبر وفاته ان ثلاثة من الخوارج ممن نجا من وقعة النهروان وهم عبد الرحمن بن ملجم المرادى وعمرو بن بكر التميمى السعدى والحجاج بن عبد الله التميمى الصريمى - ويلقب بالبرك - اجتمعوا بمكة فذكروا اخوانهم الذين قتلوا بالنهروان وقالوا : ما نصنع بالبقاء بعدهم فلو شرينا أنفسنا وقتلنا أئمة الضلال وأرحنا منهم الناس فقال ابن ملجم - وكان من مصر - «أنا أكفيكم عليا» وقال البرك : «أنا أكفيكم معاوية» وقال عمرو ابن بكر : «أنا أكفيكم عمرو بن العاص» وتعاهدوا أن لا يرجع أحد منهم عن صاحبه حتى يقتله أو يموت دونه وتواعدوا لسبع عشرة ليلة تمضى من رمضان من هذه السنة - أعنى سنة أربعين - وانطلقوا فلقى ابن ملجم أصحابه بالكوفة فطوى خبره عنهم الا أنه جاء الى شبيب بن شجرة الاشجعى ودعاه الى الموافقة على شأنه فقال شبيب : ثكلتك أمك فكيف تقدر على قتله ؟ فقال أكمن له فى المسجد عند صلاة الغداة فان قتلناه والا فهى الشهادة ! قال ويحك لا أجدنى أنشرح لقتله مع سابقته وفضله ، قال ألم يقتل العباد الصالحين أصحاب النهروان ؟ قال : بلى قال : فنقتله بمن قتله منهم فأجابه ثم لقى امرأة من تيم الرباب فائقة الجمال اسمها قطام قتل أبوها وأخوها يوم النهروان فخطبها ابن ملجم فشرطت عليه ثلاثة آلاف درهم وعبدا وقنية وأن يقتل عليا وقالت : «فان قتلته شفيت النفوس والا فهى الشهادة» قال : «والله ما جئت الا لذلك ولك ما سألت» وفى ذلك قيل :

ثلاثة آلاف وعبد وقنية * وضرب على بالحسام المسمم

فلا مهر أغلى من على وان غلا * ولا فتك الا دون ابن ملجم

ثم قالت :سأبعث معك من يشد ظهرك ويساعدك ، وبعثت معه رجلا من قومها اسمه وردان .

فلما كانت الليلة التى واعد ابن ملجم أصحابه فيها - وكانت ليلة الجمعة - جاء الى المسجد ومعه شبيب ووردان . وجلسوا قبالة السدة التى يخرج منها على للصلاة ، فلما خرج ونادى للصلاة علاه شبيب بالسيف فوقع فى عضادة الباب ، وضربه ابن ملجم على مقدم رأسه وقال : الحكم لله يا على

لا لك ولا لاصحابك ، وهرب وردان الى منزلـــه ، وهرب شبيب مغلسا ، ونجا فى غمار الناس ، وقبض على ابن ملجم فجىء به مكتوفا الى على ـ وقد حمل الى بيته ـ فقال : أى عدو الله ما حملك على هذا ؟ ثم قال ان هلكت فاقتلوه كما قتلنى ، وان بقيت رأيت فيه رأيى . يابنى عبد المطلب لا تحرضوا على دماء المسلمين وتقولوا قتل أمير المؤمنين : لا تقتلـــوا الا قاتلى ، ياحسن ان أنا مت من ضربتى هذه فاضربه بسيفه ، ولا تمثلن بالرجل فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اياكـــم المثلة . وقال له جندب بن عبد الله : أنبايع الحسن ان فقدناك ؟ فقال : ما آمركم بــه ولا أنهاكم عنه أنتم أبصر . ولما حضرته الوفاة كتب وصيته العامة ثم لم ينطق الا بلااله الا الله حتى قبض رضى الله عنه .

ولما قبض أخرج عبد الرحمن بن ملجم من السجن فقطع عبد الله بن جعفر يده ثم رجله ثم لسانه وكحلت عيناه بمسمار محمى وأحرق لعنه الله. وأما البرك فوثب على معاوية تلك الليلة وضربه بالسيـــف فوقع فى اليته وأخذ البرك فقال لمعاوية : عندى بشرى أتنفعنى ان أنـا أخبرتك بها ؟ قال نعم قال ان أخا لى قتل عليا هذه الليلة فقال معاوية لعله لم يقدر عليه فقال بلى ان عليا ليس معه من يحرسه فقتله معاوية وقيل قطع يده ورجله وأقـام الى أيام زياد فقتله بالبصرة وأما عمرو بن بكـــر التميمى فانه جلس تلك الليلة لعمرو بن العاص فلم يخرج عمرو الى الصلاة لمرض أصابـه واستناب خارجة بن حذافة العدوى فى الصلاة فشد عليه عمرو بن بكر وهو يظن أنه عمرو بن العاص فقتله فلما أخذوه وادخلوه على عمرو قال فمن قتلت اذا ؟ قالوا قتلت خارجة بن حذافة فقال «أردت عمرا وأراد الله خارجة» فأرسلها مثلا وأمر به عمرو فقتل ويرحم الله ابن عبدون اذ يقول :

وليتها اذ فدت عمـــرا بخارجة * فدت عليا بمـــا شاءت من البشر

وكانت وفاة على رضى الله عنه صبيحة الجمعة لسبع عشرة ليلـــة خلت من رمضان سنة أربعين كما ذكرنا . وكانت مدة خلافته خمس سنـــين الا ثلاثة أشهر . واختلف فى موضع قبره فقيل دفن ممـــا يلى قبلـة المسجد

بالكوفة وقيل عند قصر الامارة بها وقيل نقلـه ابنه الحسن الى المدينة ودفنه بالبقيع عند زوجه فاطمة رضى الله عنها .

قال أبو الفداء والاصح وهو الذى ارتضاه ابن الاثير وغيره ان قبره هو المشهور بالنجف وهو الذى يزار اليوم .

وفضائل على رضى الله عنه ومناقبه فى العدل وحسن السيرة أجـل من أن يحاط بها ، من ذلك مشاهده المشهورة بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومؤاخاته له وسبق اسلامه وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم من كنت مولاه فعلى مولاه وقولـه عليه الصلاة والسلام يوم خيبر لابعثن الراية غدا مع رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسولــه وقـوله عليه الصلاة والسلام له أما ترضى أن تكو نمنى بمنزلة هرون مـن موسى وقال صلى الله عليه وسلم «أقضاكم على» والقضاء يستدعى معرفة أبـواب الفقه كلها بخلاف قواه عليه السلام أفرضكم زيد وأقرأكم أبى . ولم يضع رضى الله عنه لبنة على لبنة حتى لقى الله وكان يقسم ما فى بيت المال كل جمعة حتى لا يترك فيه شيئا . ودخل مرة بيت المال فوجد الذهب والفضة فقال : « ياصفراء اصفرى ويابيضاء ابيضى وغرى غيرى لا حاجة لى فيك» (وروى) ابـــن عبد البر فى الاستيعاب بسنده الى مجمع التميمى أن عليا رضى الله عنه قسم ما فى بيت المال بين المسلمين ثم أمر به فكنس ثم صلى فيـه رجاء أن يشهد له يوم القيامة (وروى) أيضا بسنده عن عاصم بن كليب عن أبـيه قال قدم على على مال من اصبهان فقسمه سبعة أسباع ووجد فيه رغيفا نقسمه سبع كسر وجعل على كل جزء كسرة ثم أقرع بينهم أيهم يعطى أولا . قال ابـن عبد البر : وأخباره رضى الله عنه فى مثل هذا من سيرته لا يحيط بهــا كتاب ويرحم الله من قال :

أحسن من عود ومن ضارب ... ومن فتــاة ناهــد كاعب
ومن مدام فـــى قواريرهـا ... يسعى بهـا ساق الى شارب
ومن جياد الخيل فـى مهمه ... وضارب يسطـــو على ضارب
أحسن مـن ذاك وهذا وذا ... حب علـى بـــن أبى طالب

لو فتشوا قلبى لالفوا بـــه سطرين قد خطا بـــلا كاتب
العلـم والتوحيد فـــى جانب وحب آل البيت فـــى جانب
ان كنت فيمـــا قلته كـاذبا فلعنـــة الله عـــلى الكـاذب

ولما توفى على رضى الله عنه بايع الناس ابنـه الحسن رضى الله عنه ، وأول من بايعه قيس بن سعد بن عبادة قال له : ابسط يدك على كتاب الله وسنة رسوله وقتـال الملحدين ، فقال الحسن : على كتاب الله وسنـة رسوله ويأتيان على كل شرط . ثم بعد ذلك نزل لمعاوية عن الامر فـى خبر طويل نذكر منه ما فى الصحيح . فعن الحسن البصرى رحمه الله قـال : استقبل والله الحسن بن على معاوية بكتائب أمثال الجبال فقـــال عمرو بن العاص : انى لارى كتائب لا تولى حتى تقتل أقرانها ، فقال له معاوية ـ وكان والله خير الرجلين ـ : أى عمرو ان قتل هؤلاء هؤلاء ، وهؤلاء هؤلاء ، فمن لى بأمور الناس ؟ من لى بنسائهم ؟ من لى بضيعتهم ؟ فبعث اليه رجلين مـــن قريش من بنى عبد شمس : عبد الرحمن بن سمرة وعبد الله بن عامر بن كريز فقال اذهبا الى هذا الرجل فاعرضا عليه وقولا له واطلبا اليه ، فأتياه فدخلا عليه فتكلما وقالا له وطلبا اليه ، فقال لهما الحسن بن على رضى الله عنهما : انا بنى عبد المطلب قد اصبنا من هذا المال وان هذه الامـــة قد عاثت فى دمائها قالا : فانه يعرض عليك كذا وكذا ويطلب اليك ويسألك ، قال : فمن لى بهذا ؟ قالا نحن لك به ، فما سألهما شيئا الا قالا : نحن لـك به؛ فصالحه . قال الحسن البصرى رحمه الله «ولقد سمعت أبا بكرة يقـــول : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم عـلى المنبر ـ والحسن بـــن على الى جنبه ـ وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى ويقول : ان ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين .»

وهاهنا فائدتان الاولى : هذه الحروب التى وقعت بين الصحـابة رضى الله عنهم محملها الاجتهاد كما قدمنا والذب عن الدين ، وكـان الناس مـن السذاجة فى الدين والتمسك به على ما عهد منهم ، فكانوا اذا رأوا ما يظنونه

منكرا غيروه ولو باتلاف مهجهم، الا أنهم كان منهم المجتهد المصيب، وهو ذو الاجرين كما فى الحديث ، ومنهم المجتهد المخطىء وهـو ذو الاجر الواحـد كما فى الحديث أيضا . وكان على رضى الله عنه مصيـبا فى جميع أمـره من أوله الى آخره . فعلى العاقل المحتاط لدينه أن يظن بصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الظن الجميل ، ويعمل بوصيته فيهـم اذ قـال عليـه الصلاة والسلام : « الله الله فى أصحابى لا تتخذوهم غرضا بعـدى ، فمن أحبهـم فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم » الحديث . واياى وايـاه أن يجرح من زكاهم الله تعالى بقوله : (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) . وزكاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » اللهم احشرنا فى زمرتهم وأمتنا على سنتهم وطريقتهم يـاأكـرم الاكرمـين ويا أرحم الراحمين ، ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم .

الفائدة الثانية : أطبق السلف على أن ترتيب الخلفاء الاربعة رضى الله عنهم فى الفضل على حسب ترتيبهم فى الخـلافة . وذهب بعـض السلف الى تقديم على على عثمان وممن قال به سفيان الثورى لكن قيل انه رجع عنه . وقالت الشيعة وكثير من المعتزلة الافضل بعد النبى صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب والحق هو القول الاول . وهل التفضيل بين الخلفاء قطعى أو ظنى فالذى مال اليه الاشعرى هو الاول ، والذى مال اليه القاضى أبو بكر الباقلانى واختاره امام الحرمين فى الارشاد هو الثانى ، وعبارته : «لم يقم عندنا دليل قاطع على تفضيل بعض الائمة على بعض ، اذ العقل لا يدل على ذلك ، والاخبار الواردة فى فضائلهم متعارضة ، ولكن الغالب على الظن ان أبا بكر أفضـل الخلائق بعد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم عمر أفضلهم بعده ، وتتعارض الظنون فى عثمان وعلى .»

وهاهنا انتهى بنا القول فيما قصدناه من التبرك بذكر رسول الله صـلى

الله عليه وسلم وذكر خلفائه الاربعة رضى الله عنهم ، ولنرجع الى مـا نحن بصدده من ذكر أخبار المغرب الاقصى مقدمين القول أولا فـى نسب البربر وبيان حالهم قبـل الاسلام وبعده على الجملـة ، لنتخلص بعـده للمقصود ، والله تعالى يعصمنا من الزلل بمنه وكرمه .



القول فى نسب البربر وبيان أصلهم

اعلم أن الناس اختلفوا فى تحقيق نسب البربر والى أى أصل من أصول الخليقة يرجعون ، فذكر صاحب كتاب الجمان فى أخبار الزمان ونقله عن أهل العلم بالسير أن بنى حام تنازعوا مع بنى سام فانهزم بنو حام أمامهم الى المغرب وتناسلوا به ، واتصلت شعوبهم من أرض مصر الى آخر المغرب الى تخوم السودان ، وكان بسواحل المغرب الافارقة والافرنج فكانت ذرية حام فى المداشر والخيام ، والاعاجم الاول فى البلدان . وبقى أكثر أولاد حام فى بلاد فلسطين من أرض الشام الى زمن داود عليه الصلاة والسلام . وكان ملكهم يسمى جالوت فلما قتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء أمر باجلائهم من بلاد كنعان وفلسطين الى أرض المغرب : فساروا نحو افريقية والزاب وانتشروا هنالك حتى ضاقت بهم تلك البلاد وامتلأت منهم الجبال والكهوف والرمال وصاروا يتبعون مواقع القطر بالابل وبيوت الشعر ، ولم تقدر الفرنج على ردهم ودفاعهم ، فانحازت الاعاجم للمدن وبقى البربر فيما عدى المدن وهم مع ذلك على أديان مختلفة يدين كل واحد منهم بما شاء من الاديان الفاسدة ، فمنهم من تمجس ومنهم من تهود ومنهم من تنصر ، واستمروا على ذلك الى زمان الاسلام . وكان فيهم رؤساء وملوك وكهان ، ولهم حروب وملاحم عظام مع من قارعهم من الامم .

وقال الطبرى وغيره «ان البربر أخلاط من كنعان والعماليق وغيرهم . فلما قتل داود جالوت تفرقوا فى البلاد»

وقال الكلبى : « اختلف الناس فيمن أخرج البربر من الشام فقيل داود بالوحى قيل : ياداود أخرج البربر من الشام فانهم جذام الارض ، وقيل : يوشع بن نون عليه السلام . وقيل : افريقش الحميرى واختلف فى افريقش

هذا فقال المسعودى هـو افريقش بن أبـرهة ذى المنـار أحد التابـعة المشهـورين» »

وقال ابن حزم : «هو افريقش بن قيس بن صيفى أخو الحرث الرائش منهم ، وهو الذى ذهب بقبائـل العرب الى افـريقية وبـه سميت ، وساق البربر اليها من أرض كنعان : مر بها عند ما غلبهم يوشع بن نون وقتلهـم فاحتمل الفل منهم وساقهم الى افريقية فأنزلهم بها وقتل ملكها جرجير ، ويقال أنه الذى سمى البربر بهذا الاسم لانه لما فتح المغرب وسمع رطانتهم قـال : ما أكثر بربرتهم ! فسموا البربر . والبربرة فى لغة العرب اختلاط أصوات غير مفهومة ومنه بربرة الاسد ، وينسبون اليه فى ذلك شعرا وهو قولـه :

بربرت كنعـان لمـا سقتهـا ... من بلاد الضنك للخصب العجيب

أى أرض سكنوها واتمـد ... فـازت البربـر بالعيش الخصيب

ولما قفل افريقش من غزو المغرب ترك هنالـك حامية من قبائـل حمير صنهاجة وكتامة فهما بها الى الآن وليسوا مـن نسب البربر قالـه الطبـرى والجرجانى والمسعودى وابن الكلبى والسهيلى وجميع النسابين من العرب .

وقال أبو عمر بن عبد البر فى كتاب التمهيد له : «اختلف النـاس فى نسب البربر اختلافا كثيرا ، وأنسب ما قيل فيهم أنهم من ولد قبـط بن حـام وانه لما نزل مصر خرج بنوه يريدون المغرب فسكنوا من آخر عمالة مصر وذلك فيما وراء برقة الى البحر الاخضر مع بحر الاندلس (١) الى منقطع الرمل متصلـين بالسودان . وقيل : ان البربر صنفان البرانس والبتر وان البتر منهم من ولد بر بن قيس بن عيلان بن مضر ، واختلفوا فى توجيه ذلك، فقال الطبرى : خرج بر بن قيس بن عيلان ينشد ضالة له بأحياء البربر فرأى جارية منهم فخطبها من أبيها وتزوجها فولدت له .»

وقال فى كتاب الجمان : وأما تسميتهم بالبربر فانه لما صار ملك مضر لقيس بن عيلان كان لـه ولد اسمه بر فخرج مغاضبا لابيه واخوته الى جهة المغرب فقال الناس : بر بر أى توحش فى البرارى فسموا بربرا . ونقل

(١) البحر الاخضر هو المحيط وبحر الاندلس هو البحر المتوسط

ابن أبى زرع وابن خلدون عن النسابين من البربر وحكاه أيضا البكرى وغيره : أنه كان لمضر بن نزار ولدان الياس وعيلان أمهما الرباب بنت حيدة بن عمرو بن معد بن عدنان فولد عيلان بن مضر ولدين وهما قيس ودهمان ابنا عيلان ، أما دهمان فولده قليل وهم أهل بيت من قيس يقال لهم بنو أمامة ، وأما قيس بن عيلان فولد أربعة بنين وجارية وهم سعد وعمرو وخصفة أمهم مزنة بنت أسد بن ربيعة بن نزار ، ثم بر وأخته تماضر أمهما تمريغ بنت يجدول ابن غمار بن مصمود البربرى اليجدولى .

وكانت قبائل البربر اذذاك يسكنون الشام ويجاورون العرب فى المساكن والاسواق والمساعى ، ويشاركونهم فى المياه والمسارح والمراعى ، ويصاهر بعضهم بعضا ، وكانت البهاء بنت دهمان بن عيلان بن مضر من أجمل نساء زمانها وأكملهن ظرفا وأدبا فكثر خطابها من سائر قبائل العرب فقال بنو عمها ـ وهم عمرو وسعد وخصفة وبر ـ : لا يتزوج ابنة عمنا الا أحدنا ولا تخرج منا الى غيرنا فخيروها فيمن شاءت منهم ، فاختارت برا ـ وكان أصغرهم سنا وأكملهم شبابا ـ فتزوجها دون اخوته فحسدوه عليها وهموا بقتله من أجلها ، وكانت أمه تمريغ من دهاة النساء فبعثت الى أبيها دهمان وأعلمته الخبر وواطأته على الخروج بولدها الى أرض قومها من البربر حيث تأمن عليه ، ثم بعثت الى قومها فأتوها سرا فارتحلت معهم هى وولدها بر وكنتها البهاء بنت دهمان فلحقوا ببلاد البربر ـ وهم يومئذ مستوطنون فلسطين وأكناف الشام ـ فنزل بر على أخواله واعتز بهم ، وبنى بابنة عمه البهاء فولدت له هناك ولدين : علوان ومادغيس ابنى بر بن قيس بن عيلان ، فأما علوان فمات صغيرا ولم يعقب وأما مادغيس فكان يلقب الابتر وهو أبو البتر من البربر واليه يرفعون أنسابهم ، ومن ولده جميع زناتة كما سيأتى ، ويزعمون أن تماضر أخت بر بكته بعد فرقته بشعر تقول فيه :

لتبك كل باكية أخاها   كما أبكى على بر بن قيس
تحمل عن عشيرته تأضحى   ودون لقائه انضاء عنس

ومما ينسب اليها أيضا قولها :

وشطت ببر داره عن بلادنا   وطوح بر نفسه حيث يمما
وأزرت ببر لكنة أعجمية   وما كان بر فى الحجاز بأعجما
كأنا وبرا لم نقف بجيادنا   بنجد، ولم نقسم نهابا ومغنما

وأنشد علماء البربر لعبيدة بن قيس العقيلى :

ألا أيها الساعى لفرقة بيننا * توقف هداك الله سبل الاطايب
فأقسم انا والبرابر اخوة * تناولنا جد كريم المناسب
أبونا أبوهم قيس عيلان فى الذرى * له حومة تشفى غليل المحارب
وبر بن قيس عصبة مضرية * وفى الفرع من أحسابها والذوائب
فنحن وهم ركن منيع واخوة * على رغم أعداء لئام المناقب

فى أبيات غير هذه . وينشد أيضا ليزيد بن خالد يمدح البربر قوله :

أيها السائل عنا أصلنا * قيس عيلان ، بنو الغر الاول
نحن ما نحن ، بنو بر الندى * طارد الازمة ، نحار الابل
قد بنى المجد فأورى زنده * وكفانا كل خطب ذى جلل
ان قيسا يعتزى بر له * ولبر يعتزى قيس الاجل
فلنا الفخر بقيس انه * جدنا الاكبر فكاك الكبل
ان قيسا قيس عيلان هم * معدن الخير ، على الخير دلل
حسبى البربر قومى انهم * ملكوا الارض بأطراف الاسل

فى أبيات أخر .

واعلم أن الخلاف فى نسب البربر طويل وقد تركنا جله اختصارا ، وأشبه هذه الاقوال بالصحة ما نقلناه أولا (١) مما يدل على أن جيل البربر من ولد حام ؛ وانهم جيل قديم قد سكنوا المغرب عندما تناسلت ذرية نوح عليه السلام وانتشرت الخليقة على وجه الارض ، ثم تلاحقت بهم بقية بنى كنعان

---

(١) يعنى أن البرابر جيل قديم سكن أرض افريقية منذ أحقاب طويلة ، وأما كون أرض المغرب اذذاك كانت معمورة السواحل بالفرنج والروم فليس بمحرر .

من الشام عندما أجلاهم يوشع بن نون عليه السلام أولا ثم داود عليه السلام ثانيا .

قال ابن خلدون بعد تزييف القول بأن البربر من ولد جالوت بالخصوص أو من العرب ما نصه : «والحق الذى لا ينبغى التعويل على غيره فى شأنهم أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح عليه السلام وان اسم أبيهم مازيغ اه»

ومما يستملح من النوادر المقولة فى نسب البربر قول خلف بن فرج السميسير من شعراء الاندلس يهجو البربر :

رأيت آدم فى نومى فقلت له : * أبا البرية ان الناس قد حكموا
ان البرابر نسل منك، قال: اذا * حواء طالق ان كان الذى زعموا

وهذا من ملح الشعراء وشيطنتهم ، والا فالبربر جيل معروف من أعظم الاجيال وأعزها ، ولهم الفخر الذى لا يجهل ، والذكر الذى لا يهمل ، وقد تعددت فيهم الدول ، وكثرت فيهم الملوك العظام ، وكان لهم القدم الراسخ فى الاسلام ، واليد البيضاء فى الجهاد . ومنهم الائمة والعلماء والاولياء والشعراء ، وأهل المزايا والفضائل ، وستقف على كثير من ذلك عن قريب ان شاء الله .

القول في تقسيم شعوب البربر على الجملة

اعلم أن أمة البربر أمة عظيمة قد ملأت ما بين برقة والبحر المحيط شرقا وغربا ، وما بين بلاد السودان والبحر الرومى جنوبا وشمالا ؛ ومع عظمها فيجمعها شعبان عظيمان بحيث لا يخرج بربرى عنهما .

قال ابن خلدون : علماء النسب متفقون على أن البربر يجمعهم جدان عظيمان وهما: برنس ومادغيس ويلقب مادغيس بالابتر فلذلك يقال لشعوبه: البتر . ويقال لشعوب برنس : البرانس . وبين النسابين خلاف : هل هما لاب واحد أم لا ؟ فعند ابن حزم أنهما لاب واحد والجميع من نسل كنعان

ابن حام ، وقال سابق بن سليمان المطماطى وغيره من نساب البربر : أن البرانس فقط من نسل كنعان ، وأما البتر فهم بنو بـر بن قيس بن عيلان ابن مضر ، وهذا القول قد تقدم ما فيه ، فالحق ان الشعبين معـا عريقان فى البربرية وأن الجميع من ولد مازيغ ، ومازيغ هو من ولد كنعان بـن حام كمـا مر .

فأما البرانس فتنقسم الى سبع قبائل : أوربة وصنهاجة وكتامة ومصمودة وعجيسة وأوريغة وارداجة ، ويقال : ورداجة بالواو بدل الهمزة ، وزاد سابق المطماطى وغيره ثلاث قبائل أخر وهم : لمطـة وهسكورة وجـزولة فتكون عشرا . فأما أوربة فكان منهم كسيلة بن أغز الاوربى قاتل عقبة بن نافع رضى‌الله عنه زمان الفتح ، ومنهم اسحق بـن محمد بـن عبد الحميد الاوربى القائم بدعوة ادريس بن عبد الله رضى الله عنه . وأما صنهاجة فهم أكبر قبائل البربر حتى زعم كثير من الناس أنهم مقدار الثلث منهم . وكان منهم بنو زيرى بن مناد ملوك افريقية ، والملثمو نملوك مراكش والاندلس. وأما كتامة فهم القائمون بدعوة العبيديين بافريقية ومصر . وأمـا المصامدة فمنهم غمارة ، وكان منهم يليان النصرانى صاحب سبتة وطنجة أيـام دخول عقبة بن نافع للمغرب الاقصى ، وهم القائمون أيضا بدعوة بنـى ادريس فى دولتهم الثانية بعد بنى أبى العافية ، ومن المصامدة أيضـا برغواطة أهل تامسنا وما اتصل بها ، ومنهم أهل جبل درن القائمون بدعوة محمد بن تومرت : مهدى الموحدين .

وأما باقى قبائل البرانس فلم يكن لهم ملك يذكر ، وقد تقدم لنا أن النسابين من العرب يقولون ان صنهاجة وكتامة مـن حمير ، وأن افريقش الحميرى تركهم حامية بافريقية فتناسلوا بها واستحال لسانهم الى البربرية ، لكن المحققون من نساب البربر كسابـق المطماطى وغيره ينكرون ذلـك ويجزمون بانهما قبيلتان عريقتان فى البربر .

وأما البتر وهم بنو مادغيس الابتر فينقسم شعبهم الى أربع قبائل وهم : ضريسة ونفوسة وأداسة وبنو لوى وهـم : لواتة . فأما ضريسة فمنهم

مكناسة ، ومن مكناسة بنو مدرار ملوك سجلماسة ، وبنو أبى العافية ملوك فاس . ومن ضريسة أيضا زناتة كلها ومن زناتة جراوة قوم الكاهنة داهيا صاحبة جبل أوراس التى أوقعت بحسان بن النعمان عامل الخليفة عبد الملك ابن مروان . ومن زناتة أيضا بنو خزر المغراويون ملوك تلمسان والمغرب الاوسط ، ومنهم مغراوة ملوك فاس ، وبنو يفرن ملوك سلا وتادلا ، ومنهم بنو زيان ملوك تلمسان ، وبنو مرين ملوك فاس أيضا ، فهؤلاء كلهم من زناتة. وزناتة هو زانا بن يحيى بن ضرى بن زجيك بن مادغيس الابتر .

وأما نفوسة وأداسة ولواتة فلم يكن لهم ملك يذكر .

واعلم أن كل قبيلة من هذه القبائل الاربع عشرة تشتمل على عمائر وبطون وأفخاذ وفصائل لا حصر لها وفيما ذكرناه كفاية وبالله التوفيق .

الخبر عن حال البربر قبل الاسلام وذكر بعض أمصار المغرب القديمة وما قيل في ذلك

قد تقدم لنا أن البربر أمة قديمة سكنوا أرض المغرب فى قديم الزمان، وأنهم لما عمروا بلاده وملأوا أكنافه انحازت الفرنج عنهم الى السواحل والثغور ، وبقى البربر فيما سوى ذلك من الضواحى والجبال والكهوف ، وهم مع ذلك على أديان مختلفة يدين كل واحد منهم بما شاء من الاديان الفاسدة الى آخر ما مر فهذا كان حالهم على الجملة .

وقال ابن خلدون : لم تزل بلاد المغرب الى طرابلس بل والى الاسكندرية عامرة بهذا الجيل ما بين البحر الرومى وبلاد السودان منذ أزمنة لا يعرف أولها ولا ما قبلها ، وكان دينهم دين المجوسية ـ شأن الاعاجم كلها بالمشرق والمغرب ـ الا فى بعض الاحايين يدينون بدين من غلب عليهم من الامم ، فان الامم أهل الدول العظيمة كانوا يتغلبون عليهم . فقد غزتهم

ملوك اليمن من قراهم مرارا على ما ذكر مؤرخوهم فاستكانوا لغلبهم ودانوا بدينهم . ذكر ابن الكلبى : أن حميرا أبا القبائل اليمانية ملك المغرب مائة سنة وأنه الذى ابتنى مدائنه مثل افريقية وصقلية ١) ، واتفق المؤرخون من العرب على غزو افريقش الحميرى من التابعة أرض المغرب . اه وما نقله عن ابن الكلبى من غزو حمير أرض المغرب قد نقل أيضا انكاره عن الحافظين أبى عمر بن عبد البر وأبى محمد بن حزم وانهما قالا : ما كان لحمير طريق الى بلاد البربر الا فى تكاذيب مؤرخى اليمن ، ثم ذكر أن البعض من البربر كانوا قد دانوا بدين اليهودية وأخذوه عن بنى اسرائل عند استفحال ملكهم لقرب الشام وسلطانه منهم ، كما كان جراوة أهل جبل آوراس قبيلة الكاهنة وكما كانت نفوسة من برابرة افريقية وفندلاوة ومديونة وبهلولة وغياثة وبنو فازاز من برابرة المغرب الاقصى حتى محا ادريس الاكبر جميع ما كان فى نواحيه من بقايا الاديان والملل .

وقال غير واحد من المؤرخين : كان أهل المغرب الاقصى يضرون بأهل الاندلس لاتصال الارض بينهم ويلقون منهم الجهد الجهيد فى كل وقت الى أن اجتاز بهم الاسكندر فشكوا حالهم اليه ، فأحضر المهندسين وأتى الى الزقاق — يعنى زقاق سبتة — فأمرهم بوزن سطح الماء من البحر المحيط والبحر الرومى ، فوجدوا المحيط يعلو الرومى بشىء يسير فأمر برفع البلاد التى على ساحل البحر الرومى ونقلها من الحضيض الى الاعلى ، ثم أمر بحفر ما بين طنجة وبلاد الاندلس من الارض ، فحفرت حتى ظهرت الجبال السفلية ، وبنى عليها رصيفا بالحجر والجيار بناء محكما ، وجعل طوله

---

(١) كلام ابن الكلبى هذا غير محرر ومخالف للحقيقة كما هو معلوم ، لان صقلية جزيرة بوسط البحر المتوسط بين قارتى أوربا وافريقيا وهى الى أوربا أقرب ، وانما ساق المؤلف هذا النقل هنا ليستقصى ما ذكره الناس فى هذا الموضوع سيما وقد ساق اعتراض ذلك ونقل انكاره عن الحافظين : ابن عبد البر وابن حزم .

اثنى عشر ميلا وهى المسافة التى كانت بين البحرين . وبنى رصيفا آخر يقابله من ناحية طنجة وجعل بين الرصيفين سعة ستة أميال ، فلما كمل الرصيفان حفر من جهة البحر الاعظم وأطلق فم الماء بين الرصيفين فدخل فى البحر الرومى ثم ارتفع الماء فأغرق مدنا كثيرة وأهلك أمما عظيمة كانت على الشطين ، وطما الماء على الرصيفين باحدى عشرة قامة ، فأما الرصيف الذى يلى بلاد الاندلس فانه يظهر فى بعض الاوقات اذا نقص الماء ظهورا بينا مستقيما على خط واحد ، وأهل الجزيرة يسمونه القنطرة ، وأما الرصيف الذى يلى جهة العدوة فان الماء حمله فى صدره واحتفر ما خلفه من الارض بنحو اثنى عشر ميلا ، وعلى طرفه من جهة المغرب قصر المجاز وسبتة وطنجة ، وعلى طرفه من الناحية الاخرى جبل طارق بن زياد وجزيرة طريف بن مالك والجزيرة الخضراء ؛ وما بين سبتة والخضراء هو عرض البحر المسمى بالزقاق وبالبوغاز أيضا اه .

وما ذكروه من أن أرض المغرب كانت متصلة بأرض الاندلس نحوه فى تواريخ الفرنج القديمة ، غير أنهم يسمون الملك الذى فتح الباغاز هرقل الجبار ، وعند ابن سعيد : أنه كان فيما بين قصر المجاز وطريف قنطرة عظيمة قد وصلت ما بين البرين يزعم الناس ان الاسكندر بناها ليعبر عليها من بر الاندلس الى بر العدوة والله تعالى أعلم بحقيقة الامر .

وفى تواريخ الفرنج المقطوع بصحتها عندهم : أن ملوك الروم الاولى حاربوا القرطاجنيين من أهل افريقية والمغرب وغلبوهم على البلاد وهدموا فى بعض تلك الحروب مدينة قرطاجنة الشهيرة الذكر . قال الشيخ رفاعة فى بداية القدماء ما نصه : «قرطاجنة مدينة بأرض افريقية وهى احدى مدن الدنيا الشهيرة ، وقد هدمها الروم قبل ميلاد المسيح عليه السلام بمائة وست وأربعين سنة ثم أسست ثانية وخربها العرب حتى انه لايرى الآن شىء من آثارها الا بغاية الجهد وبقرب موضعها مدينة تونس اه

وقال ابن خلدون فى كتاب طبيعة العمران حين تكلم على قيادة الاساطيل ما نصه : «وقد كانت الروم والافرنجة والقوط بالعدوة الشمالية من هذا

البحر الرومى ، وكان أكثر حروبهم ومتاجرهم فى السفن ، فكانوا مهرة فى ركوبه والحرب فى أساطيله ولما أسف من أسف منهم الى ملك العدوة الجنوبية ، مثل الروم الى افريقية والقوط الى المغرب ، أجازوا اليها فى الاساطيل وملكوها وتغلبوا على البربر بها وانتزعوا من أيديهم أمرها وكان لهم بها المدن الحافلة مثل قرطاجنة وسبيطلة وجلولاء ومرناق وشرشال وطنجة ، وكان صاحب قرطاجنة من قبلهم يحارب صاحب رومة ويبعث الاساطيل لحربه مشحونة بالعساكر والعدد ، فكانت هذه عادة لاهل هذا البحر الساكنين حفافيه معروفة فى القديم والحديث اه »

قلت : الفرنج اليوم جازمون بأن ملوك الروم الاولى كانوا مستولين على أرض المغرب بأسرها قد ملكوها مدة طويلة من الزمان قبل ميلاد المسيح عليه السلام بكثير وان الامصار القديمة بالمغرب مثل سبتة وطنجة وسلا وشالة ووليلى ونحوها هى من بنائهم أو بناء القرطاجنيين قبلهم ولقد قال لى بعض أهل الخبرة منهم : ان مدينة سلا كانت موجودة فى ذلك العصر وأنه رآها مذكورة بهذا الاسم فى تواريخ الروم (١) القديمة المذكورة فيها أخبار المغرب وأمصاره ، وحققت عليه ذلك فجزم به ولم يرجع وما يقال من أن سبتة وسلا من بناء بعض أولاد نوح عليه السلام فقول بعيد عن الصحة نعم قد ذكر فى التوراة عند الكلام على ذرية نوح وتناسلهم بالارض انه كان منهم سبتة بن كوش بن حام بن نوح عليه السلام ويبعد أن تكون المدينة من بناء هذا الرجل أو بناء بعض بنيه لبعد العهد وطول المدة وعدم نقل ذلك من وجه صحيح ، وان كانت أرض المغرب هى لاولاد حام من قديم الزمان والله أعلم .

ولما أخذ الروم بدين النصرانية فى زمن قسطنطين الملك ، وكانت لهم اليد العالية على من جاورهم من الامم ، مثل الحبشة والقبط والفرنج والقوط وغيرهم ، حملوهم على الاخذ به فدانوا به معهم وتلقوه عنهم وبثوه فى

---

(١) يعنى تواريخ اللاتينيين .

بلادهم ورعاياهم ، وكان الفرنج مجاورين للبربر في المغرب الادنى ، والقوط مجاورين لهم فى الاقصى ، ليس بينهم وبينهم الا خليج البحر . فحملوا أهل السواحل منهم على الاخذ بذلك الدين فدانوا به أيضا ، ونظر القياصرة يومئذ منسحب عن الجميع وأمرهم نافذ فى الكل ، واستمر الحال على ذلك حتى جاء الله بالاسلام وأظهره على الدين كله ، فدانت به البربر على ما نذكره ان شاء الله فلهذا السبب كان كسيلة الاوربى ويليان الغماري وغيرهما من كبار البربر نصارى .

وقال ابن خلدون : « كان للبربر فى الضواحى وراء ملك الامصار المرهوبة الحامية ما شاء الله من قوة وعدة وعدد وملوك ورؤساء وأقيال وأمراء لا يرامون بذل ، ولا تنالهم الروم والفرنج فى ضواحيهم تلك بمسخطة ولا اساءة » ثم قال : « وكانوا يؤدون الجباية لهرقل ملك القسطنطينية ـ كما كان المقوقس صاحب مصر والاسكندرية وبرقة يؤدى الجباية له ـ وكما كان صاحب طرابلس ولبدة وصبرة وصاحب صقلية وصاحب الاندلس من القوط لما كان الروم قد غلبوا على هؤلاء الامم أجمع وعنهم أخذوا دين النصرانية ، وكان الفرنجة هم الذين ولوا أمر افريقية ولم تكن للروم فيها ولاية وانما كان كل من كان منهم بها جند للفرنج ومن حشودهم . وما يسمع فى كتب الفتح من ذكر الروم فى فتح افريقية فمن باب التغليب ، لان العرب يومئذ لم يكونوا يعرفون الفرنج وما قاتلوا فى الشام الا الروم فظنوا أنهم هم الغالبون على أمم النصرانية ، فان هرقل هو ملك النصرانية كلها فغلبوا اسم الروم على جميع أمم النصرانية ونقلت الاخبار عن العرب كما هى فجرجير المقتول عند الفتح من الفرنج وليس من الروم ، وكذا الامة الذين كانوا بافريقية غالبين على البربر ونازلين بمدنها وحصونها كانوا من الفرنجة » اهـ .

القول فى تحديد المغرب وذكر حال البربر بعد الاسلام

اعلم أن لفظ المغرب يطلق فى عرف أهله على ناحية من الارض معروفة بعينها ، حدها من جهة مغرب الشمس البحر المحيط المعروف بالكبير ، ومن جهة مشرق الشمس بلاد برقة وما خلفها الى الاسكندرية ومصر ، فبرقة خارجة عن بلاد المغرب بهذا الاعتبار ، وبلاد طرابلس وما دونها الى جهة البحر المحيط داخلة فيه ، وحدها من جهة الشمال البحر الرومى المفرع عن المحيط ويعرف هذا الرومى بالصغير ، ومن جهة الجنوب جبال الرمل الفاصلة بين بلاد السودان وبلاد البربر ، وتعرف عند العرب الرحالة هنالك بالعرق .

ثم هذا المغرب يشتمل على ثلاث ممالك : مملكة افريقية وهى المغرب الادنى – وقاعدتها فى صدر الاسلام مدينة القيروان وفى هذا العصر مدينة تونس – وسمى أدنى لانه أقرب الى بلاد العرب ودار الخلافة بالحجاز . ثم بعد أفريقية مملكة المغرب الاوسط وقاعدتها تلمسان وجزائر بنى مزغنة وهذه المملكة اليوم فى يد فرنج افرانسة ملكوها فى سنة ست وأربعين ومائتين وألف ، وأهلها مسلمون . ثم بعد ذلك مملكة المغرب الاقصى وسمى الاقصى لانه أبعد الممالك الثلاث عن دار الخلافة فى صدر الاسلام ، وحد هذا الاقصى من جهة المغرب البحر المحيط ، ومن جهة المشرق وادى ملوية مع جبال تازا ، ومن جهة الشمال البحر الرومى ، ومن جهة الجنوب جبل درن قاله ابن خلدون .

وفى تقسيم الفرنج أن المغرب الاقصى يشتمل على خمس عمالات : عمالة فاس وعمالة مراكش وعمالة السوس وعمالة درعة وعمالة تافيلالت . ودار الملك به تارة فاس وتارة مراكش ، (١) وهو فى الاغلب ديار المصامدة

---

(١) وفى عصرنا هذا صارت العاصمة السياسية الادارية هى : الرباط .

من البربر ويساكنهم فيه عوالم من صنهاجة ومضغرة وأوربة وغيرهم لكنهم قليل بالنسبة الى المصامدة ويساكنهم فيه أيضا عالم من العرب أهل الخيام ، انتقلوا من جزيرة العرب الى أفريقية ثم من افريقية اليه أواخر المائة السادسة أيام الخليفة يعقوب المنصور الموحدى وهم اليوم قبائل عديدة يرجعون فى نسبهم الى رياح وجشم ، فأما رياح فهم من بنى هلال بن عامر ابن صعصعة ، وأما جشم فهم بنو جشم بن معاوية بن بكر وكلهم ينتهى نسبهم الى مضر ، ويضاف اليهم قبائل أخر نحقق الكلام فيهم بعد هذا ان شاء الله .

ثم قد علمت أن كلامنا بالقصد الاول فى هذا الكتاب انما هو على المغرب الاقصى ، لكنا نتكلم أولا على أخبار المغرب مطلقا ، ونذكر أمراءه الموجهين من قبل الخلفاء بالمشرق على التفصيل ما دام نظرهم منسحبا عليه وظلهم ممتدا اليه ، اذ كان أمر الخلافة فى صدر الاسلام متحدا وحكمها مجتمعا وكلمتها نافذة فى جميع ممالك الاسلام شرقا وغربا ، بحيث لا يخرج قطر من الاقطار ولا مصر من الامصار فيما بعد أو دنا من الارض عن نظر الخليفة الاعظم ، وقد كان ذلك دينا متبعا وحكما مجمعا عليه ، ولا تصح لاحد امارة أو ولاية الا بالاستناد اليه ، حتى اذا طال العهد وضعف أمر الخلافة وتقلص ظلها عن القاصية ، تفرقت ممالك الاسلام البعيدة عن دارها وتوزعتها الثوار من بنى هاشم وغيرهم واستبد الامراء النازحون عنها كل بما غلب عليه وسار أمر الوحدة الى الكثرة وحكم الاجتماع الى الفرقة ، فلهذا نتكلم الآن على أخبار المغرب مطلقا ، ونذكر ولاته الموجهين اليه من قبل الخلفاء واحدا بعد واحد الى زمن ادريس بن عبد الله المستبد بملك المغرب الاقصى ، والمقتطع له عما عداه من الممالك الاسلامية ، فحينئذ نفرد الكلام عليه بخصوصه على ما شرطناه ، فأما الآن فلا يمكننا الكلام عليه وحده لانه ـ والحالة هذه ـ مندرج فى غيره من ممالك المغرب ، اذ الوالى الموجه من قبل الخليفة فى صدر الاسلام كان يكون واليا على أفريقية وما بعدها من بلاد المغرب الى البحر المحيط ، وقد تضاف الى نظره الاندلس

بل كان الوالى بمصر قد يكون نظره شاملا لجميع بلاد المغرب حسبما نقف عليه ، فاعرف هذه الجملة ولتكن منك على بال .

وأما حال البربر بعد الاسلام فيعرف من أخبار الولاة التى نسردها الآن وبالله التوفيق .

ولاية عمرو بن العاص رضى الله عنه وفتحه برقة وطرابلس

لما كانت خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وفتح عمرو بن العاص مصر والاسكندرية وفرغ منها سار فى سنة احدى وعشرين من الهجرة الى برقة - وكانت تسمى فى القديم انطابلس - فصالحه أهلها على الجزية ، ثم سار بعدها الى طرابلس فحاصرها شهرا ، وكانت مكشوفة السور من جانب البحر وسفن الروم فى مرساها ، فحسر الماء فى بعض الايام وانكشف أمرها لبعض المسلمين المحاصرين لها ، فاقتحموا البلد فيما بين البحر والبيوت فلم يكن للروم ملجأ الا سفنهم ، وارتفع الصياح فأقبل عمرو بعساكره فدخل المدينة ولم يفلت الروم الا بما خف فى المراكب ، ثم عطف عمرو رضى الله عنه على مدينة صبرة (١) وكانوا قد أمنوا بمنعة طرابلس واشتغال المسلمين بحصارها فصبحهم (٢) فى جيش المسلمين واقتحمها عليهم عنوة وكمل الفتح ، ورجع عمرو الى برقة فصالحه أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار جزية ، وكان أكثر أهل برقة لواتة وهم بنو لوى الاكبر ، وأكثر أهل طرابلس وصبرة نفوسة وكلتا القبيلتين من البتر .

ولما فرغ عمرو رضى الله عنه من أمر طرابلس وما معها استأذن عمر

---

(١) لم يسر عمرو بنفسه الى صبرة انما بعث سرية من الجيش (مؤلف)

(٢) وفى الاكتفاء : لما ظفر عمرو بمدينة طرابلس جرد خيلا كثيفة من ليلته وأمرهم بسرعة السير فصبحت خيله مدينة صبرة وهم غافلون . (مؤلف)

بن الخطاب رضى الله عنه فى التقدم الى افريقية فمنعه وقال : تلك المفرقة وليست بافريقية ، أو كلاما هذا معناه ، فامتثل وعاد الى مصر ، فكان عمرو ابن العاص أول أمير للمسلمين وطئت خيله أرض المغرب لكنه لم يصل الى افريقية ولا كان من البرابر اسلام . غير أن صاحب كتاب الجمان نقل أنه لما كانت خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه واستفتحت مدينة مصر - وكان عليها عمرو بن العاص - قدم عليه ستة نفر من البربر محلقين الرؤوس واللحى فقال لهم عمرو من أنتم وما الذى جاء بكم ؟ قالوا رغبنا فى الاسلام فجئنا له لان جدودنا قد أوصونا بذلك ! فوجههم عمرو الى عمر رضى الله عنه وكتب اليه بخبرهم ، فلما قدموا عليه - وهم لايعرفون لسان العرب - كلمهم الترجمان على لسان عمر فقال لهم : من أنتم ؟ قالوا نحن بنو مازيغ ، فقال عمر لجلسائه : هل سمعتم قط بهؤلاء ؟ فقال شيخ من قريش : ياأمير المؤمنين هؤلاء البربر من ذرية بر بن قيس بن عيلان خرج مغاضبا لابيه واخوته فقالوا بر بر أى أخذ البرية ، فقال لهم عمر رضى الله عنه : وما علامتكم فى بلادكم ؟ قالوا : نكرم الخيل ونهين النساء ، فقال لهم عمر : ألكم مدائن ؟ قالوا : لا ، قال : ألكم أعلام تهتدون بها ؟ قالوا : لا ، قال عمر : والله لقد كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض مغازيه فنظرت الى قلة الجيش وبكيت فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياعمر لا تحزن فان الله سيعز هذا الدين بقوم من المغرب ليس لهم مدائن ولا حصون ولا أسواق ولا علامات يهتدون بها فى الطرق ، ثم قال عمر : فالحمد الله الذى من على برؤيتهم ، ثم أكرمهم ووصلهم وقدمهم على من سواهم من الجيوش القادمة عليه ، وكتب الى عمرو بن العاص أن يجعلهم على مقدمة المسلمين ، وكانوا من أفخاذ شتى اه والله أعلم .

ولاية عبد الله بن سعد بن أبى سرح وفتحه افريقية

لما كانت خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه عزل عمرو ابن العاص عن مصر ، وولى عليها عبد الله بن سعد بن أبى سرح العامرى ـ أخاه من الرضاعة ـ وأمره بغزو افريقية سنة خمس وعشرين من الهجرة وقال له : ان فتح الله عليك فلك خمس الخمس من الغنائم ، ثم عقد عثمان لعبد الله بن نافع بن عبد قيس على جند وعبد الله بن نافع بن الحرث على آخر وسرحهما فخرجوا الى افريقية فى عشرة آلاف وصالحهم أهلها على مال يؤدونه ، ولم يقدروا على التوغل فيها لكثرة أهلها . ثم ان عبد الله بن أبى سرح استأذن عثمان فى ذلك واستمده ، فاستشار عثمان الصحابة فأشاروا به فجهز العساكر من المدينة ـ وفيهم جماعة من الصحابة منهم : ابن عباس وابن عمرو بن العاص وابن جعفر والحسن والحسين وابن الزبير ـ وقيل لحقهم مددا ـ وساروا مع عبد الله بن سعد سنة ست وعشرين ولقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين ببرقة ، ثم ساروا الى طرابلس فنهبوا الروم عندها ثم تجاوزوها الى افريقية وبثوا السرايا فى كل ناحية وكان ملكهم جرجير الفرنجى يملك ما بين طرابلس وطنجة تحت ولاية هرقل ويحمل اليه الخراج ، فلما بلغه الخبر جمع مائة وعشرين ألفا من العساكر ولقيهم على يوم وليلة من سبيطلة ـ دار ملكهم ـ وأقاموا يقتتلون ، ودعوه الى الاسلام أو الجزية فاستكبر . ولحقهم عبد الله بن الزبير مددا بعثه عثمان رضى الله عنه لما أبطأت عليه أخبارهم ، وسمع جرجير بوصول المدد ففت ذلك فى عضده ، وشهد ابن الزبير معهم القتال وقد غاب ابن أبى سرح فسأل عنه فقيل له : انه سمع منادى جرجير يقول : : من قتل ابن أبى سرح فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتى» فخاف وتأخر عن شهود القتال ، فقال له ابن الزبير : تنادى أنت : «بأن من قتل جرجير نفلته مائة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده !» فخاف جرجير أشد منه ، ثم أشار ابن الزبير على ابن

أبى سرح أن يترك جماعة من أبطال المسلمين المشاهير متأهبين للحرب ويقاتل الروم بباقى العسكر الى أن يضجروا فيركبهم بالآخرين على غرة ، قال : لعل الله ينصرنا عليهم ، ووافق على ذلك أعيان الصحابة ففعلوا وركبوا من الغد الى الزوال ، وألحوا عليهم حتى أتعبوهم ثم افترقوا وأركب عبد الله الفريق الذين كانوا مستريحين فكبروا وحملوا حملة رجل واحد حتى غشوا الروم فى خيامهم فانهزموا وقتل كثير منهم ، وقتل ابن الزبير جرجير وحيزت ابنته سبية فنفلها ابن أبى سرح ابن الزبير ، ثم حاصر ابن أبى سرح سبيطلة ففتحها وخربها ، وكان سهم الفارس فيها ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألفا . وبث جيوشه فى البلاد الى قفصة فسبوا وغنموا ، وبعث عسكرا الى حصن الاجم وقد اجتمع به أهل البلاد فحاصره وفتحه على الامان ثم صالحه أهل افريقية على ألفى ألف وخمسمائة ألف دينار .

وأرسل ابن الزبير بخبر الفتح وبالخمس الى المدينة فاشتراه مروان ابن الحكم بخمسمائة ألف دينار وبعض الناس يقول أعطاه اياه عثمان رضى الله عنه ولا يصح ، وانما أعطى ابن أبى سرح خمس الخمس من الغزوة الاولى . وانحاز الفرنجة ومن معهم من الروم بعد الهزيمة والفتح الى حصون افريقية . وانساح المسلمون فى البسائط بالغارات ووقع بينهم وبين أهل الضواحى من البربر زحوف وقتل وسبى حتى لقد أسروا يومئذ من ملوك البربر صولات بن وزمار الزناتى ثم المغراوى ــ جد بنى خزر ملوك تلمسان ــ فرفعوه الى عثمان رضى الله عنه فأسلم على يده فمن عليه وأطلقه وعقد له على قومه ، ويقال انما وصل وافدا فأكرم وفادته والله أعلم .

ثم رغب الفرنج والبربر فى السلم وسألوا الصلح وشرطوا لابن أبى سرح ثلاثمائة قنطار من الذهب على أن يرحل عنهم بالعرب ويخرج من بلادهم ففعل ، ورجع المسلمون الى المشرق بعد مقامهم بافريقية سنة وثلاثة أشهر . ولما بلغ هرقل ملك الروم أن أهل أفريقية صالحوا المسلمين بذلك

المال الذى أعطوه غضب عليهم ، وبعث بطريقا (١) يأخذ منهم مثل ذلك ، فنزل قرطاجنة وأخبرهم بما جاء له فأبوا وقالوا : قد كان ينبغى له أن يسعدنا فيما نزل بنا ، فقاتلهم البطريق وهزمهم وطرد الملك (٢) الذى ولوه عليهم بعد جرجير ، فلحق بالشام — وقد اجتمع الناس على معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه — فاستجاشه على افريقية فبعث معه معاوية بن حديج السكونى على ما نذكره .

ولاية معاوية بن حديج على المغرب

هو معاوية بن حديج بالحاء المهملة مصغرا الكندى ثم السكونى ، له صحبة وممن شهد مع عمرو بن العاص فتح مصر وقدم بخبر الفتح على عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، ولما قدم علج افريقية على معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه وشكا اليه ما ناله من صاحب قيصر بعث معه معاوية بن حديج هذا فى عسكر ضخم سنة خمس وأربعين ، فلما وصل الى الاسكندرية هلك العلج ومضى معاوية فقدم افريقية فى عشرة آلاف فنزل قمونية فسرح اليه البطريق ثلاثين ألف مقاتل كان قيصر قد وجهها من القسطنطينية فى البحر لمدافعة العرب عن افريقية فلم تغن شيئا ، وقاتلهم معاوية فهزمهم عند حصن الاجم ثم بث السرايا ودوخ البلاد ، فبعث عبد الله بن الزبير الى سوسة فافتتحها ، ثم بعث عبد الملك بن مروان الى جلولاء فافتتحها كذلك . وقال ابن خلدون : «ان معاوية حاصر حصن جلولاء (٣) فامتنع عليه حتى سقط

---

(١) اسمه فى تواريخ الروم نيسيفور هكذا : (Nicéphore)

(٢) اسمه جناها أو هباهيا ٠ (Jenaha, Habahia)

(٣) وهذه غير جلولاء العراق التى تقدم فتحها فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه

ذات يوم سوره فملكه المسلمون وغنموا ما فيه . »

ثم وجه جيشا فى البحر الى صقلية فى مائتى مركب فأثخنوا فيها ثم فتح بنزرت وظهر الاسلام فى البربر ثم عاد الى مصر بعد أن خلد آثارا حسنة ، وبنى بمحل القيروان آبارا ثم عزله معاوية بن أبى سفيان عن افريقية وأقره على مصر فقط ، ثم عزله عنها فى خبر ليس ذكره من غرضنا.

ولاية عقبة بن نافع الفهرى على المغرب وبناؤه مدينة القيروان

هوعقبة بن نافع بن عبد القيس القرشى الفهرى صحابى بالمولد وهو آخر من ولى المغرب من الصحابة، وكان عمرو بن العاص وهو أمير على مصر قد استعمل عقبة هذا وهو ابن خالته على افريقية فانتهى الى لواتة ومزاتة ، فأطاعوا ثم كفروا فغزاهم وقتل وسبى ، ثم افتتح سنة اثنتين وأربعين غدامس من تخوم السودان ، وفى السنة بعدها افتتح ودان وكورا من كور السودان وأثخن فى تلك النواحى وكان له فيها جهاد وفتوح فظهر غناؤه وعرفت نجدته وكفايته، فلما كانت سنة خمسين ولاه معاوية رضى الله عنه على افريقية استقلالا وبعث معه عشرة آلاف فارس فدخل عقبة افريقية بعد رجوع معاوية بن حديج عنها ، وانضاف اليه مسلمة البربر فكثر جمعه ووضع السيف فى أهلها لانهم كانوا اذا جاءت عساكر المسلمين أسلموا فاذا رجعوا عنها ارتدوا . ثم رأى عقبة رحمه الله أن يتخذ مدينة يعتصم بها جيش المسلمين من البربر وتقام بها الجمع والاعياد فاستشار من معه فقالوا : نحن أصحاب ابل ولا حاجة لنا بمجاورة البحر فتسطوا علينا الفرنج فانظر انا ينظر الله.

قال صاحب الجمان : «وكانت بقعة القيروان غيضة لا يأوى اليها الا الوحوش والسباع فصاح بها عقبة : أن أخرجى أيتها الوحوش والهوام باذن الله عز وجل . فبقيت أرض القيروان أربعين سنة لايرى فيها شىء من الهوام المؤذية ولا السباع العادية . ثم شرع فى بنائها وقال هذه أوسع

لابلكم وآمن عليكم من روم القسطنطينية وافرنج الجزيرة» وعن الليث بن سعد أن عقبة رحمه الله غزا افريقية فأتى وادى القيروان (١) فبات عليه هو وأصحابه حتى اذا أصبح وقف على رأس الوادى فقال : «ياأهل الوادى اظعنوا فانا نازلون» قال ذلك ثلاثا فجعلت الحيات تنساب والعقارب وغيرها مما لايعرف من الدواب تخرج ذاهبة ــ وهم قيام ينظرون اليها ــ من حين أصبحوا حتى أوهجتهم الشمس ، وحتى لم يروا منها شيئا فنزلوا الوادى عند ذلك . قال الليث : فحدثنى زياد بن عجلان أن أهل افريقية أقاموا بعد ذلك أربعين سنةولو التمست حية أو عقرب بألف دينار ما وجدت اه .

وفى الجمان : لما شرع عقبة رحمه الله فى بناء جامعها تنازعوا فى القبلة فأتى عقبة آت فى النوم فوضع له علامة على سمت القبلة فلما انتبه أعلم الناس بذلك فأتوا الىالموضع فوجدوا العلامة كما قال فوقف عقبة ينظر الى القبلة فسمع تكبيرة فى الجو من ناحية القبلة فنظر فرأى الكعبة عيانا ورآها كل من كان حوله . وقال ابن خلدون : اختط عقبة رضى الله عنه القيروان وبنى بها المسجد الجامع وبنى الناس مساكنهم ومساجدهم وكان دورها ثلاثة آلاف باع وستمائة باع وكملت فى خمس سنين. وكان يغزوا ويبعث السرايا للاغارة والنهب ، ودخل أكثر البربر فى الاسلام واتسعت خطة المسلمين ورسخ الدين اه .

وقال صاحب الخلاصة النقية : اختط عقبة بن نافع القيروان سنة خمسين وجعل دور سورها اثنى عشر ميلا وبنى بها الجامع الاعظم وقاتل البربر وشردهم ثم عزله معاوية عنها والله أعلم .

---

(١) وفى تاريخ الفلاسفة فى ترجمة «ارستيب» منهم أنه كان من مدينة القيروان من مدن برقة ، وكان هذا الفيلسوف معاصرا لافلاطون الحكيم قبل الاسكندر ، فدل هذا على أن القيروان كانت مدينة قديمة بنواحى برقة فدثرت والله أعلم .

وقد ذكرت أيضا فى سفرات «بولس» واضع دين النصرانية اه . (مؤلف)

ولاية ابى المهاجر دينار وفتحه المغرب الاوسط

كان معاوية رضى الله عنه قد ولى على مصر وافريقية مسلمة بن مخلد (بوزن محمد) الانصارى فاستعمل مسلمة على افريقية مولاه أبا المهاجر المذكور ويقال مولى بنى مخزوم فقدمها سنة خمس وخمسين وأساء عزل عقبة واستخف به لشىء كان بينهما وكره نزول القيروان فبنى مدينة قربها وأخلى قيروان عقبة فدعا عقبة الله تعالى أن يمكنه منه ـ وكان رجلا صالحا مجاب الدعوة ـ فاستجيب له فيه على ما نذكره . ثم ان أبا المهاجر بعث حنش بن عبد الله الصنعانى ـ صنعاء الشام ـ الى جزيرة شريك وهى المعروفة الآن بالجزيرة القبلية واليها يسلك من باب الجزيرة أحد أبواب تونس فافتتحها .

وكان كسيلة (١) بن اغز البرنسى ثم الاوربى من أهل المغرب الاقصى من عظماء البربر وكان نصرانيا قد جمع الجموع من البربر والفرنج وزحف الى المسلمين ، فزحف اليهم أبو المهاجر فهزمهم حول تلمسان وتمكن من البلاد وظفر بكسيلة فأظهر الاسلام فاستبقاه أبو المهاجر واستخلصه . قال ابن خلدون : لم أقف لتلمسان على خبر أقدم من خبر ابن الرقيق من أن أبا المهاجر لما قدم افريقية توغل فى ديار المغرب ووصل الى تلمسان وبه سميت العيون القريبة منها عيون أبى المهاجر اه . فهو أول أمير المسلمين وطئت خيله المغرب الاوسط .

ثم ان عقبة بن نافع لما قفل الى المشرق شكا الى معاوية رضى الله عنه

---

(١) وسماه ابن الاثير كسيلة بن لمرم بفتح اللام والراء المهملة وبينهما ميم ساكنة وآخره ميم ، هكذا فى أسد الغابة فى ترجمة عقبة ابن نافع صفحة ٤٢١ ج ٣ . وذكر غيره واحد من المؤرخين انه لمزم بالزاى المعجمة . وأما اغز فلم نر من ذكره فى التواريخ التى وقفنا عليها ولعله تصحيف

ما ناله من ابى المهاجر فاعتذر اليه ووعده برده الى عمله ثم ولاه ابنه يزيد على المغرب سنة اثنتين وستين .

وذكر الواقدى : أن عقبة ولى المغرب سنة ست وأربعين فاختط القيروان ثم عزله يزيد سنة اثنتين وستين بأبى المهاجر فحينئذ قبض على عقبة وضيق عليه ، فكتب اليه يزيد يأمره ببعثه فبعثه اليه ثم أعاده واليا على افريقة والله أعلم .

ولاية عقبة بن نافع الثانية وفتحه المغرب الاقصى ومقتله

لما توفى معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه وولى بعده ابنه يزيد بعث عقبة بن نافع واليا على المغرب فقدمه فى التاريخ المتقدم ، واعتقل أبا المهاجر وخرب مدينته وعمر القيروان وعزم على الجهاد ، فاستخلف زهير ابن قيس البلوى على القيروان – ويقال ولاه على مقدمة جيشه – وخرج فى جيش كثيف ففتح حصن لميس ومدينة باغانة المطل عليها جبل أوراس . وفتح بلاد الجريد فتحا ثانيا ، وصالح أهل فزان ، وسار الى الزاب وتاهرت فشتت جموع البربر ومن انضم اليهم من الفرنج ؛ ثم تقدم الى المغرب الاقصى فأثخن فى أهله الى ان وصل الى البحر المحيط ، فكان عقبة رحمه الله أول أمير للمسلمين وطئت خيله المغرب الاقصى .

وقال ابن خلدون : قدم عقبة بن نافع المغرب فى ولايته الثانية سنة اثنتين وستين ، فاضطغن على كسيلة صحبته لابى المهاجر ونكبه . وتقدم أبو المهاجر الى عقبة فى اصطناعه فلم يقبل ، ثم زحف الى المغرب وعلى مقدمته زهير بن قيس البلوى ، فدوخه ولقى ملوك البربر ومن انضم اليهم من الفرنجة بالزاب وتاهرت فهزمهم واستباحهم . وأذعن له يليان أمير غمارة ولاطفه وهاداه ، ودله على عورات البربر وراءه بمدينة وليلى وبلاد المصامدة والسوس .

وقال صاحب الجمان : افتتح عقبة المغرب ونزل على طنجة فحاصرها واستنزل ملكها يليان الغمارى ـ وكان نصرانيا ـ فنزل على حكمه بعد أن أعطاه أموالا جليلة . ثم أراد عقبة اللحاق بالجزيرة الخضراء من عدوة الاندلس ، فقال له يليان : أتترك كفار البربر خلفك وترمى بنفسك فى بحبوحة الهلاك مع الفرنج ويقطع البحر بينك وبين المدد ؟ فقال عقبة : وأين كفار البربر ؟ قال : ببلاد السوس وهم أهل نجدة وبأس ، قال عقبة : وما دينهم ؟ قال : ليس لهم دين ولا يعرفون ان الله حق ، وانما هم كالبهائم ـ وكانوا على دين المجوسية يومئذ ـ فتوجه عقبة نحوهم فنزل على مدينة وليلى بازاء جبل زرهون وهى يومئذ من أكبر مدن المغرب فيما بين النهرين العظيمين : سبو وورغة . ـ وهذه المدينة هى المسماة اليوم فى لسان العامة بقصر فرعون ـ فافتتحها عقبة وغنم وسبى ؛ ثم توجه الى بلاد درعة والسوس فلقيته جموع البربر فاقتتلوا قتالا شديدا ، ثم انهزمت البربر بعد حروب صعبة ، وقتلهم المسلمون قتلا ذريعا وتبعوا آثارهم الى صحراء لمتونة لا يلقاهم أحد الا هزموه .

ثم عطف عقبة على ساحل البحر المحيط الغربى ، فانتهى الى بلاد آسفى ؛ وأدخل قوائم فرسه فى البحر ووقف ساعة ثم قال لاصحابه : ارفعوا أيديكم ، ففعلوا ، وقال : «اللهم انى لم أخرج بطرا ولا أشرا وانك لتعلم انما نطلب السبب الذى طلبه عبدك ذو القرنين وهو أن تعبد ولا يشرك بك شىء ، اللهم انا معاندون لدين الكفر ومدافعون عن دين الاسلام ، فكن لنا ولا تكن علينا ياذا الجلال والاكرام .» ثم انصرف راجعا .

وقال ابن خلدون أيضا : وصل عقبة الى جبال درن وقاتل المصامدة بها فكانت بينه وبينهم حروب ، وحاصروه بجبل درن فنهضت اليهم جموع زناتة ـ وكانوا خالصة للمسلمين منذ اسلام مغراوة ـ فأفرجت المصامدة عن عقبة ، وأثخن فيهم حتى حملهم على طاعة الاسلام ، ودوخ بلادهم ، ثم أجاز الى بلاد السوس لقتال من بها من صنهاجة ـ أهل اللثام ـ وهم يومئذ على دين المجوسية ولم يدينوا بالنصرانية ، فأثخن فيهم وانتهى الى تارودانت

وهزم جموع البربر ، وقاتل مسوفة من وراء السوس ودوخهم وقفل راجعا.

وكان كسيلة الأوربى فى جيش عقبة قد استصحبه فى غزواته هذه ، وكان يستهين به ويمتهنه ؛ فأمره يوما بسلخ شاة بين يديه فدفعها كسيلة الى غلمانه ، فأراده عقبة على أن يتولاها بنفسه وانتهره ، فقام اليها كسيلة مغضبا وجعل كلما دس يده فى الشاة مسح بلحيته ، والعرب يقولــون : ما هذا يابربرى ؟ فيقول : هو أجير ! فيقول لهم شيخ منهم : ان البربرى يتوعدكم. وبلغ ذلك أبا المهاجر ــ وهــو معتقل عند عقبة ــ فبعث اليه ينهاه ويقول : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألف جبابرة العرب ، وأنت تعمد الى رجل جبار فى قومه وبدار عزه حديث عهد بالشرك فتستفسده » وأشار عليه بأن يتوثق منه وخوفه غائلته . فتهاون عقبة بقوله، فلما قفل من غزاته هذه وانتهى الى طبنة من أرض الزاب ــ وكسيلة أثناء هذا كله فى صحبته ــ صرف العساكر الى القيروان أفواجا ، ثقــة بما دوخ مــن البلاد وأذل من البربر حتى بقى فى قليل من الجند ، فلما وصل الى تهــودة وأراد أن ينزل بها الحامية نظر اليه الفرنجة وطمعوا فيه فراسلوا كسيلة ودلوه على الفرصة فيه فانتهزها وراسل بنى عمه ومن تبعهم من البربر فاتبعوا أثر عقبة وأصحابه حتى اذا غشوهم بتهودة ترجل القوم وكسروا أجفان سيوفهم ونزل الصبر ، واستلحم عقبة واصحابه فلم يفلت منهم أحد ، وكانوا زهاء ثلاثمائة من كبــار الصحابة والتابعين استشهدوا فى مسرع واحد ، وفيهم أبو المهاجر كان عقبة قد استصحبه فى اعتقاله ــ كما قلنا ــ فأبــلى رضى الله عنه فى ذلك اليــوم البلاء الحسن .

قال ابن خلدون : وأجداث الصحابة رضى الله عنهــم أولئك الشهــداء ــ أعنى عقبة وأصحابه ــ بمكانهم من أرض الزاب لهذا العهد ، وقد جعل على قبورهم أسنمة ، ثم جصصت ، واتخذ على المكان مسجــد عرف باســم عقبــة وهو فى عداد المزارات ومظان البركات بل هو أشرف مزور مــن الاجداث فى بقاع الارض لما توفر فيه من عدد الشهداء من الصحابة والتابعين الذيــن لا يبلغ أحد مد أحدهم ولا نصيفه .

وأسر من الصحابة يومئذ : محمد بن أوس الانصارى ويزيد بن خلف العبسى ونفر معهما ، ففداهم ابن مصاد صاحب قفصة وبعث بهم الى القيروان .

ثم زحف كسيلة بعد الوقعة الى جهة القيروان ، اذ هى دار الامارة بالمغرب يومئذ وبها جمهور العرب ووجوه الاسلام ، فبلغهم الخبر وعظم عليهم الامر فقام زهير بن قيس البلوى فيهم خطيبا وقال : «يامعشر المسلمين ان أصحابكم قد دخلوا الجنة فاسلكوا سبيلهم أو يفتح الله عليكم.» فخالف حنش بن عبد الله الصنعانى لما علم انه لا طاقة للمسلمين بما دهمهم من أمر البربر ورأى ان النجاة بمن معه من المسلمين أولى ؛ ونادى فى الناس بالرحيل الى مشرقهم فاتبعوه الا قليلا منهم ؛ وبقى زهير فى أهل بيته فاضطر الى الخروج وسار الى برقة فأقام بها مطلا على المغرب ومنتظرا للمدد من الخلفاء .

واجتمع الى كسيلة جميع أهل المغرب من البربر والفرنجة وعظم أمره ؛ وتقدم الى القيروان فاستولى عليها فى المحرم سنة أربع وستين وفر منها بقية العرب فلحقوا بزهير ولم يقم بها الا أصحاب الذرارى والاثقال فأمنهم كسيلة ؛ وثبتت قدمه بالقيروان واستمر أميرا على البربر ومن بقى بها من العرب خمس سنين .

وقارن ذلك مهلك يزيد بن معاوية ، وفتنة الضحاك بن قيس مع مروان بن الحكم بمرج راهط من أرض الشام وحروب آل الزبير ؛ فاضطرب أمر الخلافة بالمشرق ، واضطرم المغرب نارا ، وفشت الردة فى زناتة والبرانس الى أن استقل عبد الملك بن مروان بالخلافة وأذهب آثار الفتنة من المشرق فالتفت الى المغرب وتلافى أمره على ما نذكره .

ذكر من دخل المغرب من الصحابة

مرتبة اسماؤهم على حروف المعجم

فمنهم بلال بن حارث بن عاصم المزنى أبو عبد الرحمن من أهل المدينة أقطعه النبى صلى الله عليه وسلم العقيق ، وكان صاحب لواء مزينة يوم الفتح ، ذكره صاحب الخلاصة النقية فيمن دخل المغرب

ومنهم جرهد بن خويلد الاسدى أو الاسلمى ، ذكر صاحب الاشراق أنه من جملة من دخل افريقية من أرض المغرب .

ومنهم جبلة بن عمرو بن ثعلبة بن أسيرة الانصارى أخو أبى مسعود البدرى قال فى التجريد : شهد أحدا وشهد فتح مصر وصفين مع على، وغزا افريقية مع معاوية بن حديج سنة خمسين . وكان فاضلا من فقهاء الصحابة . روى ابن منده ومحمد بن الربيع من طريق مالك بن أبى عمران عن سليمان ابن يسار أنه سئل عن النفل فى الغزو فقال : لم أر أحدا يعطيه غير أن ابن حديج نفلنا فى افريقية الثلث بعد الخمس ومعنا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين الاولين ناس كثير ، فأبى جبلة بن عمرو الانصارى أن يأخذ منه شيئا .

ومنهم الحسنان رضى الله عنهما على ما ذكره ابن خلدون وهما سيدا شباب أهل الجنة وريحانتا الرسول صلى الله عليه وسلم ، أشهر من أن يعرف بهمـا .

ومنهم الحرث بن حبيب بن خزيمة القرشى العامرى ذكره خليفة بن خياط فيمن نزل مصر من الصحابة قال : وقتل بافريقية مع معبد بن العباس ابن عبد المطلب .

ومنهم حمزة بن عمرو الاسلمى ذكره فى الاشراق .

ومنهم حبان ــ بالكسر وموحدة ــ ابن أبى جبلة قال فى الاصابة : له ادراك ، قال ابن يونس : بعثه عمر بن الخطاب الى أهل مصر يفقههم ؛

وذكره ابن حبان فى ثقات التابعين وقال غيره مات بافريقية .

ومنهم خالد بن ثابت العجلانى الفهمى ، قال ابن يونس : شهد فتح مصر وولى بحر مصر سنة احدى وخمسين ، وأغزاه مسلمة بن مخلد افريقية سنة أربع وخمسين . قال فى الاصابة : «ذكرته اعتمادا على أنهم كانوا لا يؤمرون فى الفتوح الا الصحابة . »

ومنهم ربيعة بن عباد الديلى ، ذكره الواقدى فيمن دخل مصر من الصحابة لغزو المغرب ، قال مالك : وأبوه بكسر المهملة وتخفيف الموحدة على الصواب ويقال بالفتح والتشديد ؛ ذكر خليفة وابن سعد أنه مات فى خلافة الوليد .

ومنهم رويفع بن ثابت بن السكن الانصارى ثم النجارى ولاه معاوية على طرابلس سنة ست وأربعين فغزا افريقية ، قال ابن يونس : توفى ببرقة ـ وهو أمير عليها ـ من قبل مسلمة بن مخلد سنة ست وخمسين .

ومنهم زهير بن قيس البلوى أبو شداد الآتى ذكره بعد ، قال ابن يونس : يقال له صحبة .

ومنهم سفيان بن وهب الخولانى أبو أيمن له صحبة ورواية ، شهد حجة الوداع وفتح مصر وافريقية وسكن المغرب . مات سنة احدى وتسعين .

ومنهم سلكان بن مالك ، قال محمد بن الربيع ذكره الواقدى فيمن دخل مصر لغزو المغرب .

ومنهم سلمة بن الاكوع الاسلمى الصحابى المشهور ، ذكره الواقدى فيمن دخل مصر من الصحابة لغزو المغرب ، مات بالمدينة سنة سبع وسبعين وهو ابن ثمانين سنة وكان شجاعا رأميا سابقا ، يسبق الفرس شدا على قدميه .

ومنهم العبادلة الاربعة رضى الله عنهم :

فمنهم عبد الله بن عباس ترجمان القرآن ـ أشهر من أن يعرف به ـ وهو الذى قسم غنائم افريقية يوم الفتح .

ومنهم عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما من أعلام الصحابة وعبادهم وزهادهم والمتمسكين بالسنة منهم رضى الله عنه .

ومنهم عبد الله بن الزبير بن العوام الشجاع المشهور والبطل المذكور ، وهو أول مولود ولد فى الاسلام بعد الهجرة ، وهو قاتل جرير يوم الفتح كما مر .

ومنهم عبد الله بن جعفر بن أبى طالب أحد أجواد الدنيا وأبطالها ذكر ابن خلدون انه ممن دخل افريقية غازيا ؛ فهؤلاء العبادلة الاربعة .

ومنهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح الامير المعروف ، وقد تقدم ذكره .

ومنهم عبد الله بن عمرو بن العاص الصحابى المشهور ، أسلم قبل أبيه وهو وهو أكثر الناس حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والصواب أن يجعل أحد العبادلة بدل ابن جعفر والله أعلم . قال أبو هريرة رضى الله عنه : « ما كان أحد اكثر منى حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الا ما كان من عبد الله بن عمرو فانه كان يكتب ولا أكتب» عده ابن ناجى فيمن دخل المغرب مع ابن أبى سرح .

ومنهم عبد الرحمن بن العباس بن عبد المطلب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد على عهد النبى صلى الله عليه وسلم وقتل بافريقية .

ومنهم عبيد الله بن عمر بن الخطاب ، ذكره فى الخلاصة النقية ، وكان صحابيا بالمولد قتل يوم صفين مع معاوية .

ومنهم أخوه عاصم بن عمر وصحبته بالمولد . ذكره صاحب الخلاصة أيضا .

ومنهم عبد الله بن نافع بن الحصين (١) وجهه عثمان رضى الله عنه مع ابن أبى سرح لشدة بطشه واصابة رأيه .

---

(١) هذا هو الاصح لا كما تقدم فى ولاية سعد ابن أبى سرح من أنه ابن الحارث كما عند صاحب الاكتفاء والطبرى

ومنهم عقبة بن نافع الفهرى الامير المشهور فاتح المغرب الاقصى وهـو صاحب التـرجمة .

ومنهم عثمان بن عوف المزنى على خلاف فيه .

وأما عمرو بن العاص رضى الله عنه فقد تقدم أنه انتهى الى طرابلس ولم يصل الى افريقية .

ومنهم مروان بن الحكم بن أبى العـاص الاموى ، ولد بعـد الهجـرة بسنتين ولم تحصل له رواية لانه خرج مع أبيه الى الطائف فأقام به ، ذكره صاحب الخلاصة فيمن دخل المغرب .

ومنهم مسعود بن الاسود البلوى وقيل العدوى ، قال الذهبى :«بايـع تحت الشجرة» يعد فى المصريين ، وغزا افريقية .

ومنهم المسور بن مخرمة بن نوفل الزهرى لـــه ولابيه صحبة ، قال محمد بن الربيع : دخل مصر لغزو المغرب ، مات سنة أربع وستين .

ومنهم المسيب بن حزن بن أبـــى وهب المخزومى ـ والد سعيد بن المسيب ـ له ولابيه صحبة ورواية ؛ ذكره الواقدى فيمن دخل مصر لغزو المغـرب .

ومنهم المطلب بن أبى وداعة القرشى السهمى ، له ولابيه صحبة وهما من مسلمة الفتح . قال محمد بن الربيع : دخـل مصر لغـــزو المغرب فيما ذكره الواقدى .

ومنهم معاوية بن حديج السكونى أحد الامراء وقد تقدم ذكره .

ومنهم معبد بن العباس بن عبد المطلب ابن عم النبى صلى الله عليه وسلم، قال الذهبى : ولد على عهد النبى صلى الله عليه وسلـــم واستشهد بافريقية شابا فى زمن عثمان رضى الله عنه . وحكى المؤرخون : أن معاوية بـن أبى سفيان أغزى سعيد بن عثمان بن عفان خراسان ومعه قثم بن العباس بن عبد المطلب فعبر سعيد النهر الى سمرقند فاستشهد قثم بها . وكـــان أخوه الفضل ابن عباس قد مات بأجنادين مـــن أرض الشام ، وعبد الله الترجمان مات بالطائف ، وعبيد الله الاصغر مات باليمن ، ومعبـــد بافريقية ؟ فقال الناس

لم ير مثل بنى أم واحدة أبعد قبورا من بنى العباس .

ومنهم المقداد بن الاسود الكندى ، وليس الاسود أباه ، وانما تبناه الاسود بعد عبد يغوث وهو صغير فعرف به ، وانما اسم أبيه عمرو بن ثعلبة الكندى ، كان المقداد أحد السابقين شهد بدرا وأحدا والمشاهد كلها ولم يثبت أن أحدا شهد بدرا فارسا سواه ، غزا افريقية مع ابن أبى سرح فلما رجعوا الى مصر قال له ابن أبى سرح فى دار بناها كيف ترى ؟ فقال له المقداد : ان كان من مال الله فقد أفسدت ، وان كان من مالك فقد أسرفت ، فقال ابن أبى سرح · لولا أن يقال أفسدت مرتين لهدمتها .

ومنهم المنيذر الاسلمى ، قال ابن يونس له صحبة وكان بافريقية ، وقال عبد الملك بن حبيب لم يدخل الاندلس من الصحابة الا المنيذر الافريقى.

وأما المشتهرون بكنيتهم · فمنهم أبو ذؤيب الهذلى الشاعر المشهور واسمه خويلد بن خالد أسلم على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ولم يره وقدم المدينة يوم وفاته فشهد السقيفة وبيعة أبى بكر والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ودفنه . قال ابن كثير : توفى غازيا بافريقية فى خلافة عثمان رضى الله عنه (قلت) · وهلك له خمسة أولاد بمصر بالطاعون فقال قصيدته العينية يرثيهم وهى مشهورة .

ومنهم أبو رمثة البلوى قيل اسمه رفاعة بن يثربى ، وقيل بالعكس له صحبة ورواية قال الذهبى سكن بمصر ومات بافريقية .

ومنهم أبو زمعة البلوى ، قال الذهبى اسمه عبد ـ وقيل عبيد بن أرقم ـ بايع تحت الشجرة ونزل مصر وغزا افريقية مع ابن حديج ، روى حديث الذى قتل تسعة وتسعين نفسا وسأل هل من توبة ؟ مات بافريقية ودفنت معه شعرات من شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم حسبما هو مشهور، وهو صاحب المقام خارج القيروان .

ومنهم أبو ضبيس البلوى ، قال الذهبى له صحبة ، وقال محمد بن الربيع الجيزى دخل مصر لغزو المغرب .

ومنهم أبو المبتذل خلف له صحبة ونزل افريقية : وقيل أبو المنيذر

كذا فى التجريد وغير هؤلاء ممن لم يحضرنا ذكرهم . (أخرج بـــن عبد الحكم) عن سليمان بن يسار قال : غزونا أفريقية مع ابن حديج ومعنا بشر كثير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والانصار اه . رضى الله عنهم ونفعنا بهم وحشرنا فى زمرتهم آمين .

ذكـر اختلاف العلماء في أرض المغرب هل فتحت (١) عنوة أو صلحا أو غير ذلك

قال الشيخ أبو الحسن القابسى رحمه الله فـــى شرح الموطأ فـــى كتاب الجهاد منه : اختلف الناس فى أرض المغرب هل فتحت عنـــوة أو صلحا أو مختلطة : أى البعض عنوة والبعض صلحا على ثلاثة أقوال : الاول وهو الذى يظهر من رواية ابن القاسم عن مالك أنها فتحت بالسيف عنوة لانه جعل النظر فى معادنها للامام ، ولو صح ذلك لم يجز لاحد بيـــع شىء منها كأرض مصر لانها فتحت بالسيف . (الثانى) : انها فتحت صلحا : صالح أهلها عليها ، فان كان كذلك جاز بيع بعضهم من بعض. (الثالث): انها مختلطة هرب بعضهم عن بعض وتركوها ، فمن بقى بيده شىء كان له وهو الصحيح والله أعلم .

ويحكى أن أحد عمال المنصور بن أبى عامر صاحب الاندلس حين تغلب على أرض فاس قال لهم : اخبرونى عن أرضكم أصلح هى أم عنوة ؟ فقالوا له لا جواب لنا حتى يأتى الفقيه ــ يعنون الشيخ أباجيدة ــ فجاء الشيخ المذكور فسأله العامل فقال : ليست بصلح ولا عنوة ، انما أسلم أهلهـــا عليها ! فقال : خاصكم الرجل ! وأبو جيدة هذا هو دفين باب بنى مسافر أحد أبواب فاس المحروسة رحمـــــه الله .

---

(١) انظر بسط الكلام على هذه المسألة صدر كتاب المغارسة لعبد الرحمن بن عبد القادر المجاجى فقد أجاد فيها

٩١

ولاية زهير بن قيس البلوي على المغرب ومقتل كسيلة وما يتبع ذلك

لما استقل عبد الملك بن مروان بالخلافة كان زهير مقيما ببرقة منذ مهلك عقبة بن نافع كما مر ، فبعث اليه عبد الملك بالمدد وولاه حرب البربر وأمره باستنقاذ القيروان ومن بها من المسلمين من يد كسيلة المتغلب عليها ، وحضه على الطلب بدم عقبة ، فراجعه زهير يعلمه بكثرة الفرنج والبربر فأمده بالمال ووجوه العرب وفرسانها . فزحف زهير الى المغرب سنة تسع وستين فى آلاف من المقاتلة . وجمع له كسيلة البرانس وسائر البربر ولقيه بممس (١) من نواحى القيروان ، واشتد القتال بين الفريقين ثم انهزمت البربر بعد حروب صعبة، وقتل كسيلة ووجوه من معه من البربر ومن لا يحصى من عامتهم، واتبعهم العرب الى مرماجنة ، ثم الى وادى ملوية . وفى هذه الوقعة ذل البربر وفنيت فرسانهم ورجالهم ، وخضدت شوكتهم ، واضمحل أمر الفرنجة فلم يعد . وخاف البربر من زهير والعرب خوفا شديدا فلجئوا الى القلاع والحصون ، وكسرت شوكة أوربة من بينهم ، واستقر جمهورهم بديار المغرب الاقصى ، وملكوا مدينة وليلى وكانت فيما بين موضع فاس ومكناسة بجانب جبل زرهون ولم يكن لهم بعد هذه الوقعة ذكر الى أن قدم عليهم ادريس بن عبد الله رضى الله عنه فقاموا بدعوته على ما نذكره ان شاء الله .

وأما زهير فانه لما رأى ما منحه الله من الظفر والنصر ، وساق اليه من العز والملك خشى على نفسه الفتنة ـ وكان من العباد المخبتين ـ فترك القيروان آمن ما كانت وارتحل الى المشرق ، وقال : انما جئت للجهاد فى سبيل الله ! وأخاف على نفسى أن تميل الى الدنيا ! فلما وصل الى برقة وجد أسطول الروم على قتالها فى جموع عظيمة من قبل قيصر وبأيديهم

---

(١) وضبطها ياقوت ممسى (بفتح الميم الاولى وسكون الثانية وفتح السين) ونقله التاج .

أسرى من المسلمين ، فاستغاثوا به وهو فى خف من أصحابه ، فصمد اليهم فيمن معه ، وقاتل الروم حتى قتل وقتل معه جماعة من أشراف أصحابه ، ونجا الباقون الى دمشق فأخبروا الخليفة عبد الملك بما وقع فأسفه ذلك .

ولاية حسان بن النعمان على المغرب وتخريبه قرطاجنة

لما رحل زهير بن قيس الى المشرق واستشهد ببرقة كما قدمنا اضطربت بلاد المغرب بعده واضطرمت نار الفتن ، وافترق أمر البربر وتعدد سلطانهم فى رؤسائهم . وكان من أعظمهم شوكة يومئذ الكاهنة داهيا الزناتية ثم الجراوية صاحبة جبل أوراس وكبيرة قومها جراوة والبتر . فبعث عبد الملك بن مروان الى عامله على مصر حسان بن النعمان الغسانى – وكان يقال له الشيخ الامين – يأمره أن يخرج الى جهاد البربر ، وبعث اليه بالمدد فزحف اليهم سنة تسع وستين فى أربعين ألف مقاتل ، ولما دخل القيروان سأل الافارقة عن أعظم ملوكهم فقالوا : صاحب قرطاجنة وهى المدينة العظمى قريعة رومة وضرتها واحدى عجائب الدنيا ، وكان بها يومئذ من جموع الفرنج أمم لا تحصى ، فصمد اليها حسان وافتتحها وقتل أكثر من بها ونجا فلهم فى المراكب الى صقلية والاندلس ، ولما انصرف حسان عنها دخلها أقوام من أهل الضواحى والبادية وتحصنوا بها فرجع اليهم وقاتلهم أشد قتال ، فافتتحها عنوة وأمر بتخريبها واعفاء رسمها وكسر قنواتها فذهبت كأمس الدابر ، ولم يبق بها الآن الا آثار خفيفة تدل على ما كان بها من عجيب الصنعة واحكام العمل . وبأنقاضها عمرت مدينة تونس كما فى القاموس .

ثم بلغ حسان أن البربر والفرنج قد عسكروا فى جموع عظيمة ببلاد سطفورة وبنزرت ، فصمد اليهم وهزمهم وشرد بهم من خلفهم وانحاز فلهم الى باجة وبونة . ورجع حسان الى القيروان فأراح بها أياما ثم سأل عن بقية الملوك المخالفة ، فدلوه على الكاهنة داهيا وقومها جراوة وهم ولد

جراو بن الديديت بن زانا ، وزانا هو أبـو زناتة وكان لهذه الكاهنة بنون ثلاثة ورثوا رياسة قومهم عــن سلفهم وربوا فى حجرها فاستبدت عليهم واعتزت على قومها بهم وبما كان لها من الكهانــة والمعرفة بغيب أحوالهم وعواقب أمورهم فانتهت اليها رياستهم ووقفوا عند اشارتها ، قـال هانىء بن بكور الضريسى : ملكت عليهـم خمسا وثلاثين سنة وعاشت مائـة وسبعا وعشرين سنة وكان قتل عقبة بن نافع وأصحابه فى البسيط قبلة جبل أوراس باغرائها برابرة الزاب عليه ، وكان المسلمون يعرفون ذلك منها ، فلمـا قتـل كسيلة وانفضت جموع البربر رجعوا الى هذه الكاهنة بمعتصمها من جبــل أوراس ، وقد انضم اليها بنو يفرن ومن كان بافريقية من قبائل زناتة وسائر البتر ؛ فسار اليها حسان حتى نزل وادى مليانة وزحفت هى اليه ، فـاقتتلوا بالبسيط أمام جبلها قتالا شديدا ثم انهزم المسلمون وقتل منهم خلق كثير وأسر خالد بن يزيد القيسى فى ثمانين رجلا من وجوه العرب . ولم تـزل الكاهنة والبربر فى اتباع حسان والعرب حتى أخرجوهم من عمل قابس ، ولحق حسان بعمل طرابلس فلقيه هناك كتاب عبد الملك يأمره بالمقـام حيث يصله كتابه ، فأقام ببرقة وبنى قصوره المعروفة لهذا العهد بقصـور حسان . ثم رجعت الكاهنة الى مكانها من الجبل وأطلقت أسرى المسلمين سوى خالد فانها اتخذت عنده عهدا بارضاعه مع ولديها وصيرته أخا لهما ، وأقـامت فى سلطان افريقية والبربر خمس سنين بعد هزيمة حسان . ونفت العرب عـن بلاد المغرب ، وقالت لقومها : « انما تطلب العرب من المغرب مدنـه وما فيهـا من الذهب والفضة ، ونحن انما نريد المزارع والمراعى فالـرأى أن نخرب هذه المدن والحصون ونقطع أطماع العرب عنها » .

قال ابن خلدون : وكانت المدن والضيـاع من طرابلس الى طنجة ظـلا واحدا فى قرى متصلة فخربت الكاهنة ديار المغرب ، وعضدت أشجاره ومحت جماله ، وجاست بالفساد خلاله ، فشق ذلك على البربر واستأمنوا الى حسـان، وكان عبد الملك قد بعث اليه بالمدد فأمنهم ووجد السبيل الى تفريق أمرها ، ثم دس الى خالد بن يزيد يستعلمه أمرها فأطلعه على كنه خبرها واستحثه ،

فزحف الى المغرب سنة أربع وسبعين ، وبرزت اليه فأوقع بها وبجموعها وقتلها واحتز رأسها عند البئر المعروفة بها لهذا العهد من جبل أوراس ، ثم اقتحم الجبل عنوة واستلحم فيه زهاء مائة ألف من البربر ، واستأمن اليه باقيهم على الاسلام والطاعة ، وشرط عليهم حسان أن يكون معه منهم اثنا عشر ألفا لا يفارقونه فى مواطن جهاده ، فأجابوا وأسلموا وحسن اسلامهم، وعقد للاكبر من ولدى الكاهنة على قومه من جراوة وعلى جبل أوراس ، فقالوا قد لزمتنا له الطاعة وسبقنا اليها وبايعناه عليها ، وكان ذلك باشارة من الكاهنة لاثارة من علم كانت لديها بذلك من شياطينها .

وانصرف حسان الى القيروان مؤيدا منصورا وثبت ملكه واستقام امره، فدون الدواوين وكتب الخراج على عجم أفريقية ومن أقام معهم على النصرانية من البربر . ثم أوعز اليه الخليفة عبد الملك باتخاذ دار الصناعة بتونس لانشاء الآلات البحرية حرصا على مراسم الجهاد ومنها كان فتح صقلية أيام زيادة الله الاول من بنى الاغلب على يد أسد بن الفرات – شيخ الفتيا وصاحب الامام ابن القاسم – بعد أن كان معاوية ابن حديج أغزى صقلية أيام ولايته على المغرب فلم يفتح الله عليه، وفتحت على يد ابن الاغلب وقائده ابن الفرات كما قلنا . واستمر حسان واليا على المغرب الى أن عزله عبد العزيز بن مروان صاحب مصر وكان أمر المغرب اذذاك اليه ، فاستخلف حسان على المغرب رجلا من جنده اسمه صالح ، وارتحل الى المشرق بما جمعه من ذريع المال ورائع السبى ونفيس الذخيرة . فلما انتهى الى مصر أهدى الى عبد الله مائتى جارية من بنات ملوك الفرنج والبربر فلم يقنعه ذلك وانتزع كثيرا مما بيده ، ولما قدم على الخليفة بدمشق وهو يومئذ الوليد بن عبد الملك شكا اليه ما صنع به عمه عبد العزيز فغاظه ذلك وانكره ، ثم أهدى اليه حسان من غريب النفائس التى أخفاها عن عبد الله ما استعظمه الوليد وشكره عليه ووعده برده الى عمله ، فحلف حسان أن لا يلى لبنى أمية عملا أبدا .

وذكر البكرى أن حسان بن النعمان هذا هو فاتح تونس . وقال غيره بل فاتحها زهير بن قيس البلوى . ولم تتوفر الدواعى على تحقيق ذلك لانها

لم تكن يومئذ قاعدة ملك وانما عظم أمرها فى دولة الحفصيين فمن بعدهم والله تعالى أعلم .

ولاية موسى بن نصير على المغرب وفتحه الاندلس

لما ارتحل حسان بن النعمان الى المشرق اختلفت أيدى البربر فيما بينهم على افريقية والمغرب ، فكثرت الفتن وخلت أكثر البلاد حتى قدم موسى بن نصير فتلافى أمرها ولم شعثها .

قال الحافظ أبو عبد الله الحميدى فى جذوة المقتبس : ولى موسى بن نصير افريقية والمغرب سنة سبع وسبعين . وقال غيره : سنة سبع وثمانين (١)

وقال ابن خلكان : كان موسى بن نصير من التابعين . وروى عن تميم الدارى رضى الله عنه : وكان عاقلا كريما شجاعا ورعا متقيا لله تعالى لم يهزم له جيش قط . ولما قدم المغرب وجد أكثر مدنه خالية لاختلاف أيدى البربر عليها وكانت البلاد فى قحط شديد فأمر الناس بالصوم والصلاة واصلاح ذات البين ، وخرج بهم الى الصحراء ومعه سائر الحيوانات ففرق بينها وبين أولادها فوقع البكاء والصراخ ، وأقام على ذلك الى منتصف النهار ثم صلى وخطب الناس ولم يذكر الوليد بن عبد الملك فقيل له ألا تدعو لامير المؤمنين؟ فقال هذا مقام لايدعى فيه غير الله عز وجل، فسقوا حتى رووا . وقال ابن خلدون: كتب الخليفة الوليد بن عبد الملك الى عمه (٢) عبد الله بن مروان وهو

---

(١) وفى بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد : سنة ٨٣ ص ٧٧ طبع الجزائر سنة ١٣٢١ – ١٩٠٣

(٢) صوابه أخيه عبد الله بن عبد الملك لانه هو الذى كان واليا على مصر زمن خلافة الوليد . وأما عبد العزيز بن مروان عم الوليد فقد كان واليا على مصر قبل عبد الله بن عبد الملك ، وتوفى فى أواخر خلافة أخيه عبد الملك كما يعلم ذلك من مراجعة أصول التاريخ خصوصا تواريخ مصر ، وكتاب الامامة والسياسة لابن قتيبة والله أعلم .

على مصر ـ ويقال عبد العزيز ـ أن يبعث بموسى بن نصير الى أفريقية وكان أبوه نصير من حرس معاوية فبعثه عبد الله فقدم القيروان وبها صالح خليفة حسان فعزله ورأى أن البربر قد طمعت فى البلاد فوجه البعوث فى النواحى وبعث ابنه عبد الله فى البحر الى جزيرة ميورقة فغنم وسبى وعاد . ثم بعثه الى ناحية أخرى وبعث ابنه مروان كذلك وتوجه هو الى ناحية فغنموا وسبوا وعادوا وبلغ الخمس من المغنم سبعين ألف رأس من السبى .

قال أبو شعيب الصدفى : لم يسمع فى الاسلام بمثل سبايا موسى بن نصير ونقل الكاتب أبو اسحق ابراهيم بن القاسم القروى المعروف بابن الرفيق أن موسى بن نصير لما فتح سقوما كتب الى الوليد بن عبد الملك : أنه صار لك من سبى سقوما مائة ألف رأس ! فكتب اليه الوليد : ويحك انى أظنها من بعض كذباتك ، فان كنت صادقا فهذا محشر الامة .

ثم خرج موسى غازيا أيضا ، وتتبع البربر وقتل فيهم قتلا ذريعا وسبى سبيا عظيما وتوغل فى جهات المغرب حتى انتهى الى السوس الادنى، ثم تقدم الى سبتة فصانعه صاحبها يليان الغمارى بالهدايا وأذعن للجزية ـ وكان نصرانيا ـ فأقره عليها واسترهن ابنه وأبناء قومه على الطاعة فلما رأى بقية البربر ما نزل بهم استأمنوا لموسى وبذلوا له الطاعة فقبل منهم وولى عليهم . (وقال ابن خلدون أيضا) : غزا موسى بن نصير طنجة وافتتح درعة وصحراء تافيلالت وأرسل ابنه الى السوس فاذعن البربر لسلطانه وأخذ رهائن المصامدة فأنزلهم بطنجة وذلك سنة ثمان وثمانين وولى عليها طارق بن زياد الليثى . قال : وأنزل معه سبعة وعشرين ألفا من العرب واثنى عشر ألفا من البربر وأمرهم أن يعلموا البربر القرآن والفقه . قال : ثم أسلم بقية البربر على يد اسمعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر سنة احدى ومائة أيام عبد العزيز رضى الله عنه اه .

ولما استقرت القواعد لموسى بالمغرب كتب الى طارق ـ وهو بطنجة ـ يأمره بغزو الاندلس فغزاها فى اثنى عشر ألفا من البربر وخلق يسير من

العرب ، وعبر البحر من سبتة الى الجزيرة الخضراء (١) وصعد الجبل المنسوب اليه ــ المعروف اليوم بجبل طارق ــ يوم الاثنين لخمس خلون من رجب سنة اثنتين وتسعين للهجرة . وذكر عن طارق أنه كان نائما وقت العبور فى المركب فرأى النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الاربعة يمشون على الماء حتى مروا به فبشره النبى صلى الله عليه وسلم بالفتح ، وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد . ذكر ذلك ابن بشكوال .

وقال ابن خلدون فى أخبار الاندلس : ان أمة القوط ملكوا جزيرة الاندلس نحو أربعمائة سنة الى أن جاء الله بالاسلام والفتح ، وكان ملكهم لذلك العهد يسمى لذريق ــ وهو سمة ملوكهم كجرجير سمةملوك صقلية ــ وكانت لهم خطوة وراء البحر فى هذه العدوة الجنوبية خطوها من زقاق البحر الى بلاد البربر واستعبدوهم . وكان ملك البربر بذلك القطر الذى هو اليوم جبال غمارة يسمى يليان وكان يدين بطاعتهم وبملتهم ، وموسى بن نصير ــ أمير العرب اذذاك ــ عامل بافريقية من قبل الوليد بن عبد الملك ومنزله بالقيروان ، وكان قد أغزا لذلك العهد عساكر المسلمين بلاد المغرب الاقصى ودوخ أقطاره وأوغل فى جبال طنجة حتى وصل الى خليج الزقاق واستنزل يليان لطاعة الاسلام ، وخلف مولاه طارق بن زياد واليا بطنجة وكان يليان ينقم على لذريق ملك القوط بالاندلس فعلة فعلها ــ زعموا ــ بابنته الناشئة فى داره على عادتهم فى بنات بطارقتهم فغضب لذلك وأجاز الى لذريق فأخذ ابنته منه .

قلت : يعنى أنه كان من عادة أكابر العجم بالاندلس أن يبعثوا أولادهم الذين يريدون التنويه بهم الى دار الملك الاكبر بطليطلة ليصيروا فى خدمته ويتأدبوا بآدابه وينالوا من كرامته، حتى اذا بلغوا أنكح بعضهم بعضا وتحمل

---

(١) قال صاحب المعجب : فأول موضع نزله فيما يقال منها المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء اليوم نزلها قبل الفجر وصلى بها الصبح بموضع منها وعقد الرايات لاصحابه فبنى بعد ذلك هناك مسجدا وعرف بمسجد الرايات

صدقاتهم ، وتولى تجهيز اناثهم استئلافا لآبائهم . فاتفق أن فعل ذلك يليان عامل لذريق على سبتة ـ وكان أهلها نصارى ـ فبعث بابنة له بارعة الجمال تكرم عليه الى دار لذريق فوقعت عينه عليها فأعجبته وأحبها ، ولم يتمالك أن استكرهها فافتضها ، فاحتالت حتى أعلمت أباها سرا فأحفظه ذلك وحمى أنفه وقال : «ودين المسيح لازيلن ملكه ، ولاحفرن ما تحت قدميه» فكان امتعاضه من فاحشة ابنته هو السبب فى فتح الاندلس مع سابق القدر . ثم أن يليان عبر البحر من سبتة فى صنبر قلب الشتاء وأصعب الاوقات ، فقدم طليطلة واجتمع بالملك فأنكر مجيئه فى ذلك الوقت وسأله عن السبب ، فذكر خيرا واعتل بأن زوجته قد اشتد شوقها الى رؤية ابنتها ، وانه أحب اسعافها بطلبتها ، وسأل الملك تمكينه منها وتعجيل سراحه الى عمله ، ففعل وأحسن جائزة الجارية ، وتوثق منها بالكتمان ، وأفضل على أبيها وانقلب راجعا ، وذكروا أنه لما ودعه قال له لذريق : اذا قدمت علينا فاستفره لنا من الشذانقات التى لم تزل تطرفنا بها فانها آثر جوارحنا لدينا ـ يعنى بذلك طيورا فارهة كانت تتخذ للاصطياد ـ فقال له : « أيها الملك وحق المسيح لئن بقيت لادخلن عليك شذانقات ما دخل عليك مثلها قط » يعرض له بما أضمره من ادخال العرب عليه ثم لحق يليان بطارق بن زياد وهو بطنجة فكشف له عورة القوط ، فانتهز طارق الفرصة لوقته وأجاز البحر سنة اثنتين وتسعين من الهجرة باذن أميره موسى بن نصير فى نحو ثلاثمائة من العرب ، واحتشد معهم من البربر زهاء عشرة آلاف ، وصيرهم عسكرين : أحدهما على نفسه ونزل به جبل الفتح فسمى جبل طارق به . والآخر على طريف بن مالك النخعى ونزل بمكان مدينة طريف فسميت به ، وأداروا الاسوار على أنفسهم للتحصن . وبلغ الخبر لذريق فنهض اليهم يجر أمم الاعاجم وأهل ملة النصرانية فى زهاء أربعين ألفا ، فالتقوا بفحص شريش فهزمه الله ونفلهم أموال أهل الكفر ورقابهم . وكتب طارق الى موسى بالفتح والغنائم فحركته الغيرة وكتب الى طارق يتوعده ان توغل بغير اذنه ، ويأمره أن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به ، واستخلف على القيروان ولده عبد الله وخرج

معه حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى . ونهض مـن القيروان سنة ثلاث وتسعين فى عسكر ضخم من وجوه العرب والموالى وعرفاء البربر فوافى خليج الزقاق ما بين طنجة والجزيرة الخضراء فأجاز الى الاندلس ، وتلقاه طارق فانقاد واتبع . ويقال ان موسى لما سار الى الاندلس عبر البحر اليها من ناحية الجبل المنسوب اليه — المعروف اليوم بجبـل موسى — وتنكب النزول على جبل طارق وتمم الفتح وتوغل فى الاندلس الى برشلونة فى جهة الشرق وأربونة فى الجوف وصنم قادس فـى العرب ، ودوخ أقطارها وجمع غنائمها وأجمع أن يأتى المشرق من ناحية القسطنطينية ويتجاوز الى الشام دروب الاندلس ودروبه ويخوض اليه ما بينهما مـن بلاد الاعاجم وأمم النصرانية ، مجاهدا فيهم ومستلحما لهم الى أن يلحق بدار الخلافة من دمشق . ونمى الخبر الى الخليفة الوليد فاشتد قلقه بمكان المسلمين مـن دار الحرب ورأى أن ما هم به موسى تغرير بالمسلمين ، فبعث اليه بالتوبيـخ والانصراف ، وأسر الى سفيره أن يرجع بالمسلمين ان لـم يرجـع هو ، وكتب له بذلك عهده ، ففت ذلك فى عزم موسى وقفل عن الاندلس بعد أن أنزل الرابطة والحامية بثغورها واستعمل ابنه عبد العزيز لسدها وجهاد عدوها وأنزله بقرطبة فاتخذها دار امارة . واحتـل موسى بالقيروان سنة خمس وتسعين ، وارتحل الى المشرق سنة ست بعدها بمـا كـان معه من الغنائم والذخائر والاموال على العجل والظهر ، يقال ان مـن جملتها ثلاثين ألف رأس من السبى . وولى على افريقية ابنـه عبد الله واندرجت ولايـة الاندلس يومئذ فى ولاية المغرب ، فكان صاحب القيروان ناظرا فى الجميع. وقدم موسى على سليمان بن عبد الملك — وقد ولى الخلافـة بعد الوليد — فسخطه ونكبه . وثارت عساكر الاندلس بابنه عبد العزيز فقتلـوه لسنتين من ولايته باغراء الخليفة سليمان . وكان خيرا فاضلا . وافتتـح فى ولايته مدائن كثيرة . وكان الذى تولى قتله حبيب بن أبى عبيدة الفهرى . وكـان سبب غضب سليمان على موسى : أنه لما توجه الى المشرق وانتهى الى مصر وصل أشرافها وفقهاءها وبلغه الخبر بمرض الوليد ووافاه كتابه يستحثه على

القدوم ، ووافاه كتاب آخر من أخيه سليمان يثبطه فأسرع موسى اللحاق بالوليد فقدم عليه قبل وفاته بثلاثة أيام ، ودفع اليه ما معه من الذخائر والاموال ، فغاظ ذلك سليمان وأساء مكافأته حين أفضى الامر اليه فنكبه ونكب آل بيته أجمع . وكانت وفاة موسى رحمه الله بالمدينة المنورة سنة ثمان وتسعين وقيل غير ذلك .

قال الشيخ أبو محمد بن أبى زيد القيروانى : ارتدت البربر اثنتى عشرة مرة من طرابلس الى طنجة ، ولم يستقر اسلامهم حتى عبر موسى ابن نصير البحر الى الاندلس وأجاز معه كثيرا من رجالات البربر برسم الجهاد . فاستقروا هنالك فحينئذ استقر الاسلام بالمغرب وأذعن البربر لحكمه، وتناسوا الردة ثم نبضت فيهم عروق الخارجية بعد على ما نذكره .

ولاية محمد بن يزيد على المغرب

لما ارتحل موسى بن نصير الى المشرق ونكبه الخليفة سليمان كما قلنا عزل ابنه عبد الله عن المغرب وولى مكانه محمد بن يزيد مولى قريش ويقال مولى الانصار . فقدم القيروان سنة سبع وتسعين ، وكان سليمان قد أمره باستئصال آل موسى بن نصير واصطلام نعمتهم فأتى على ذلك . ثم لما قتل أهل الاندلس أميرهم عبد العزيز بن موسى ولوا عليهم أيوب بن حبيب اللخمى — وهو ابن أخت موسى — فوجه محمد بن يزيد الحر بن عبد الرحمن بن عثمان الثقفى واليا من قبله على الاندلس فقدمها واستقر أميرا بها سنتين وثمانية أشهر . قالوا وكان محمد بن يزيد هذا عادلا حسن السيرة ، قاتل المخالفين بثغور المغرب وغنم وسبى ولم يزل واليا عليه حتى مات سليمان . فكانت ولايته سنتين وأشهرا والله أعلم .

ولاية اسمعيل بن عبيد الله بن ابى المهاجر على المغرب

لما توفى سليمان بن عبد الملك رحمه الله وولى الخلافة بعده عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه استعمل على المغرب اسمعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر مولى بنى مخزوم ، فقدم القيروان سنة مائة وكان خير أمير وخير وال ، ولم يزل حريصا على دعاء البربر الى الاسلام حتى تم اسلامهم على يده وبث فيهم من فقههم فى دينهم .

وذكر أبو العرب (١) محمد بن أحمد بن تميم فى تاريخ افريقية أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أرسل عشرة من التابعين يفقهون أهل المغرب فى الدين منهم : حبان بن أبى جبلة (٢) .

ولما توفى عمر بن عبد العزيز سنة احدى ومائة وبويع يزيد بن عبد الملك ، وجه يزيد بن أبى مسلم الثقفى واليا على المغرب على ما نذكره :

---

(١) هو أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمى ، ولد بالقيروان أواسط القرن الثالث . ومات سنة ٣٣٣ . له كتاب «طبقات علماء افريقية . وقد ذيل هذا التأليف محمد بن الحارث بن اسد ، ولابى العرب أيضا كتاب التاريخ فى سبعة عشر جزءا . اهـ . أنظر ترجمته فى معالم الايمان جزء ثالث صفحة ٤٢ وما بعدها . وفى المدارك لعياض أيضا .

(٢) القرشى مولاهم المصرى ، توفى سنة ١٢٢ للهجرة

١٠٢

ولاية يزيد بن ابى مسلم على المغرب

هو يزيد بن أبى مسلم دينار – مولى الحجاج بن يوسف الثقفى الظالم المشهور – وكان يزيد هذا كاتبه وصاحب شرطته . قال ابن خلكان : «كانت فيه كفاية ونهضة قدمه الحجاج بسببهما»

وكان من خبره ان الحجاج لما حضرته الوفاة استخلف يزيد هذا على خراج العراق ، فأقره الوليد بن عبد الملك واغتبط به ، وقال : «ما مثلى ومثل الحجاج وابن أبى مسلم بعده الا كرجل ضاع منه درهم فوجد دينارا»

ولما مات الوليد وولى بعده أخوه سليمان عزل ابن أبى مسلم وأمر به فأحضر بين يديه فى جامعة – وكان رجلا قصيرا دميما قبيح الوجه عظيم البطن تحتقره العين – فلما نظر اليه سليمان قال : «أنت يزيد بن أبى مسلم؟» قال : «نعم أصلح الله أمير المؤمنين» قال : «لعن الله من أشركك فى أمانته وحكمك فى دينه !» قال : «لا تفعل ياأمير المؤمنين فانك رأيتنى والامر عنى مدبر ! ولو رأيتنى والامر على مقبل لاستعظمت ما استصغرت ! ولاستجللت ما احتقرت !» فقال سليمان : «قاتله الله فما أربط جاشه ! وأعضب لسانه» ودارت بينه وبين سليمان محاورات غير هذه ، ثم كشف عنه فلم يجد عليه خيانة فهم باستكتابه فقال عمر بن عبد العزيز : «أنشدك الله ياأمير المؤمنين أن لا تحيى ذكر الحجاج باستكتاب كاتبه » فقال : «انى كشفت عنه فلم أجد عليه خيانة ياأبا حفص !» فقال عمر : «أنا أوجدك من هو أعف عن الدينار والدرهم منه» فقال سليمان : «من هو ؟» قال : «ابليس ما مس دينارا ولا درهما قط وقد أهلك هذا الخلق !» فتركه سليمان

وحدث جويرية بن أسماء أن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة بلغه أن يزيد بن أبى مسلم خرج فى جيش من جيوش المسلمين ، فكتب الى عامل الجيش برده وقال : «انى لاكره أن أستنصر بجيش هو فيهم» فلما توفى عمر رضى الله عنه وأفضت الخلافة الى يزيد بن عبد الملك عزل اسمعيل

ابن عبيد الله عن المغرب وولى مكانه يزيد بن أبى مسلم فأساء السيرة ، قالوا : ووجه عنبسة بن سحيم الكلبى واليا من قبله على الاندلس فاستقام على يده أمرها . ثم ثار أهل المغرب بابن أبى مسلم فقتلوه سنة ثنتين ومائة لشهر من ولايته .

قال الطبرى : وكان سبب ذلك أنه كان قد عزم أن يسير فى أهل المغرب بسيرة الحجاج فى أهل العراق ، فان الحجاج كان وضع الجزية على رقاب الذين أسلموا من أهل السواد وأمر بردهم الى قراهم ورساتيقهم على الحالة التى كانوا عليها قبل الاسلام ، فلما عزم يزيد على ذلك تآمر البربر فيه وأجمعوا على قتله فقتلوه وولوا عليهم محمد بن يزيد الذى كان قبله فيما ذكره الطبرى ـ وكان غازيا بصقلية ـ فلما قدم بمغانمه ولوه أمرهم . (وقال ابن عساكر) : «ولوا بعده اسمعيل بن عبيد الله» والله أعلم .

ثم كتب أهل المغرب الى الخليفة يزيد : «انا لم نخلع يدا من طاعة ، ولكن يزيد بن أبى مسلم سامنا ما لايرضى به الله ورسوله . فقتلناه وأعدنا عاملك .» فكتب اليهم يزيد : «انى لم أرض ما صنع ابن أبى مسلم» وأقر محمد بن يزيد على المغرب وذلك فى سنة اثنتين ومائة كما قلنا .

وحدث الوضاح بن أبى خيثمة ـ وكان حاجب عمر بن عبد العزيز ـ قال : «أمرنى عمر بن عبد العزيز ـ يعنى فى مرض موته ـ باخراج قوم من السجن وفيهم يزيد بن أبى مسلم فأخرجتهم وتركته فحقد على . فلما مات عمر هربت الى افريقية خوفا منه .» قال : فبينا أنا بافريقية اذ قيل قدم بن أبى مسلم واليا . فاختفيت فأعلم بمكانى وأمر بى فحملت اليه، فلما رآنى قال : «طالما سألت الله أن يمكننى منك» فقلت : «وأنا والله لطالما سألت الله أن يعيذنى منك» فقال : «ما أعاذك الله ، والله لاقتلنك ولو سابقنى فيك ملك الموت لسبقته» ثم دعا بالسيف والنطع فأتى بهما وأمر بالوضاح فاقيم عليه مكتوفا وقام السياف وراءه ، ثم أقيمت الصلاة فتقدم يزيد اليها فلما سجد أخذته السيوف ، ودخل على الوضاح من قطع كتافه وأطلقه فسبحان اللطيف الخبير .

١٠٤

ولاية بشر بن صفوان على المغرب

لما كتب أهل المغرب الى الخليفة يزيد بن عبد الملك بما كـان منهم الى ابن أبى مسلم وما اعتذروا به فى شأنه ، أقـر عليهم محمد بـن يزيد أو اسمعيل بن عبيد الله على الخلاف المتقدم ما شاء الله . ثـم ولى عليهم بشر ابن صفوان الكلبى ـ وكان واليا على مصر ـ فقدم القيروان سنة ثلاث ومائة فمهد المغرب وسكن أرجاءه واستصفى بقايا آل موسى بن نصير . ثـم وفد على يزيد بن عبد الملك فوجده قد مات ، وبويع هشام بـن عبد الملك فرده هشام الى عمله من المغرب فاستقر بالقيروان واستدعى منه أهل الاندلس واليا يقوم بأمرهم ـ وذلك بعد مقتل عنبسة بن سحيم الكلبى شهيدا فى بعض غزوات الفرنج ـ فولى عليهم يحيى بـن سلمة الكلبى فقدم الاندلس آخر سنة سبع ومائة فأصلح شأنها . ثـم غزا بشر بن صفوان صقلية بنفسه سنة تسع ومائة فأصاب سبيا كثيرا ورجـع الى القيروان منصورا فكانت منيتـه عقب ذلـك .

ولاية عبيدة بن عبد الرحمن على المغرب

لما توفى بشر بن صفوان وانتهى الخبر الى الخليفة هشام بن عبد الملك ولى على المغرب عبيدة بن عبد الرحمن السلمى وهو ابن أخى أبى الاعور السلمى وقيل ابن ابنه فقدم القيروان سنة عشر ومائة ، ونظر فى أمر المغرب والاندلس معا ، وولى من قبله على الاندلس ولاة أربعة واحدا بعد واحد وهم : عثمان ابن أبى نسعة الخثعى وحذيفة بن الاحوص القيسى والهيثم بن عبيد الكلابى ومحمد بن عبد الله الاشجعى . وكان عبيدة بن عبد الرحمن قد أخذ عمال بشر بن صفوان قبله وعذبهم ، فكتب بعضهم بذلك الى الخليفة هشام فعزله لاربع سنين وستة أشهر من ولايته .

ولاية عبيد الله بن الحبحاب على المغرب

عبيد الله هذا هو مولى بنى سلول . وكان رئيسا نبيلا وأميرا جليلا وخطيبا مصقعا ، ولاه هشام بن عبد الملك على المغرب بعد عزل عبيدة بن عبد الرحمن عنه ، وأمره أن يمضى اليه (١) من مصر ، فاستخلف عبيد الله على مصر ابنه أبا القاسم وسار الى المغرب ، فقدم القيروان فى ربيع الآخر سنة أربع عشرة (٢) ومائة ، واستعمل عمر بن عبيد الله المرادى على طنجة والمغرب الاقصى ، واستعمل ابنه اسمعيل بن عبيد الله معه على السوس وما وراءه ، واستعمل على الاندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى فكانت له فى الفرنجة وقائع ، وأصيب جيشه فى رمضان من السنة المذكورة فى موضع يعرف ببلاط الشهداء وبه عرفت الغزوة (٣)

ثم ولى عبيد الله على الاندلس عبد الملك بن قطن الفهرى ثم بعده عقبة بن الحجاج السلولى فكان محمود السيرة وتمكن سلطان عبيد الله بالمغرب وبنى جامع الزيتونة بتونس ، لكن صحح صاحب المؤنس أن أول مختط الجامع المذكور حسان بن النعمان وتممه عبيد الله هذا . واتخذ بها دار صناعة لانشاء المراكب البحرية . ثم بعث حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة

---

(١) أصل ما ذكره المؤلف هنا من كون ابن الحبحاب كان واليا على مصر لابن خلدون فى الجزء الرابع صحيفة ٨٩١ من الطبعة المصرية وكذلك لابن الاثير فى سنة ١٣١ والعجب أن مؤرخى مصر لم يعدوه فى ولاة مصر

(٢) الذى عند ابن الاثير صاحب الخلاصة النقية سنة ست عشرة ومائة .

(٣) هذه الغزوة هى المعروفة عند الافرنج بمعركة (بواتيى Poitiers سنة ٧٣٢ ميلادية الموافقة للتاريخ الهجرى المذكور عند المؤلف وذلك أن العرب لما فتحوا اسبانيا تجاوزوا جبال البيرينى ودخلوا فرنسا واحتلوا بوردو وتوغلوا فيها حتى وصلوا الى ضفاف نهر لوار وامتلكوا عدة مدن

ابن نافع الفهرى غازيا أرض المغرب فانتهى الى السوس الاقصى وقاتل مسوفة ثم تخطاهم الى تخوم السودان وأصاب من مغانم الذهب والفضة والسبى شيئا كثيرا . ودوخ بلاد البربر وقبائلها ورجع . ثم أغزاه ثانية جزيرة صقلية فركب البحر اليهم سنة اثنتين وعشرين ومائة ومعه ابنه عبد الرحمن ابن حبيب فنازل سرقوسة أعظم مدن صقلية وضرب على أهلها الجزية وأثخن فى سائر الجزيرة .

وكان عمر بن عبيد الله فى هذه المدة بطنجة قد أساء السيرة فى برابرة المغرب الاقصى وأراد أن يخمس من أسلم منهم وزعم أنه الفىء ، فنفرت قلوب البربر عنه وأحسوا بأنهم طعمة للعرب ، وثقلت عليهم وطأة عمال ابن الحبحاب جملة بما كانوا يطالبونهم به من الوظائف البربرية مثل الادم العسلية الاولوان وانواع طرف المغرب ، فكانوا يتغالون فى جمع ذلك وانتخابه حتى كانت الصرمة من الغنم تهلك ذبحا لاتخاذ الجلود العسلية من سخالها ولا يوجد فيها مع ذلك الا الواحد وما قرب منه ، فكثر عيثهم بذلك فى أموال البربر فأجمعوا الانتقاض ، وبلغهم مسير العساكر مع حبيب بن أبى عبيدة الى صقلية فجرأهم ذلك على مرادهم ، وثار ميسرة المضغرى بأحواز طنجة على ما نذكره .

مهمة كليون وديجون وبلفور . ولم يقدر أود دوق أو كيتانيا على مقاومتهم اذذاك فاستعان عليهم بشال مارتيل أحد ملوك العائلة الكرولانجية فحاربهم بالمحل المذكور أعلاه وقتل أمير جيشهم عبد الرحمن الغافقى المذكور كما عند المؤلف . وبعد المعركة انسحب العرب تحت جناح الظلام راجعين =

= الى الاندلس وتركوا محلتهم وأخبيتهم بيد الافرنج فارغة ، فلما أصبحوا استولوا عليها وكانت هذه الوقعة آخر عهد العرب بفرنسا وصرفوا وجهتهم عن زيادة التوغل فى فتح أوروبا من هذه الناحية . وتفاصيل هذه المعركة مبسوطة فى تواريخ الاروباويين ـ وخصوصا الفرنسيين منهم ـ لانها كانت فى بلادهم فليرجع اليها من أراد زيادة استيعاب الكلام عليها .

وكانت بدعة الخارجية يومئذ قد سرت فى البربر وتلقنها رؤوسهم عن عرب العراق الساقطين الى المغرب نزعوا بها الى الاطراف داعين أغمار الامم اليها عسى أن تكون لهم دولة ، فاستحكمت صبغتها فى طغام البربر ووشجت فيهم عروقها فكان ذلك من أقوى البواعث والاسباب فى خرق حجاب الهيبة على الخلفاء وانتقاض البربر على العرب ومزاحمتهم لهم فى سلطانهم .

ولنذكر هنا أصل الخوارج وفرقهم على الجملة ثم نعود الى موضوعنا الذى كنا فيه فنقول : قد تقدم لنا فى خلافة على بن أبى طالب رضى الله عنه ما كان من أمر التحكيم وما نشأ عنه من خروج طائفة من القراء عليه وقالوا : «حكمت الرجال فى دين الله ! ولا حكم الا لله !» وأن عليا رضى الله عنه استأصلهم بالنهروان فقال له بعض أصحابه : «قد قطع الله دابرهم آخر الدهر» فقال على رضى الله عنه : «والذى نفسى بيده انهم لفى أصلاب الرجال وأرحام النساء ! لا تخرج خارجة الا خرجت بعدها مثلها ! » فصدق الله قول على ونبغت منهم طوائف بالعراق وغيره وتكرر خروجهم على الخلفاء وشرى دأؤهم وأعيى دواؤهم وتعددت فرقهم ومذاهبهم .

قال ابن خلدون : «افترقت الخوارج على أربع فرق :

الاولى : الازارقة أصحاب نافع بن الازرق الحنفى ، وكان رأيه البراءة من سائر المسلمين وتكفيرهم والاستعراض ، يعنى القتل من غير سؤال عن حال أحد ، وقتل الاطفال واستحلال الامانة لانه براهم كفارا .

الثانية النجدية : ويقال لهم : النجدات أصحاب نجدة بن عامر الحنفى وهم بخلاف الازارقة فى ذلك كله .

الثالثة الاباضية : أصحاب عبد الله بن أباض التميمى ثم الصريمى ، وهم يرون أن المسلمين كلهم يحكم لهم بحكم المنافقين فلا ينتهون الى الرأى الاول ، ولا يقفون عند الثانى ، ولا يحرمون مناكحة المسلمين ولا موارثتهم ، وهم عندهم كالمنافقين : ومن هؤلاء : البيهسية : أصحاب أبى بيهس هيصم بن جابر الضبعى .

الرابعة الصفرية : وهم موافقون للاباضية الا فى القعدة ، يعنى :

الذين يقعدون عن القتال معهم فان الاباضية أشد على القعدة منهم ، وربما تشعبت هذه الآراء بعد ذلك .

واختلف فى تسمية الصفرية فقيل نسبوا الى عبد الله بن صفار الصريمى وقيل اصفروا بما نهكتهم العبادة . وفى القاموس الصفرية بالضم ويكسر قوم من الحرورية نسبوا الى عبد الله بن صفار ككتان، أو الى زياد بن الاصفر أو الى صفرة ألوانهم أو لخلوهم من الدين . اه .

وقد كانت الخوارج من قبل هذا الافتراق على رأى واحد لا يختلفون الا فى الشاذ من الفروع . وفى أصل افتراقهم مكاتبات بين نافع بن الازرق وأبى بيهس وعبد الله بن اباض ذكرها المبرد فى الكامل فلتنظر هنالك .

وكانت خوارج المغرب اباضية وصفرية ، فلما كانت ولاية عبيد الله بن الحبحاب ونال عماله من البربر ما نالوا من الجور والعسف انتقضوا عليه وثار ميسرة المضغرى ـ المعروف بالخفير ـ بأحواز طنجة ، ومضغرة بطن من بنى فاتن بن تامصيت بن ضرى بن زجيك بن مادغيس الابتر ، وكانوا على رأى الصفرية ، وكان شيخهم ميسرة المذكور مقدما فى ذلك المذهب ، فحمل البربر على الخروج عن الطاعة وزحف الى عمر بن عبيد الله بطنجة فقتله سنة اثنتين وعشرين ومائة وولى عليها من قبله عبد الاعلى بن جريج الافريقى ـ رومى الاصل ومولى للعرب ـ كان امام الصفرية فى انتحال مذهبهم ، فقام بأمرهم مدة ثم تقدم الى السوس فقتله عاملها اسمعيل بن عبيد الله (١) ، وكان ميسرة لما استولى على طنجة والمغرب الاقصى قد بايعه البربر بالخلافة وخاطبوه بأمير المؤمنين ، اذ الخوارج لا يشترطون فى الامام الاعظم القريشية محتجين بقوله صلى الله عليه وسلم : «اسمعوا وأطيعوا وان استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة » ـ وهو مؤول ـ واضطرم المغرب نارا وفشت نحلة الخارجية فى جميع قبائله وانتقض أمره على خلفاء المشرق فلم يراجع طاعتهم بعد .

---

(١) الذى فى ابن خلدون : فقتل عامله عليها اسماعيل (جزء أول طبع الجزائر صفحة ١٥١)

ثم ان ابن الحبحاب بعث الى ميسرة خالد بن حبيب الفهرى فيمن كان قد بقى عنده من الجيش ، واستقدم أباه حبيب بن أبى عبيدة من صقلية فقدم فيمن معه من عساكر المسلمين وبعثه فى اثر خالد ونهض اليهم ميسرة فى جموع البربر ، فلقيهم بأحواز طنجة فاقتتلوا قتالا شديدا ثم تحاجزوا ، ورجع ميسرة الى طنجة فساءت سيرته فى البربر ونقموا عليه ما جاء به فقتلوه ، وولوا عليهم مكانه خالد بن حميد الزناتى

قال ابن عبد الحكم : هو من هتورة احدى بطون زناتة فقام بأمرهم واجتمع اليه البربر ، فزحف الى العرب وسرح اليه ابن الحبحاب عساكر الخليفة هشام بن عبد الملك وعلى مقدمتها خالد بن حبيب الفهرى ، فكان اللقاء على وادى شلف فانهزم المسلمون وقتل خالد بن حبيب ووجوه من معه من العرب ، فسميت الوقعة : وقعة الاشراف ؛ وانتقض المغرب على ابن الحبحاب من سائر جهاته وبلغ الخبر الى أهل الاندلس فعزلوا عامله عقبة ابن الحجاج السلولى ، وولوا عليهم عبد الملك بن قطن الفهرى ومرج أمر الناس وانتهى الخبر بذلك كله الى الخليفة هشام بدمشق فعزل ابن الحبحاب عن المغرب .

وقال صاحب الخلاصة : لما اختلت الامور على ابن الحبحاب اجتمع الناس وعزلوه فبلغ ذلك هشاما فغضب وكتب الى ابن الحبحاب بالقدوم فخرج فى جمادى الاولى سنة ثلاث وعشرين ومائة . والله أعلم .



١١٠

ولاية كلثوم بن عياض على المغرب ومقتله

لما انتهى الى الخليفة هشام ما كان من أمر خوارج البربر بالمغرب والاندلس وخلعهم للطاعة ، شق ذلك عليه واستضعف ابن الحبحاب فكتب اليه يستقدمه ، وولى على المغرب كلثوم بن عياض القشيرى ، ووجه معه جيشا كثيفا لقتالهم كان فيه ـ مع ما انضاف اليه من جموع البلاد التى مر بها ـ سبعون ألفا على ما قيل .

ولما انتهى كلثوم الى القيروان أساء السيرة فى أهلها فكتبوا الى حبيب بن أبى عبيدة وهو يومئذ بتلمسان مواقف للبربر يشكون منه اليه ، وكان لآل عقبة بالمغرب وجاهة لم تكن لغيرهم ، فكتب اليه حبيب ينهاه ويتوعده فاعتذر كلثوم وأغضى له عليها ، ثم استخلف على القيروان عبد الرحمن بن عقبة وسار يؤم المغرب فى جموعه ، وعلى مقدمته ابن اخيه (١) بلج بن بشر القشيرى فمر على طريق سبيبة . وانتهى الى تلمسان فلقى حبيب بن أبى عبيدة فاقتتلا ثم اصطلحا ، وزحفا جميعا الى المغرب الاقصى فنهضت اليهم البربر وكان اللقاء على وادى سبو من أعمال طنجة .

وقال ابن خلدون فى أخبار البربر : « ان الخليفة هشام ولى كلثوم بن عياض على المغرب سنة ثلاث وعشرين ومائة وسرحه فى اثنى عشر ألفا من أهل الشام ، وكتب الى ثغور مصر وبرقة وطرابلس أن يمدوه فزحف الى افريقية ثم الى المغرب حتى بلغ وادى سبو فبرز اليه خالد بن حميد الزناتى فيمن معه من البربر ـ وكانوا خلقا لا يحصون ـ فلقوا كلثوم بن عياض بعد أن هزموا مقدمته فاشتد القتال بينهم وقتل كلثوم وحبيب بن أبى عبيدة وكثير

---

(١) نقل ضوزى المؤرخ فى تاريخه المسمى : «تاريخ المسلمين باسبانيا» أن بلجا هذا كان ابن عم كلثوم لا ابن أخيه كما هنا . (نوطة عدد ٢ من الصحيفة ٢٤٤ من الجزء الاول)

من الجند وافترقت العساكر فمضى أهل الشام الى الاندلس مع بلج بن بشر ومضى أهل مصر وافريقية الى القيروان . »

وما ذكره أن خالد بن حميد هو الذى هزم جيوش كلثوم فى هذه الوقعة هو مقتضى ما سبق من أن ميسرة قتل فى ولاية عبيد الله بن الحبحاب وجزم ابن حيان بأن الذى هزم جيوش كلثوم هو ميسرة الخفير واقتصر عليه ابن خلدون فى أخبار بنى فاتن قال : «انتهت مقدمة كلثوم بن عياض الى سبو من أعمال طنجة فلقيه البربر هنالك مع ميسرة وقد فحصوا عن أوساط رؤوسهم وتنادوا بشعار الخارجية فهزموا مقدمته ثم هزموه وقتلوه وكان كيدهم فى لقائهم اياه أن ملأوا الشنان بالحجارة وربطوها فى أذناب الخيل ثم أرسلوها فى جيش العرب فكانت الحجارة تقعقع فى شنانها وخيل العرب تنفر حتى اختل مصافهم وتمت الهزيمة عليهم ، فافترقوا وذهب بلج مع الطلائع من أهل الشام الى سبتة ورجع أهل مصر وافريقية الى القيروان وظهرت الخوارج فى كل جهة واقتطع المغرب عن طاعة الخلفاء الى أن هلك ميسرة وقام برياسة مضغرة من بعده يحيى ابن حارث منهم» اه كلام ابن خلدون . فاضطرب النقل فى هذه الواقعة كما ترى والله أعلم بالصواب .

قال ابن حيان : ان كلثوم بن عياض لما انهزمت جيوشه نجا جريحا الى سبتة فى أهل الشام ومعه ابن أخيه بلج بن بشر بن عياض ، وحاصرهم البربر بها ، ولما اشتد حصارهم بسبتة وانقطعت عنهم الاقوات وبلغوا من الجهد الغاية ، استغاثوا باخوانهم من عرب الاندلس ، فتثاقل عنهم صاحبها عبد الملك بن قطن لخوفه على سلطانه منهم ، فلما شاع خبر ضررهم عند رجالات العرب أشفقوا عليهم ، فأغاثهم زياد بن عمرو اللخمى بمركبين مشحونين ميرة أمسكت من أرماقهم ، فلما بلغ ذلك عبد الملك بن قطن ضربه سبعمائة سوط ثم اتهمه بعد ذلك بتضريب الجند عليه ، فسمل عينيه ثم ضرب عنقه وصلب عن يساره كلبا . واتفق فى هذا الوقت أن برابرة الاندلس لما بلغهم ما كان من ظهور برابرة العدوة على العرب انتقضوا على عرب الاندلس واقتدوا بما فعله اخوانهم بالمغرب ، وتفطنوا لما كانوا غافلين عنه قبل ذلك من

الخلاف على العرب ومزاحمتهم فى سلطانهم ، وأصل ذلك كله النزعة الخارجية ، فاستفحل أمرهم بالاندلس وكثر ايقاعهم بجيوش ابن قطن ، فخاف أن يلقى منهم ما لقيه العرب بالمغرب من اخوانهم ، وبلغه أنهم قد عزموا على قصده فلم ير أجدى له من الاستعداد بصعاليك عرب الشام : أصحاب بلج الموتورين بسبتة ، فكتب الى بلج وقد مات عمه كلثوم ، فأسرعوا الى اجابته وكانت تلك أمنيتهم ، فأحسن اليهم وأسبغ النعمة عليهم ، وشرط عليهم أن يقيموا عنده سنة واحدة ، حتى اذا فرغوا له من البربر انصرفوا الى مغربهم ، وخرجوا له عن أندلسه ، فرضوا بذلك وعاهدوه وأخذ منهم الرهائن عليه ، ثم قدم عليهم ابنيه قطنا وأمية ــ والبربر فى جموع لا يحصيها غير رازقها ــ فاقتتلوا قتالا صعب فيه المقام الى أن كانت الدبرة على البربر فقتلهم العرب بأقطار الاندلس حتى ألحقوا فلهم بالثغور ، وخفوا عن العيون فكر الشاميون ــ وقد امتلأت أيديهم من الغنائم ، فاشتدت شوكتهم وثابت همتهم ، وبطروا ونسوا العهود وطالبهم ابن قطن بالخروج عن الاندلس فتعللوا عليه ، وذكروا صنيعه بهم أيام انحصارهم بسبتة ، وقتله الرجل الذى أغاثهم بالميرة ، فخلعوه وقدموا على أنفسهم أميرهم بلج بن بشر ، وتبعه جند بن قطن وأغروه بقتله فأبى ، فثارت اليمانية وقالوا قد حميت لمضرك والله لا نطيعك فلما خاف تفرق الكلمة أمر بابن قطن فأخرج اليهم وهو شيخ كبير كفرخ نعامة قد شهد وقعة الحرة بالمدينة (١) ، فجعلوا يسبونه ويقولون له أفلت من سيوفنا يوم الحرة ثم طالبتنا بتلك الترة فعرضتنا لاكل الكلاب والجلود ، وحبستنا بسبتة محبس الضنك ؛ حتى أمتنا جوعا فقتلوه وصلبوه فى ذى القعدة سنة ثلاث وعشرين ومائة ، وصلبوا عن يمينه خنزيرا وعن يساره كلبا . واستولى بلج على الاندلس . وكانت خطوب يطول ذكرها والله ولى العون والتوفيق .

---

(١) وقد كانت زمن يزيد بن معاوية سنة ثلاث وستين هـ :

ولاية حنظلة بن صفوان على المغرب

لما سمع الخليفة هشام بما جرى على كلثوم وأصحابه قامت قيامته ، فوجه حنظلة بن صفوان الكلبى ـ وهو أخو بشر بن صفوان المتقدم ـ واليا على المغرب ، فقدم القيروان سنة أربع وعشرين ومائة فوجد هوارة ـ وهم ولد هوار بن أوريغ بن برنس ـ خوارج على الدولة ورئيساهم عكاشة بن أيوب الفزارى وعبد الواحد بن يزيد الهوارى وكانا على مذهب الصفرية .

فلما استقر حنظلة بالقيروان لم يلبث الا يسيرا حتى زحف اليه عكاشة وعبد الواحد فى هوارة ومن تبعهم من البربر فخرج اليهم حنظلة والتقوا على القرن من ظاهر القيروان فهزمهم بعد قتال صعب واستلحمهم وقتل عبد الواحد وأخذ عكاشة أسيرا ولما جىء اليه بعكاشة فى رمته وبرأس عبد الواحد سجد شكرا لله تعالى على ما منحه من الفتح وأمر بعكاشة فقتل وأحصيت القتلى فى ذلك اليوم فكانوا مائة وثمانين ألفا وكتب حنظلة بذلك الى الخليفة هشام ، وسمعها الليث بن سعد فقال : « ما غزوة كنت أحب أن أشهدها بعد غزوة بدر أحب الى من غزوة القرن والاصنام » . (١)

ثم وجه حنظلة أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبى واليا من قبله على الاندلس ، فركب اليها البحر من تونس سنة خمس وعشرين ومائة ، فدان له أهل الاندلس ، واستقام أمره بها حينا من الدهر ، ثم ثار عليه الصميل ابن حاتم الكلبى وخلعه فى خبر طويل .

ولم يزل حنظلة على المغرب فى أحسن حال الى أن طرق الخلل

---

(١) اقليم الاصنام بالاندلس من أعمال شدونة وفيه حصن يعرف بطبيل ، قاله ياقوت . اه . وذكر الادريسى فى كتاب نزهة المشتاق فى الجزء الثالث من الاقليم الثالث أن الاصنام موضع ببرقة قرب قصور حسان . اه . والاصنام موضع بعمالة وهران على ضفاف نهر شلف ؟ وانظر هل هو المراد هنا أم السابق الكائن ببرقة فليحرر اه .

الخلافة بالمشرق وخفت صوتها لما حدث فى بنى أمية من فتنة الوليد الفاسق ، وما كان من أمر الشيعة والخوارج مع مروان الحمار آخر خلفائهم ، وأفضى الامر الى الادالة منهم ببنى العباس فأجاز عبد الرحمن بن حبيب الفهرى من الاندلس الى المغرب ، وغلب حنظلة عليه سنة ست وعشرين ومائة على ما نذكره .

ذكر صالح بن طريف البرغواطى المتنبى ومخرقته

وفى هذا التاريخ كان ظهور صالح بن طريف البرغواطى الذى ادعى النبوة بتامسنا من بلاد المغرب الاقصى على ساحل البحر المحيط فيما بين سلا وآسفى ، وبرغواطة بطن من المصامدة على ما حققه ابن خلدون . وكان أبوه طريف يكنى أبا صبيح وكان من قواد ميسرة الخفير القائم بدعوة الصفرية ، ولما انقرض أمر ميسرة بقى طريف قائما بأمر برغواطة بتامسنا ويقال انه تنبأ أيضا وشرع لهم الشرائع ثم هلك وولى مكانه ابنه صالح هذا ، وقد كان شهد مع أبيه حروب ميسرة .

قال ابن خلدون : «وكان من أهل العلم والخير ثم انسلخ من آيات الله وانتحل دعوى النبوة وشرع لهم الديانة التى كانوا عليها من بعده وهى معروفة فى كتب المؤرخين»

قال فى القرطاس : كان الضلال الذى شرعلهم أنهم يقرون بنبوته ، وأنهم يصومون شهر رجب ويأكلون شهر رمضان ، وفرض عليهم عشر صلوات خمسا بالليل وخمسا بالنهار ، وأن الاضحية واجبة على كل شخص فى الحادى والعشرين من المحرم ، وشرع لهم فى الوضوء غسل السرة والخاصرتين ، وأمرهم أن لا يغتسلوا من جنابة الا من حرام ، وصلاتهم ايماء لاسجود فيها ، لكنهم يسجدون فى آخر ركعة خمس سجدات ، ويقولون عند تناول الطعام والشراب : باسمك ياكساى ، وزعم أن تفسيره بسم الله ،

وأمرهم أن يخرجوا العشر من جميع الثمار ، وأباح لهم أن يتزوج الرجل من النساء ما شاء ولا يتزوج من بنات عمه ويطلقون ويراجعون ألف مرة فى اليوم فلا تحرم عليهم المرأة بشىء من ذلك ، وأمرهم بقتل السارق حيث وجد وزعم أنه لايطهره من ذنبه الا السيف وأن الدية تكون من البقر وحرم عليهم رأس كل حيوان والدجاجة مكروه أكلها وقدوتهم فى الاوقات الديكة وحرم عليهم ذبحها وأكلها ومن ذبح ديكا أو أكله أعتق رقبة وأمرهم أن يلحسوا بصاق ولاتهم على سبيل التبرك فكان يبصق فى أكفهم فيلحسونه ويحملونه الى مرضاهم يستشفون به ووضع لهم قرآنا يقرأونه فى صلواتهم ويتلونه فى مساجدهم ، وزعم أنه نزل عليه وأنه وحى من الله تعالى اليه ومن شك فى ذلك فهو كافر . والقرآن الذى شرع لهم ثمانون سورة سماها لهم بأسماء النبيئين وغيرهم منها : سورة آدم وسورة نوح وسورة فرعون وسورة موسى وسورة هرون وسورة بنى اسرائيل وسورة الاسباط وسورة أيوب وسورة يونس وسورة الجمل وسورة الديك وسورة الحجل وسورة الجراد وسورة هاروت وماروت وسورة ابليس وسورة الحشر وسورة غرائب الدنيا وفيها العلم العظيم بزعمهم حرم فيها وحلل وشرع وفصل وتسمى فيهم بصالح المؤمنين وقال أنا صالح المؤمنين الذى ذكره الله فى كتابه الذى أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم كما حكاه البكرى عن زمور (١) بن صالح الوافد منهم على الحكم المستنصر الخليفة بقرطبة من قبل ملكهم يومئذ أبى منصور عيسى بن أبى الانصار سنة ثنتين وخمسين وثلاثمائة. وكان يترجم عنه بجميع خبره داود بن عمر المسطاسى قال : وكان ظهور صالح هذا فى خلافة هشام بن عبد الملك سنة سبع وعشرين ومائة .

وقد قيل ان ظهوره كان لاول الهجرة وأنه انتحل ذلك عنادا ومحاكاة لما بلغه من شأن النبى صلى الله عليه وسلم والاول أصح . ثم زعم أنه المهدى الاكبر الذى يخرج فى آخر الزمان وأن عيسى يكون صاحبه ويصلى خلفه

---

(١) الذى فى النسخة المطبوعة أبو صالح زمور بن موسى بن هشام .

وأن اسمه فى اللسان العربى صالح وفى السريانى مالك وفى العجمى عالم وفى العبرانى روبيل وفى البربرى واربا ـ ومعناه الذى ليس بعده نبى ـ .

ثم خرج الى المشرق بعد أن ملكهم سبعا وأربعين سنة ووعدهم أنه يرجع اليهم فى دولة السابع منهم وأوصى بنيه بالتمسك بدينه فتوارثوا ضلالته من بعده الى أواسط المائة الخامسة ، وكان للدول فيهم ملاحم الى أن جاءت دولة المرابطين فمحوا أثر بدعتهم وسنعيد القول فيهم بأبسط من هذا عند الوصول اليها ان شاء الله .

الخبر عن تغلب آل عقبة بن نافع على المغرب

وولاية عبد الرحمن بن حبيب منهم

كان عقبة بن نافع الفهرى رضى الله عنه واليا على المغرب كما مر وهو الذى افتتح الاقصى منه ، ولما استشهد بالزاب بقى بنوه به فكانت لهم وجاهة معروفة بين أهله لمكان أبيهم عقبة من جهاد العدو وما فتح الله على يده من الاقطار واختطاطه مدينة القروان التى هى كرسى الامارة فكان ما منح الله أهل المغرب من الاسلام والدين كله فى صحيفته ، فنالوا بذلك شرفا خاصا زيادة على شرف القرشية وعز الفهرية ؛ فكان يكون لهم الشفوف فى بعض الاحيان حتى على الولاة فضلا عن غيرهم .

وقد تقدم انا فى أخبار موسى بن نصير أنه استعمل ابنه عبد العزيز على الاندلس فثار عليه حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع وقتله باغراء سليمان بن عبد الملك وتقدم أيضا ما كان منه الى كلثوم بن عياض عند قدومه القيروان من التوعد حتى أدى ذلك الى مقاتلتهما .

ولما قتل حبيب هذا فى وقعة كلثوم المتقدمة كان ابنه عبد الرحمن ابن حبيب صاحب الترجمة فى جملة أصحاب بلج الناجين الى سبتة ولما قتل أصحاب بلج عبد الملك بن قطن الفهرى وصلبوه كما مر فارقهم عبد الرحمن

هذا لما ضنعوا بابن عمه وعزم على الطلب بدمه فاجتمع اليه نحـــو مائة ألف من عرب الاندلس وبربرها وعمد الى بلج فقتله فى خبر طويل .

ثم حاول عبد الرحمن التغلب على الاندلس فلما قدم أبـو الخطار واليا عليها من قبل حنظلة بن صفوان أيس منها وركب البحر الى المغرب ؛ فاحتل بتونس فى جمادى الاولى سنة ست وعشرين ومائة ـ وقد توفى هشام وولى الخلافة بعده الوليد بن يزيد الفاسق ـ فدعا عبد الرحمن أهـل تونس الى نفسه فأجابوه . وبلـغ ذلك حنظلة صاحب القيروان فكره قتـال المسلمين وسفك دمائهم ، فبعث اليه جماعة من وجوه الجنـد يدعونه الى الطاعة فلما وصلوا اليه انتهز الفرصة وأوثقهم فى الحديد وأقبل بهـم الى القيروان فيمن اجتمع اليه . وأرسل الى أوليائهم يحذرهم قتاله ويقول : «ان رميتـم ولو بحجرة قتلت من فى يدى» فأحجموا عنه ضنـا بأشرافهم عن القتـل وعلم بذلك حنظلة فارتحل الى المشرق سنة سبع وعشرين ومائة . ودخـل عبد الرحمن القيروان فتمكن منها واستولى على المغرب وهو أول متغلب عليه . قالوا : ولما ولى مروان بن محمد المعروف بالحمار الخلافـة بعث اليه بعهده . وكان أمر البربر يومئذ قد تفاقم وداء الخارجية قد أعضل ورءوسها قد نبغت فى كل جهة فانتقضوا من أطراف البقـاع وتواثبوا على الامر بكل مكان داعين الى بدعتهم . وتولى كبر ذلك منهم صنهاجة فانهم التفوا عـلى كبيرهم ثابت الصنهاجى وتغلبوا على باجـــة . وثارت هوارة بطرابلس ملتفين على رئيسهم عبد الجبار والحارث وغير هؤلاء ـ وكانوا على مذهب الاباضية ـ فقتلوا عامل طرابلس بكر بن عيسى القيسى لما خرج يدعوهم الى السلـم وعظم الخطب فزحف اليهم عبد الرحمن بن حبيب سنـــة احدى وثلاثـــين ومائة فظفر بالصنهاجى والهوارى وقتلهما وفل جموعهما ثم زحف الى عروة بن الوليد الصفرى ـ وكان قد ثار بتونس ـ فقتله واستأصل الثوار وانقطع أمر الخوارج من افريقية . ثم زحف سنة خمس وثلاثين ومائة الى جمـوع من البربر ـ وكانوا قد تجمعوا بنواحى تلمسان ـ فظفر بهم وفـل جمعهم ورجع ، ثم أغزى جيشا فى البحر الى صقليـة وآخر الى سردانية فأثخنوا فـــى أمم

الفرنج حتى أذعنوا للجزية ودوخ عبد الرحمن أرض المغرب وأذل المعاندين الى أن كان ما نذكره .

وأما أهل الاندلس : فانهم كانوا قد خلعوا أبا الخطار وولوا عليهم ثوبة بن سلامة الجذامى . قال ابن بشكوال : لما اتفقوا عليه خاطبوا بذلك عبد الرحمن بن حبيب فكتب اليه بعهده ، وذلك سلخ رجب سنة سبع وعشرين ومائة ، فضبط البلاد واستمر واليا سنتين أو نحوها ثم هلك ، وولى أهل الاندلس عليهم يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب وهو ابن صاحب الترجمة ؛ ذكر الرازى (١) : أن مولده كان بالقيروان وانه لما استولى أبوه على المغرب خرج يوسف هذا مغاضبا له لامر اقتضى ذلك ، فقدم الاندلس واستوطنها وساد بها ، فأقامه أهلها واليا عليهم بعد أميرهم ثوابة ، وقد مكثوا فوضى أربعة أشهر ، وكان اجتماعهم عليه باشارة الصميل ابن حاتم الكلابى ، فاستبد يوسف بالاندلس وضبطها الى أن دخل عليه عبد الرحمن بن معاوية الاموى المعروف بالداخل ، فانتزعها منه وأورثها بنيه كما سياتى .

دخول عبد الرحمن الاموى الى افريقية وجوازه الى الاندلس وتأسيسه للدولة الاموية بها

ولما استقر قدم الدولة العباسية بالمشرق وانقرض أمر بنى أمية سنة اثنتين وثلاثين ومائة وذهبوا فى كل وجه ، أفلت عبد الرحمن بن معاوية

---

(١) الرازى هذا هو أحمد بن محمد بن موسى بن بشير الرازى الكنانى من أهل قرطبة يكنى أبا بكر وكان كثير الرواية حافظا للاخبار وله مؤلفات كثيرة فى أخبار الاندلس ، أنظر ترجمته فى معجم البلدان (لياقوت صحيفة ٤٥) .

هذا وقصد المغرب فاجتاز بالقيروان ـ وبها عبد الرحمن بن حبيب صاحب الترجمة ـ فارتاب به وعزم على قتله فنجا الأموى الى الاندلس ، وكان من أمره ما كان .

ذكر ابن حيان : أن عبد الرحمن بن معاوية الاموى سار حتى أتى افريقية فنزلها ـ وقد سبقه اليها جماعة من فل بنى أمية ـ وكان عند صاحبها عبد الرحمن بن حبيب يهودى حدثانى قد صحب مسلمة بن عبد الملك فكان يتكهن له ويخبره بتغلب القرشى وملكه الاندلس ويرثها عقبة من بعده ، وان اسمه عبد الرحمن وهو ذو ضفيرتين ومن بيت الملك ، فاتخذ الفهرى ضفيرتين أرسلهما رجاء أن تناله الرواية ، فلما جىء اليه بعبد الرحمن الاموى ورأى ضفيرتيه ، قال لليهودى : «هو هذا وأنا قاتله» فقال له اليهودى : «ان قتلته فما هو به وان غلبت عليه فانه لهو»

وثقل فل بنى أمية على ابن حبيب فطرد كثيرا منهم خوفا على ملكه ، ثم تجنى على ابنين للوليد بن يزيد كانا قد استجارا به فقتلهما ، وأخذ مالا كان مع اسمعيل بن أبان بن عبد العزيز بن مروان ، وغلبه على أخته فتزوجها غصبا ، وطلب عبد الرحمن الداخل فاختفى، كذا لابن حيان .

وعند ابن خلدون : أن الاخت المذكورة زوجها عبد الرحمن من أخيه الياس بن حبيب ولما قتل ابنى عمها امتعضت لذلك وأغرت زوجها واستفسدته على أخيه حتى قتله كما نذكر، وذلك أنه لما انتظم أمر الدولة العباسية بالمشرق وبويع السفاح ثم المنصور بعده كتب الى عبد الرحمن بن حبيب يدعوه الى الطاعة والبيعة فأجابه ودعا له ، وبعث اليه بهدية فيها بزاة وكلاب وذهب قليل ، وذكر أن افريقية اليوم اسلامية وقد انقطع السبى ، فغضب المنصور وكتب اليه يتوعده . وبعث اليه مع ذلك بخلعة الامارة . فنزع عبد الرحمن يده من الطاعة ومزق الخلعة على المنبر . فوجد أخوه الياس بذلك السبيل الى ما كان يحاوله عليه . وداخل وجوه الجند فى الفتك به واعادة الدعوة للخليفة المنصور . ومالأه على ذلك أخوه عبد الوارث بن حبيب . وأحس عبد الرحمن منهما بالشر فأمر اليـاس بالمسير الى تونس . فأظهر

الامثال ثم جاء ليودعه ـ ومعه عبد الوارث . وكان عبد الرحمن مريضا ـ فدخلا عليه وقتله على فراشه آخر سنة سبع وثلاثين ومائة لعشر سنين وسبعة أشهر من تغلبه على المغرب .

استيلاء إلياس بن حبيب على المغرب

لما فتك الياس باخيه عبد الرحمن معتدا عليه بخلعه طاعة الخليفة فر ابنه حبيب بن عبد الرحمن الى تونس بعد أن طلبوه وضبطوا أبواب القصر ليأخذوه فلم يظفروا به وكان عمه عمران بن حبيب واليا بتونس من قبل أبيه فلحق به وتم الامر لالياس واستولى على القيروان . ثم زحف اليه عمران وحبيب فيمن اجتمع اليهما ، وخرج الياس للقائهم . فألتقوا واقتتلوا مليا . ثم اصطلحوا على أن يكون لحبيب قفصة وقسطيلة وسائر بلاد الجريد ، ولعمران تونس وسطفورة والجزيرة ، ولالياس القيروان وسائر افريقية والمغرب . وتم هذا الصلح سنة ثمان وثلاثين ومائة ، وسار حبيب الى عمله من بلاد الجريد . وارتحل الياس مع أخيه عمران الى تونس . ولما وصلا اليها غدر الياس بعمران فقتله وقتل جماعة من الاشراف معه . وقيل غربه الى الاندلس وعاد هو الى القيروان . فبعث بطاعته الى أبى جعفر المنصور مع قاضى افريقية عبد الرحمن بن زياد بن أنعم (١) وصفا له أمر المغرب . وثقل عليه مكان حبيب فاحتال عليه حتى أركبه البحر الى الاندلس . وأركب معه

---

(١) هو أول مولود ولد فى الاسلام بافريقية سنة أربع أو خمس وتسعين حين دخول الجند اليها وكان حافظا راويا للحديث جليل القدر توفى فى شهر رمضان سنة احدى وستين ومائة ودفن بباب نافع من مدينة القيروان رحمه الله . انظر ترجمته فى معالم الايمان فى معرفة أهل القيروان وغيره من كتب أسماء رجال الحديث .

أخاه عبد الوارث فردهم قاصف من الريح الى طبرقة وكتبوا بخبرهم الى الياس فلج فى طردهم .

وتسامعت موالى عبد الرحمن وشيعته بابن مولاهم فتسارعوا اليه وأنزلوه من السفين والتفوا عليه وزحفوا به الى تونس فملكوها وخرج الياس لقتالهم فخالفوه الى القيروان وملكوها عليه وفتقوا السجون فرجع الياس لقتالهم وقد فر أكثر من معه الى حبيب ولما تراءى الجمعان حول القيروان برز حبيب فنادى : ياعم لم نقتل أولياءنا وصنائعنا وهم جنتنا ؟ فهلم للبراز فأينا غلب ملك ! فصاح الجيشان بتصويب رأيه ، فبرزا وتضاربا حتى عجب الناس من صبرهما ثم قتل حبيب الياس ودخل القيروان فملكها آخر سنة ثمان وثلاثين ومائة فكانت ولاية الياس نحو سنة ونصف .

وفى هذه السنة استولى عبد الرحمن بن معاوية الاموى على جزيرة الاندلس : انتزعها من يد أميرها يوسف بن عبد الرحمن الفهرى وهو أخو حبيب المذكور آنفا .

قال ابن حيان : «كان تغلب عبد الرحمن بن معاوية المروانى على سرير الملك بقرطبة يوم الاضحى لعشر خلون من ذى الحجة سنة ثمان وثلاثين ومائة واستقام أمره بالاندلس وبنى المسجد الجامع والقصر بقرطبة وأنفق فيه ثمانين ألف دينار ومات قبل تمامه . ووفد عليه جماعة من أهل بيته من المشرق وكان يدعو للمنصور العباسى ثم قطع دعوته ومهد الدولة بالاندلس وأثل بها الملك العظيم لبنى مروان وخرجت الاندلس من يومئذ عن نظر صاحب القيروان بل وعن نظر الخليفة بالمشرق والله غالب على أمره.

استيلاء حبيب بن عبد الرحمن على المغرب
وفتنة عاصم بن جميل المتنبىء ومقتله

لما قتل حبيب بن عبد الرحمن عمه الياس وتمكن من القيروان طلب عمه عبد الوارث لمشاركته فى دم أبيه كما مر ففر عبد الوارث الى ورفجومة: احدى بطون نفزاو بن لوى من البرابرة البتر فنزل على كبيرهم عاصم بن جميل ـ وكان كاهنا يدعى النبوة ـ فأجاره . ثم نهض اليهم حبيب فأوقعوا به وهزموه الى قابس .

واستفحل أمر عاصم وشايعه على شأنه من رجالات نفزاوة عبد الملك بن أبى الجعد الورفجومى ويزيد بن سكوم الولهاصى ـ وكانا على رأى الاباضية ـ وانضمت اليهم سائر نفزاوة واشتدت شوكتهم وكان قيامهم أولا بدعوة الخليفة المنصور .

ولما بقى أهل القيروان فوضى بسبب فرار أميرهم الى قابس كتب من بها من العرب الى عاصم هذا يدعونه للقدوم عليهم والقيام بأمرهم بشرط الدعاء للمنصور فأتى وقاتلهم فهزمهم ودخل القيروان عنوة واستباح أهلها وخرب مساجدها وأهانها ثم سار الى حبيب بقابس ـ بعد أن استخلف على القيروان ومن بقى بها من نفزاوة عبد الملك ابن أبى الجعد ـ فقاتل حبيبا وهزمه فلحق حبيب بجبل أوراين (١) وأجاره أهله ثم زحف اليهم عاصم فهزموه وقتلوه واستلحموا جماعة من أصحابه . وقام بأمر ورفجومة والقيروان من بعده عبد الملك بن أبى الجعد . وأهل القيروان أثناء هذا كله فى غاية المذلة والهوان مع البربر . ثم زحف حبيب الى القيروان فبرز اليه عبد الملك وهزم حبيبا وقتله فى المحرم سنة أربعين ومائة فكانت ولايته نحو ثلاث سنين وانقرض بمقتله أمر آل عقبة من المغرب والبقاء لله وحده .

---

(١) أوراس كما فى النسخ الصحيحة لابن خلدون .

استيلاء عبد الملك بن ابى الجعد على المغرب

لما قتل عبد الملك بن أبى الجعد الورنجومى حبيب بن عبد الرحمن الفهرى رجع فى جموع البربر الى القيروان فملكها . وأمر ورفجومة واستطالوا على أهل القيروان وقتلوا من بها من قريش وسائر العرب حيث وجدوا وعاملوهم معاملة المكناسيين لآل ادريس واستحلوا من الحرمات مالم يستحله عاصم بن جميل قبلهم حتى لقد ربطوا دوابهم بالمسجد الجامع . واشتد البلاء على أهل القيروان وافترقوا فى النواحى فرارا بأنفسهم وشاع خبرهم فى الآفاق . فحينئذ قام أبو الخطاب عبد الاعلى بن السمح الغافرى من رجالات العرب ــ وكان على رأى الاباضية ــ بأحواز طرابلس منكرا لفعل ورفجومة ومغيرا عليهم حسبما نذكر .

استيلاء عبد الاعلى بن السمح على المغرب
وظهور الصفرية من آل مدرار المكناسيين وبناؤهم مدينة سجلماسة

كان أبو الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافرى من وجوه العرب وكان على رأى الاباظية كما قلنا ولما بلغه ما ارتكبته ورفجومة من أهل القيروان امتعض لذلك وقام محتسبا عليهم وشايعه على ذلك برابرة طرابلس.
وتولى كبر ذلك هوارة منهم ــ وهوارة احدى بطون أوريغة من البرانس ــ فاجتمعوا اليه وتقدم بهم الى طرابلس فملكها ثم زحف الى القيروان سنة احدى وأربعين ومائة فخرج اليه عبد الملك بن أبى الجعد فى جموعه فانخزل عنه أهل القيروان لما نالهم من عسفه وعسف قومه

فانهزم وقتل .

واستولى أبو الخطاب على القيروان وأثخن فى جموع عبد الملك من ورفجومة وسائر نفزاوة . ثم ولى على القيروان عبد الرحمن بن رستم الفارسى ـ وهو من أبناء رستم أمير الفرس يوم القادسية ـ كان عبد الرحمن هذا من موالى العرب ومن رؤوس هذه البدعة فاستخلفه أبو الخطاب على القيروان ورجع هو الى طرابلس للقاء العساكر القادمة من جهة الخليفة المنصور على ما نذكره .

ولما حصل هذا الاضطراب بالمغرب اجتمعت الصفرية من مكناسة بناحية المغرب الاقصى فنقضوا طاعة العرب . وولوا عليهم عيسى بن يزيد الاسود من موالى العرب ورؤوس الخوارج واختطوا مدينة سجلماسة سنة أربعين ومائة من الهجرة ودخل سائر مكناسة من أهل تلك الناحية فى دينهم واقتطعوا سجلماسة وأعمالها عن نظر الولاة بالقيروان .

ومن هذا الاجتماع نشأت دولة بنى مدرار ملوك سجلماسة ، فان صفرية مكناسة لما بايعوا عيسى بن يزيد (١) أقام أميرا عليهم نحو خمس عشرة سنة ثم سخطوا امرته ، ونقموا عليه بعض أحواله فعمدوا اليه وأوثقوه كتافا ، ووضعوه على قنة جبل الى أن هلك سنة خمس وخمسين ومائة واجتمعوا بعده على كبيرهم أبى القاسم بن سمكو بن واسول المكناسى الصفرى كان أبوه سمكو من حملة العلم ارتحل الى المدينة فأدرك التابعين وأخذ عن عكرمة مولى ابن عباس (قاله عريب بن حميد القرطبى (١) فى

---

(١) سماه البكرى عيسى بن مزيد الاسود

(٢) فى معجم الادباء لياقوت ترجمة عريب بن محمد بن مصرف بن عريب القرطبى ، أنظرها فى صحيفة ٥٥ من الجزء الخامس . فلعل عريبا هذا هو الذى ينقل عنه المؤلف ، وانما تصحف اسم أبيه حميد بمحمد أو العكس والله أعلم .

تاريخه) وكان عكرمة(١)بربرى الاصل كما عند ابن خلكان ، قال : (وقد تكلم الناس فيه لانه كان يرى رأى الخوارج)وكان أبو القاسم المذكورصاحب ماسية ، وهو الذى بايع لعيسى بن يزيد وحمل قومه على طاعته ، فلما خلعوا عيسى بايعوا أبا القاسم من بعده ، وقام بأمرهم الى أن هلك (٢) سنة سبع وستين ومائة .

وكان يخطب فى عمله للمنصور ثم للمهدى من بنى العباس ، ولما هلك ولوا عليهم ابنه الياس بن أبى القاسم – وكان يدعى بالوزير – ثم انتقضوا عليه سنة أربع وسبعين ومائة فخلعوه وولوا مكانه أخاه اليسع بن أبى القاسم وكنيته أبو منصور – وكان صفريا – وعلى عهده استفحل ملكهم بسجلماسة وهو الذى أدار سورها وأتم بناءها ، واختط بها المصانع والقصور ، وانتقل اليها آخر المائة الثانية ، وهلك سنة ثمان ومائتين وولى بعده ابنه مدرار – ولقبه المنتصر – وطالت مدته ، وكان له ولدان كل منهما اسمه ميمون ، أحدهما لاروى بنت عبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت ، والآخر لبغى – وكان يعرف بالامير – فتنازعا وتداولا الامر بينهما استبدادا على أبيهما ودامت الحرب بينهما ثلاث سنين ، وهلك أبوهما مدرار سنة ثلاث وخمسين ومائتين فى نوبة ميمون الامير ، واستمر ميمون هذا فى استبداده الى أن هلك سنة ثلاث وستين ومائتين وولى ابنه محمد بن ميمون – وكان اباضيا – وتوفى سنة سبعين ومائتين ، فولى اليسع ابن المنتصر .

وفى أيامه قدم عبيد الله المهدى أول خلفاء العبيديين من الشيعة وابنه أبو القاسم من المشرق ، فدخلا سجلماسة متنكرين ، وكان الخليفة المعتضد بالله العباسى قد أوعز الى اليسع هذا بالقبض عليهما فنقب عنهما وقبض

---

(١) ذكر ابن حجر فى تهذيب التهذيب بأنه كان من أعظم الداعين للبدعة الخارجية بافريقية ، وتوفى سنة ١٠٥ وقيل غير ذلك ، راجع ترجمته فى تهذيب التهذيب ، وابن خلكان وغيره .

(٢) قال البكرى سنة ثمان وستين فجأة فى آخر ركعة من صلاة العشاء

عليهما وأودعهما السجن الى أن افتكهما مقيم دولتهما أبو عبد الله الشيعى المعروف بالمحتسب ، فانه اقتحم سجلماسة فى خبر معروف وأخرج عبيد الله وابنه من السجن وقتل اليسع سنة ست وسبعين ومائتين .

ثم بايع أهل سجلماسة من بعده الفتح بن ميمون الامير ـ وكان أباضيا ـ وهلك على رأس المائة الرابعة فولى أخوه أحمد بن ميمون الامير واستقام أمره الى أن زحف مصالة بن حبوس الكتامى ـ قائد الشيعة العبديين ـ فى جموع كتامة الى المغرب الاقصى سنة تسع وثلاثمائة ، فدوخه وأخذ أهله بدعوة صاحبه عبيد الله المهدى ، وافتتح سجلماسة وتقبض على صاحبها أحمد بن ميمون الامير ، ثم ولى عليها من قبله محمد بن بسادر بن مدرار فلم يلبث أن استبد على الشيعة ، وتلقب بالمعتز وهلك سنة احدى وعشرين وثلاثمائة . وولى ابنه المنتصر محمد بن المعتز فمكث عشرا وهلك ، وولى ابنه المنتصر سمكو شهرين ، وكانت جدته تدبر أمره لصغره .

ثم ثار عليه ابن عمه محمد بن الفتح بن ميمون الامير ورفض الخارجية ونادى بالدعوة العباسية ، وأخذ بمذهب أهل السنة ، وتلقب بالشاكر لله ، واتخذ السكة باسمه ، فكانت تسمى بالدراهم الشاكرية .

قال ابن حزم : وكان فى غاية العدل وكانت سكته فى غاية العطيب ، واستمر الى أن زحف جوهر الكاتب قائد المعز العبيدى ـ فى جموع صنهاجة وكتامة ـ الى المغرب الاقصى سنة سبع وأربعين وثلاثمائة فغلب على سجلماسة ، وفر عنها محمد بن الفتح الى حصن تسكرات (١) على أميال منها ؛ ثم دخل سجلماسة متنكرا فعرفه رجل من مضغرة وأعلم به جوهرا فتقبض عليه وساقه أسيرا ـ مع أحمد بن أبى بكر الزناتى صاحب فاس ـ الى المهدية كما نذكره .

ثم لما انتقض المغرب على الشيعة وأخذ زناتة بطاعة الحكم المستنصر صاحب

---

(١) وسماها البكرى بتاسجدالت قال : وهى حصن منيع على اثنى عشر ميلا من سجلماسة .

الاندلس ثار بسجلماسة قائم من ولد الشاكر لله وتلقب بالمنتصر بالله . ثم وثب عليه أخوه أبو محمد سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة فقتله وقام بالامر مكانه وتلقب بالمعتز بالله ، وأقام على ذلك مدة وأمر مكناسة يومئذ قد تداعى الى الانحلال ، وأمر زناتة قد استفحل بالمغرب ، الى أن زحف خزرون بن فلول الزناتى ثم المغراوى الى سجلماسة سنة ست وستين وثلاثمائة فبرز اليه أبو محمد المعتز فهزمه خزرون وقتله واستولى على بلده وذخيرته وبعث برأسه الى قرطبة ، وكان ذلك لاول حجابة المنصور ابن أبى عامر المستبد على بنى أمية بالاندلس ؛ وانقرض أمر بنى مدرار والبقاء لله .

وقد لخصنا هذه الدولة المدرارية من كتاب العبر وسردناها هنا استطرادا ثم نعود الى موضوعنا الذى كنا فيه . وبالله التوفيق .

ولاية محمد بن الاشعث على المغرب

!! ارتكبت ورفجومة من أهل القيروان ما ارتكبته وفد جماعة من رجالات العرب بها على الخليفة المنصور واستصرخوه على الخوارج ، وشكوا اليه تسلقهم على كرسى الامارة بالقيروان ، فوجه المنصور محمد بن الاشعث الخزاعى واليا على مصر وأمره باستنقاذ افريقية من البربر ، فوجه محمد بن الاشعث أبا الاحوص عمرو بن الاحوص العجلى سنة اثنتين وأربعين ومائة ، فخرج اليه أبو الخطاب المعافرى وهزمه بسرت (١) قريبا من طرابلس واستولى على عسكره .

ورجع أبو الاحوص مفلولا الى مصر ، فكتب المنصور الى ابن الاشعث

---

(١) سرت مدينة على ساحل البحر المتوسط بين برقة وطرابلس الغرب ضبطها ياقوت بضم السين وسكون الراء ، وتعرف عند الافرنج قديما بسرت بكسر السين .

يأمره بالمسير الى المغرب بنفسه ، فسار اليه فى أربعين ألفا ـ ومعه الاغلب بن سالم التميمى ـ فلقيهم أبو الخطاب بسرت أيضا فأوقع به ابن الاشعث وقتله واستلحم جموعه .

وطار الخبر بذلك الى عبد الرحمن بن رستم بمكانه من القيروان فاحتمل أهله وولده ولحق باباضية المغرب الاوسط ، ونزل على لماية : بطن من بنى فاتن بن تامصيت بن ضرى من البتر ، لحلف كان بينه وبينهم ، فالتفوا عليه وبايعوا له بالخلافة وتفاوضوا فى بناء مدينة تكون كرسيا لامارتهم ـ شأن الصفرية من بنى مدرار ـ فشرعوا فى بناء مدينة تاهرت (١) سنة أربع وأربعين ومائة ، فعمرت واتسعت خطتها وتوارثها بنو رستم واقتطعوها عن نظر ولاة المغرب .

وكان يسلم عليهم بالخلافة ـ على ما هو المعروف من مذهب الخوارج ـ الى أن انقرضت دولتهم على يد العبيديين أواخر المائة الثالثة .

وأما ابن الاشعث فانه استقر بالقيروان غرة جمادى الاولى سنة أربع وأربعين ومائة وشرع فى بناء سورها فى ذى القعدة من السنة وتم فى رجب سنة ست وأربعين ومائة ، وضبط المغرب أحسن ضبط وافتتح طرابلس واستعمل عليها المخارق بن غفار الطائى ، وعلى طبنة والزاب الاغلب بن سالم ، وخافه البربر .

ثم ثار عليه عيسى بن موسى بن عجلان الخراسانى أحد الجند فى جماعة من قواد مضر ونفوه عن القيروان فقفل الى المشرق ربيع الاول سنة ثمان وأربعين ومائة فكانت ولايته نحو أربع سنين .

---

(١) راجع ما ذكره ياقوت فى معجم البلدان فى حق هذه المدينة ، فقد بسط الكلام عليها وأفاد، وكذلك ابن خلدون فى صحيفة ١٥٤ وما يليها من الجزء الاول من تاريخ البربر طبع الجزائر .

ولاية الاغلب بن سالم التميمى على المغرب

!! قفل ابن الاشعث الى المشرق ولى جند مضر عليهم عيسى بن موسى الخراسانى واتصل بالمنصور ما فعله قواد مضر من ذلك ، فبعث الى الاغلب بن سالم التميمى ثم السعدى بعهده على المغرب ــ والاغلب هذا هو جد الاغالبة ملوك افريقية من بعده . وكان من ذوى الشجاعة والرأى ومن أصحاب أبى مسلم بخراسان ــ فدخل المغرب مع ابن الاشعث واستعمله على طبنة كما مر . فلما وافاه عهد الخليفة أواخر جمادى الاخرة سنة ثمان واربعين ومائة انتقل الى القيروان وأمنها واستقام أمره .

ثم خرج عليه أبو قرة بن دوناس اليفرنى ويقال المغيلى من الصفرية والتفت عليه زناتة بجهة تلمسان ، وبايعوا له بالخلافة ، واستفحل أمره فزحف اليه الاغلب ، فلما دنا منه فر أبو قرة الى المغرب الاقصى فلم يقف الا بطنجة وانتهى الاغلب الى الزاب ثم عاد الى القيروان فعاد أبو قرة الى وطنه من تلمسان .

وفى سنة خمسين ومائة خرج الاغلب لقتال الصفرية فتثاقل عنه طائفة من الجند ، ولما أوغل فى طلب الصفرية ثار عليه الحسن بن حرب الكندى ــ وكان بتونس ــ ولحق به المتثاقلون من الجند ، وكان تثاقلهم عن الاغلب بمكاتبة الحسن اياهم فى ذلك ، فأقبل بهم الى القيروان واستولى عليها. ولحق الاغلب بقابس وكاتب الحسن يرغبه فى الطاعة فلم يقبل ، ثم وافى كتاب المنصور يدعو الحسن الى الطاعة فأبى ، فصمد اليه الاغلب واقتتلا فانهزم الحسن وفر الى تونس وجمع الجموع ورجع ، فخرج اليه الاغلب فأصابه سهم فقتله ؛ فقدم أصحابه عليهم المخارق بن غفار الطائى الذى كان على طرابلس ، وحملوا على الحسن فانهزم أمامهم الى تونس ، ثم لحق بكتامة وخيل المخارق فى اتباعه ، ثم رجع الى تونس بعد شهرين فقتله الجند .

وقيل ان أصحاب الاغلب قتلوه فى الوقت الذى قتل فيه الاغلب وكان

مقتل الاغلب فى شعبان سنة خمسين ومائة .

وقام بأمر افريقية المخارق بن غفار الى أن كان ما نذكره .

ولاية عمر بن حفص هزارمرد على المغرب

لما بلغ الخليفة المنصور مقتل الاغلب بن سالم وجه مكانه عمر بن حفص ـ من ولد قبيصة بن أبى صفرة أخى المهلب بن أبى صفرة ـ فقدم القيروان فى خمسمائة فارس سنة احدى وخمسين ومائة ، فاستقامت أموره ثلاث سنين ثم خرج الى طبنة لادارة السور عليها ، واستخلف على القيروان حبيب بن حبيب المهلبى ، فثار البربر بافريقية ـ لما علموا من بعد الحامية عنها ـ وغلبوا على من كان بها ، وزحفوا الى القيروان فخرج اليهم حبيب فهزموه وقتلوه ، وثار البربر الاباضية بطرابلس وولوا عليهم أبا حاتم يعقوب بن لبيب المغيلى مولى كندة .

وتسامعت به خوارج المغرب فانتقضوا من كل ناحية ونبغت رؤوس الفتنة من كل وجه وعادت هيف الى أديانها ، وكانت هذه الفتنة هى زبدة الفتن التى مخضتها الخوارج بالمغرب من لدن ميسرة الخفير الى الآن ، فانهم زحفوا الى عمر بن حفص وهو بطبنة من أرض الزاب فى اثنى عشر عسكرا فكان منهم أبو قرة اليفرنى فى أربعين ألفا من الصفرية ، وعبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت فى خمسة عشر ألفا من الاباظية ، والمسور ابن هانىء الزناتى فى عشرة آلاف من الاباظية أيضا ، وعبد الملك بن سكرديد الصنهاجى فى ألفين من صنهاجة الصفرية ، وجرير بن مسعود المديونى فيمن تبعه من مديونة وانضم اليهم غير هؤلاء من خوارج هوارة وزناتة ممن لا يحصى كثرة .

ولما اشتد الحصار على عمر بن حفص أعمل الحيلة فى ايقاع الخلاف بينهم ودافعهم بالاموال وأرسل الى أبى قرة على يد ابنه أبى نور أن يعطيه

أربعين ألفا ولابنه أربعة آلاف على أن يرتحل عنه فقبل وارتحل بقومه وانفض البربر عن طبنة .

ثم سار أبو حاتم يعقوب بن لبيب الى القيروان وحاصرها ثمانية أشهر حتى أكل أهلها الميتة ، ولما اشتد الحصار على أهل القيروان خرج عمر بن حفص من طبنة يريد أبا حاتم الاباضية الذين معه ، وبلغ أبا حاتم وأصحابه وهم محاصرون للقيروان مسير عمر بن حفص اليهم فساروا للقائه ، فمال هو من الاربس (١) الى تونس ، ثم جاء الى القيروان فدخلها واستعد للحصار وشحنها بالاقوات والرجال ، وأتبعه أبو حاتم والبربر وأبو قرة معهم فى قومه ـ وكانوا فى ثلاثمائة وخمسين ألفا ، الخيل منهم خمسة وثمانون ألفا ، والباقى رجالة وأحاطوا بالقيروان ـ وعمر بن حفص داخلها ـ وطال الحصار ثم بلغه الخبر ان المنصور وجه لاستنقاذه ابن عمه يزيد بن حاتم المهلبى فأنف من ذلك وقال : لاخير فى الحياة بعد أن يقال : يزيد أخرجه من الحصار ! انما هى رقدة ثم أبعث الى الحساب ! وخرج عمر فقاتل حتى قتل أواسط حجة سنة أربع وخمسين ومائة .

وكان عمر هذا بطلا سمحا ، يلقب هزارمرد ، وهو لفظ فارسى معناه ألف رجل .

ثم ولى الناس عليهم أخاه لامه حميد بن صخر ، وانقضى الحصار وأحرق أبو حاتم أبواب القيروان وثلم سورها ، وخرج أكثر الجند الى طبنة ، ودخل أبو حاتم القيروان فاستولى عليها ، ويقال ان ابن صخر وادعه على ما أحب والله تعالى أعلم .

---

(١) الاربس ضبطه ياقوت فى المعجم بالضم ثم السكون والباء الموحدة مضمومة وسين مهملة ، وقال هى مدينة وكورة بافريقية بينها وبين القيروان ثلاثة أيام نحو المغرب فراجعه فقد بسط الكلام عليها

ولاية يزيد بن حاتم على المغرب

لما بلغ المنصور انتقاض افريقية على عمر بن حفص وحصاره بطبنة أولا ثم بالقيروان ثانيا بعث اليه يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة فى ستين ألفا ؛ وبلغ خبره عمر بن حفص فحمله ذلك على الاستماتة كما تقــدم .

وبلغ أبا حاتم وهو بالقيروان مسير يزيد بن حاتم اليه فخرج للقائه ، فلقيه يزيد بن حاتم بنواحى طرابلس ؛ واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم البربر وقتل أبو حاتم فى ثلاثين ألفا من أصحابه ، وتتبعهم يزيد بالقتل طلبا بدم عمر بن حفص .

ثم ارتحل الى القيروان فدخلها يوم الاثنين لعشر مضت من جمادى الاولى سنة خمس وخمسين ومائة فمهدها ورتب أسواقها وأفرد لكل صناعة مكانا وجدد بناء جامعها وضبط الامور أحسن ضبط .

وكان عبد الرحمن بن حبيب بن عبد الرحمن الفهرى مع أبى حاتم، فلحق بكتامة ، فبعث يزيد فى طلبه المخارق بن غفار فحاصره ثمانية أشهر ثم غلب عليه فقتل جماعة ممن معه وهرب الباقون فى كل ناحية ، ونجا هو الى الاندلس .

وبعث يزيد المخارق أيضا على الزاب فنزل طبنة وأثخن فى البربر وأوقع بهم وقائع عظيمة .

وكانت حروب الخوارج مع العرب منذ انتقضوا على عمر بن حفص الى انقضائها ثلاثمائة وخمسا وسبعين حربا قاله ابن خلدون .

ثم انتقضت ورفجومة سنة سبع وخمسين وولوا عليهم رجلا اسمه أبو زرجونة ، فسرح اليهم يزيد بن حاتم من عشيرته يزيد بن مجزأة المهلبى فهزموه واستأذنه ابنه المهلب ــ وكان على الزاب وطبنة ــ فى الزحف الى ورفجومة فأذن له وأمده بالعلاء بن سعيد بن مروان المهلبى من عشيرتهم

تاريخه) وكان عكرمة(١)بربرى الاصل كما عند ابن خلكان ، قال : (وقد تكلم الناس فيه لانه كان يرى رأى الخوارج)وكان أبو القاسم المذكورصاحب ماشية ، وهو الذى بايع لعيسى بن يزيد وحمل قومه على طاعته ، فلما خلعوا عيسى بايعوا أبا القاسم من بعده ، وقام بأمرهم الى أن هلك (٢) سنة سبع وستين ومائة .

وكان يخطب فى عمله للمنصور ثم للمهدى من بنى العباس ، ولما هلك ولوا عليهم ابنه الياس بن أبى القاسم – وكان يدعى بالوزير – ثم انتقضوا عليه سنة أربع وسبعين ومائة فخلعوه وولوا مكانه أخاه اليسع بن أبى القاسم وكنيته أبو منصور – وكان صفريا – وعلى عهده استفحل ملكهم بسجلماسة وهو الذى أدار سورها وأتم بناءها ، واختط بها المصانع والقصور ، وانتقل اليها آخر المائة الثانية ، وهلك سنة ثمان ومائتين وولى بعده ابنه مدرار – ولقبه المنتصر – وطالت مدته ، وكان له ولدان كل منهما اسمه ميمون ، أحدهما لاروى بنت عبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت ، والآخر لبغى – وكان يعرف بالامير – فتنازعا وتداولا الامر بينهما استبدادا على أبيهما ودامت الحرب بينهما ثلاث سنين ، وهلك أبوهما مدرار سنة ثلاث وخمسين ومائتين فى نوبة ميمون الامير ، واستمر ميمون هذا فى استبداده الى أن هلك سنة ثلاث وستين ومائتين وولى ابنه محمد بن ميمون – وكان اباضيا – وتوفى سنة سبعين ومائتين ، فولى اليسع ابن المنتصر .

وفى أيامه قدم عبيد الله المهدى أول خلفاء العبيديين من الشيعة وابنه أبو القاسم من المشرق ، فدخلا سجلماسة متنكرين ، وكان الخليفة المعتضد بالله العباسى قد أوعز الى اليسع هذا بالقبض عليهما فنقب عنهما وقبض

---

(١) ذكر ابن حجر فى تهذيب التهذيب بأنه كان من أعظم الداعين للبدعة الخارجية بافريقية ، وتوفى سنة ١٠٥ وقيل غير ذلك ، راجع ترجمته فى تهذيب التهذيب ، وابن خلكان وغيره .

(٢) قال البكرى سنة ثمان وستين فجأة فى آخر ركعة من صلاة العشاء

فهم الفتى الازدى اتلاف ماله وهم الفتى القيسى جمع الدراهم

ولاية روح بن حاتم على المغرب

ولما بلغ الرشيد وفاة يزيد بن حاتم ـ وكان أخوه روح واليا على فلسطين وكان أسن من يزيد ـ استقدمه وعزاه فى أخيه وولاه على المغرب ، فقدم القيروان منتصف سنة احدى وسبعين ومائة ، وكان يزيد قبله قد أذل الخوارج ومهد البلاد كما قلنا ، فكانت أرض المغرب ساكنة أيام روح ، ورغب فى موادعته عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن رستم صاحب تاهرت فوادعه

قال ابن خلدون : «وفى أيام روح انخضدت شوكة البربر واستكانوا للغلب وطاعوا للدين ، فضرب الاسلام بجرانه وألقت الدولة المضرية على البربر بكلكلها » اه . كلام ابن خلدون .

وفى أيام روح أيضا اجتاز الامام ادريس بن عبد الله ببلاد مصر وافريقية ناجيا من وقعة فخ التى كانت بمكة لآل العباس على آل على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، ودخل مدينة وليلى من المغرب الاقصى سنة اثنتين وسبعين ومائة كما سياتى ان شاء الله .

قال ابن خلكان : «كان روح بن حاتم من الكرماء الاجواد ولى لخمسة من الخلفاء السفاح والمنصور والمهدى والهادى والرشيد . ويقال أنه لم يتفق مثل هذا الا لابى موسى الاشعرى رضى الله عنه فانه ولى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللخلفاء الاربعة رضى الله عنهم» قال : «وكان روح واليا على السند ولاه عليها المهدى بن المنصور فلما مات أخوه يزيد بالقيروان ودفن بباب سلم قال أهل افريقية : ما أبعد ما يكون بين قبرى هذين الاخوين ! فأن أخاه بالسند وهذا هنا فاتفق أن الرشيد عزل روحا عن السند (١) وسيره

(١) هذا مخالف لما تقدم عند المؤلف اول الترجمة من أنه كان واليا على فلسطين واستقدمه الرشيد منها وأسند له أمر افريقية فى التاريخ

الى موضع أخيه يزيد فدخل افريقية أول رجب سنة احدى وسبعين ومائة ولم يزل واليا بها الى أن توفى بها لاحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان سنة أربع وسبعين ومائة ودفن مع أخيه يزيد فى قبر واحد فعجب الناس من هذا الاتفاق بعد ذلك التباعد رحمهما الله» .

ثم ولى المغرب من قبل الرشيد حبيب بن نصر المهلبى ثم عزله سنة سبع وسبعين ومائة .

وولى على المغرب الفضل بن روح بن حاتم وقتله عبد الله بن الجارود منتصف سنة ثمان وسبعين ومائة وانقرضت بانقراضه دولة آل المهلب من المغرب .

ثم ولى الرشيد على المغرب هرثمة بن أعين فبنى القصر الكبير بالمنستير (١) وبنى السور على طرابلس من جهة البحر ، ولما رأى هرثمة ما بالمغرب من كثرة الثوار والخلاف استعفى الرشيد من ولايتها فأعفاه لسنتين ونصف من ولايته .

ثم ولى الرشيد على افريقية محمد بن مقاتل العكى — وكان رضيعا له — فاضطربت عليه افريقية ، وبلغ الرشيد ذلك .

وطلب أهل افريقية من ابراهيم بن الاغلب — وكان من عمال محمد بن مقاتل أن يكتب الى الرشيد فى الولاية عليهم ، فكتب الى الرشيد فى ذلك على أن يترك المائة ألف دينار التى كانت تحمل من مصر الى افريقية اعانة للولاة بها ، وعلى أن يحمل هو من افريقية الى الخليفة أربعين ألفا ؟ وبلغ

المذكور . والرواية الاولى لابن خلدون وابن الاثير ، والثانية لابن خلكان ، ولعل الرواية الاولى هى الصحيحة . والمقالة التى قيلت فى بعد قبريهما نفت قيلت يوم ولايتهما لافريقية والسند زمن المنصور .

(١) المنستير بضم اوله وفتح ثانيه وسكون السين المهملة وكسر التاء بين المهدية وسوسة بأفريقية وهو موضع فيه خمسة قصور يحيط بها سور واحد ويسكن هذه القصور قوم من أهل العبادة والعلم قاله ياقوت .

الرشيد غناؤه وكفايته فاستشار فيه أصحابه ، فأشار هرثمة بن أعين بولايته، فكتب له بالعهد على افريقية منتصف أربع وثمانين ومائة ، فقام ابراهيم بالامر وضبط البلاد فسكنت واستراحت من الفتن وابتنى مدينة العباسية قرب القيروان ، وانتقل اليها بجملته وأورث بافريقية ملكا لبنيه من بعده .

وفى هذه المدة انقسم المغرب الى ثلاث ممالك فكان بنو الاغلب بافريقية والقيروان ، وبنو خزر المغراويون بالمغرب الاوسط وتلمسان ، وبنو ادريس بالمغرب الاقصى .

وقبل أن نفرد الكلام عليه نذكر فصلا نشير فيه الى مذاهب أهل المغرب ونحلهم على الجملة والله الموفق .

القول في مذاهب اهل المغرب أصولا وفروعا وما يتبع ذلك

قد تقدم لنا ما قاله الشيخ ابن أبى زيد رحمه الله من أن البربر ارتدوا اثنتى عشرة مرة ، وانه لم تستقر كلمة الاسلام فيهم الا لعهد موسى بن نصير وبعد فتحه الاندلس ، ثم كمل اسلامهم على يد اسمعيل بن عبيد الله ابن أبى المهاجر ؛ وتقدم أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أرسل عشرة من التابعين يفقهون أهل المغرب فى دينهم ؛ فكان المغاربة فى صدر الاسلام لذلك على مذهب جمهور السلف من الامة واعتقادهم - وهو المذهب الحق - الى أن حدثت فيهم بدعة الخارجية لاول المائة الثانية من الهجرة : نزع اليهم بها بعض أهل النفاق من خوارج العراق وبثوها فيهم فتلقوها منهم بالقبول وحسن موقعها لديهم بسبب ما كانوا يعانونه من ثقل وطأة الخلافة القريشية وجور بعض عمالها حسبما تقدمت الاشارة اليه فلقنهم أهل البدع أن الخلافة لا تشترط فيها القريشية بل ولا العربية وأن كل من كان أتقى لله كان أحق بها ولو عبدا حبشيا على ظاهر الحديث . ودسوا اليهم مع ذلك بعض تشددات الخوارج وتعمقاتهم وأروهم ما هم عليه من التصلب فى دينهم فظهر للبربر

بادىء الرأى أن تعمقهم ذلك انما هو أثر من آثار الخشية لله والخوف منه وان ذلك هو عين التقوى المأمور بها شرعا : وغاب عنهم أن الدين يسر كما قال صلى الله عليه وسلم وان ملة الاسلام عرفت من بين الملل بالحنيفية السمحة لذلك والله تعالى يقول : «ما جعل عليكم فى الدين من حرج» ومن أمعن نظره فى نصوص الشريعة من الكتاب والسنة علم يقينا أن طريق النجاة انما هى سلوك الوسط وان كلا من التعمق والانحلال ضلال والى ذلك الاشارة بقوله تعالى «وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله» الآية وقد قرر جمع من الائمة المقتدى بهم ـ كالغزالى فى الاحياء وغيره ـ أن المحمود فى أمور الديانات كلها انما هو سلوك الوسط بين الافراط والتفريط وبه يتم مراد الله من خلقه وكلا طرفى قصد الامور ذميم وهذا مبحث طويل نفيس وقد رمزنا اليه بهذه النبذة اليسيرة والتوفيق بيد الله .

وقد رسخت هذه البدعة الخارجية فى البربر زمانا طويلا الى أن اضمحلت فى أواخر المائة الثانية وما بعدها ومع ذلك فقد بقيت منها آثار فى أعقابهم من أصحاب الاطراف كما ذكره ابن خلدون والناقد بصير .

ولما طهر الخلفاء من بنى العباس المغرب من هذه النزعة الشيطانية أخذ أهله بعدها بمذاهب أهل العراق فى الاصول والفروع لان ذلك المذهب يومئذ هو مذهب الخلفاء بالمشرق والناس على قدم امامهم .

قال عياض فى المدارك : ظهر مذهب أبى حنيفة بافريقية ظهورا كبيرا الى قرب أربعمائة سنة فانقطع منها، ودخل منه شىء الى ما وراءها من المغرب قديما بمدينة فاس وبالاندلس وكذا ظهر بالاندلس أيضا مذهب عبد الرحمن الاوزاعى من أهل الشام .

واختلف الناس فى السبب الذى انتقل به أهل المغرب عن مذهب أبى حنيفة وغيره الى مذهب الامام مالك بن أنس ـ الذى هو مذهب السلف من أهل الحجاز ـ فقال ابن خلكان فى ترجمة المعز بن باديس الصنهاجى المتوفى فى أواسط المائة الخامسة ما نصه : «كان مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه

بافريقية أظهر المذاهب فحمل المعز المذكور جميع أهل المغرب على التمسك بمذهب الامام مالك رضى الله عنه وحسم مادة الخلاف فى المذاهب واستمر الحال من ذلك الوقت الى الآن» اه

قلت : كان المعز هذا وأسلافه من صنهاجة بافريقية على مذهب الرافضة من الشيعة أخذوه عن خلفائهم العبيديين أيام استيلائهم على المغرب فى صدر المائة الرابعة وحملوا الناس عليه وامتحنوهم وطارت بدعتهم فى أقطار المغرب كله ، فلما أفضى الأمر الى المعز بن باديس المذكور قطع دعوة الشيعة من افريقية . ودعا لبنى العباس وحمل الناس على التمسك بمذهب مالك عالم المدينة وامام دار الهجرة .

هذا والمعروف ان مذهب مالك ظهر أولا بالاندلس ثم انتقل منها الى المغرب الاقصى أيام الادارسة ، وكذا ظهر بافريقية ظهورا بينا قبل وجود المغرب بكثير بل قبل استيلاء صنهاجة والعبيديين على المغرب وذلك على يد أسد ابن الفرات وعبد السلام بن سعيد التنوخى المعروف بسحنون وغيرهما من أئمة المغاربة . نعم لما ظهرت دولة الشيعة بافريقية حاولوا محوه فلم يتيسر لهم ذلك . وكان فقهاء المالكية فى ذلك العصر معهم فى محنة عظيمة منهم ابن أبى زيد والقابسى وأبو عمران الفاسى وطبقتهم ، ولم يزل الامر على ذلك الى أن نصره المعز المذكور جزاه الله خيرا . قالوا وكان ظهوره بالاندلس على يد الفقيه زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون فهو أول من أدخله الاندلس، وكانوا قبل ذلك يتفقهون على مذهب الاوزاعى ـ امام أهل الشام ـ لمكان الدولة الاموية منهم ، فلما ظهر مالك رضى الله عنه بالمدينة وعظم صيته وانتشرت فتاويه باقطار الارض رحل اليه جماعة من أهل الاندلس والمغرب كان من أمثلهم وأسبقهم شبطون المذكور وقرعوس بن العباس وعيسى بن دينار وسعيد بن أبى هند وغيرهم أيام هشام بن عبد الرحمن الداخل . فلما رجعوا وصفوا من فضل مالك وسعة علمه وجلالة قدره ما عظم به ذكره بالاندلس فانتشر يومئذ علمه ورأيه بها .

وكان رائد الجماعة فى ذلك هو شبطون كما قلنا وهو أول من أدخل

كتاب الموطأ المغرب ، أتى به مكملا متقنا فأخذه عنه يحيى بن يحيى الليثى ثم رحل بعد ذلك الى مالك فقرأه عليه وعاد الى الاندلس فتمم ما كان قد بقى من شهرة المذهب المالكى

قال ابن حزم : «مذهبان انتشرا فى بدء أمرهما بالرئاسة والسلطان : مذهب أبى حنيفة فانه لما ولى الرشيد أبا يوسف خطة القضاء كانت القضاة من قبله من أقصى المشرق الى أقصى عمل افريقية ومذهب مالك عندنا بالاندلس فان يحيى بن يحيى كان مكينا عند السلطان مقبول القول فى القضاة وكان لا يلى قاض فى أقطار الاندلس الا بمشورته واختياره ولا يشير الا بأصحابه ومن كان على مذهبه ، والناس سراع الى الدنيا فأقبلوا على ما يرجون به بلوغ أغراضهم ، على أن يحيى لم يل قضاء قط ولا أجاب اليه وكان ذلك زائدا فى جلالته عندهم وداعيا الى قبول رأيه لديهم » اه

ورأيت فى بعض التآليف (١) فى سبب ظهور مذهب مالك بالاندلس والمغرب أن حاج المغرب والاندلس قدموا على مالك رضى الله عنه بالمدينة فسألهم عن سيرة عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل فقيل له انه يأكل الشعير ويلبس الصوف ويجاهد فى سبيل الله فقال مالك : ليت الله زين حرمنا بمثله ، فنقم عليه بنو العباس هذه المقالة وكان ذلك سبب توصلهم الى ضربه فى مسألة الاكراه كما هو مشهور ، وبلغت مقالته صاحب الاندلس فسر بها وجمع الناس على مذهبه فانتشر فى أقطار المغرب من يومئذ والله أعلم .

ومما يناسب هنا ما نقله المؤرخون ان أبا عبد الله محمد بن خيرون ـ الاندلسى الاصل القيروانى الدار رحل الى المشرق فى صدر المائة الرابعة فأخذ عن علمائه وقرائه وعاد الى افريقية بقراءة نافع بن أبى نعيم ـ وكان الغالب عليهم القراءة بحرف حمزة ـ فشاع حرف نافع من يومئذ فى أقطار المغرب بعد أن كان لايقرأ به الا الخواص واستمر الحال على ذلك الى اليوم .

---

(١) المقصود بها الديباج المذهب لابن فرحون وشرح ابن نباتة لرسالة ابن زيدون .

فهذا حال أهل المغرب فى الفروع

وأما حالهم فى الاصول والاعتقادات فبعد أن طهرهم الله تعالى من نزعة الخارجية أولا والرافضية ثانيا أقاموا على مذهب أهل السنة والجماعة مقلدين للجمهور من السلف رضى الله عنهم فى الايمان بالمتشابه وعدم التعرض له بالتأويل مع التنزيه عن الظاهر - وهو والله أحسن المذاهب (١) وأسلمها ولله در القائل :

عقيدتنا أن ليس مثل صفاته ولا ذاته شىء ، عقيدة صائب
نسلم آيات الصفات بأسرها وأخبارها للظاهر المتقارب
ونؤيس عنها كنه فهم عقولنا وتأويلنا ، فعل اللبيب المراقب
ونركب للتسليم سفنا ، فانها لتسليم دين المرء خير المراكب

واستمر الحال على ذلك مدة الى أن ظهر محمد بن تومرت مهدى الموحدين فى صدر المائة السادسة ، فرحل الى المشرق وأخذ عن علمائه مذهب الشيخ أبى الحسن الاشعرى ومتأخرى أصحابه من الجزم بعقيدة السلف مع تأويل المتشابه من الكتاب والسنة وتخريجه على ما عرف فى كلام العرب من فنون مجازاتها وضروب بلاغاتها مما يوافق عليه النقل والشرع ، ويسلمه العقل والطبع . ثم عاد محمد بن تومرت الى المغرب ودعا الناس الى سلوك هذه الطريقة ، وجزم بتضليل من خالفها بل بتكفيره ، وسمى أتباعه الموحدين ، -تعريضا بأن من خالف طريقته ليس بموحد ، - وجعل ذلك ذريعة الى الانتزاء على ملك المغرب حسبما تقف عليه مفصلا بعد ان شاء الله ، لكنه ما أتى بطريقة الاشعرى خالصة بل مزجها بشىء من الخارجية والشيعة حسبما يعلم ذلك بامعان النظر فى أقواله وأحواله وأحوال خلفائه من بعده ، ومن ذلك الوقت أقبل علماء المغرب على تعاطى مذهب الاشعرى وتقريره وتحريره درسا وتأليفا الى الآن ، وان كان قد ظهر بالمغرب قبل ابن تومرت

---

(١) قد انتصر المؤلف رحمه الله لهذا المذهب فى تأليفه المسمى : « تعظيم المنة بنصرة السنة » بما لا مزيد عليه .

فظهورا ما . والله أعلم

وقد كان عبد المؤمن بن على وبنوه من بعده منعوا الناس من التقليد فى الفروع وحملوا الائمة على أخذ الاحكام الشرعية من الكتاب والسنة مباشرة على طريقة الاجتهاد المطلق ، وحرقوا شيئا كثيرا من كتب الفروع الحديثة التصنيف ، ووقع ذلك من بعض علماء عصرهم موقع الاستحسان ، منهم الامام الحافظ أبو بكر بن العربى فقد ذكر فى كتاب القواصم والعواصم له ما يشعر بذلك ، قال بعد ذكره ما وقع بالمغرب من الفتن ما نصه : « عطفنا عنان القول الى مصائب نزلت بالعلماء فى طريق الفتوى لما كثرت البدع وذهب العلماء ، وتعاطت المبتدعة منصب الفقهاء وتعلقت أطماع الجهال به فنالوه بفساد الزمان ، ونفوذ وعد الصادق صلى الله عليه وسلم فى قوله : « اتخذ الناس رؤوسا جهالا ، فسئلوا فأفتوا ، بغير علم ، فضلوا وأضلوا » وبقيت الحال هكذا فماتت العلوم الا عند آحاد الناس ، واستمرت القرون على موت العلم وظهور الجهل وذلك بقدرة الله تعالى ، وجعل الخلف منهم يتبع السلف حتى آلت الحال الى أن لا ينظر فى قول مالك وكبراء أصحابه . ويقال قد قال فى هذه المسألة أهل قرطبة وأهل طلمنكة وأهل طليطلة . وصار الصبى اذا عقل وسلكوا به أمثل طريقة لهم علموه كتاب الله تعالى ثم نقلوه الى الادب ثم الى الموطأ ثم الى المدونة ثم الى وثائق ابن العطار ، ثم يختمون له بأحكام ابن سهل ، ثم يقال: قال فلان الطليطلى وفلان المجريطى وابن مغيث لا أغاث (١) الله ثراه فيرجع القهقرى ، ولا يزال يمشى الى وراء ولولا أن الله تعالى من بطائفة تفرقت فى ديار العلم وجاءت بلباب منه كالقاضى أبى الوليد الباجى وأبى محمد الاصيلى فرشوا من ماء العلم على هذه القلوب الميتة وعطروا أنفاس الامة الذفرة ، لكان الدين قد ذهب ولكن تدارك

---

(١) علق المؤلف رحمه الله فى بعض أصوله التاريخية على هذه العبارة فى حق ابن مغيث ما نصه : « أنظر فى الكلام على السماع من جامع المعيار ما أثنى به عياض على ابن مغيث رحم الله الجميع »

البارى تعالى بقدرته ضرر هؤلاء بنفع هؤلاء وربما سكنت الحال قليلا والحمد لله . اه والله تعالى ولى التوفيق .

تتمة مهمة (*)

قد ظهر ببلاد المغرب وغيرها منذ أعصار متطاولة ـ لاسيما فى المائة العاشرة وما بعدها ـ بدعوة قبيحة وهى اجتماع طائفة من العامة على شيخ من الشيوخ الذين عاصروهم أو تقدموهم ممن يشار اليه بالولاية والخصوصية ، ويخصونه بمزيد المحبة والتعظيم ، ويتمسكون بخدمته والتقرب اليه قدرا زائدا على غيره من الشيوخ بحيث يرتسم فى خيال جلهم أن كل المشايخ أو جلهم دونه فى المنزلة عند الله تعالى ويقولون نحن أتباع سيدى فلان وخدام

(*) قد تصدى المؤلف رحمه الله لهذه البدعة وغيرها من البدع المحدثات فى الدين ، وشرحها وبين مخالفتها لما جاء عن الله ورسوله بالحجج القاطعة والادلة الواضحة الساطعة فى تأليف كبير له خصصه لهذا القصد وسماه : « تعظيم المنة بنصرة السنة » ما زال لم يطبع ، رتبه على أبواب الفقه من توحيد وطهارة وصلاة وزكاة وحج وتصوف وغير ذلك واستفرغ جهده فى تفنيد سائر البدع والذب عن حوزة الشرع والدين بمالا مزيد عليه ، وانتقد سائر ما ظهر من المنكرات والبدع فى الاقطار الاسلامية على الجملة وفى المغرب بالخصوص فى سائر الاعصار والامصار فجاء تأليفا عجيبا فى بابه ودستورا جامعا فى فنه ، جزاه الله عن نصرة الاسلام والدين خيرا ، وأما ما كتبه فى هذه التتمة فانما هو قل من جل ونقطة من بحر لاسيما فيما يرجع لحدوث الطوائف وأرباب الزوايا بالمغرب فقد تكفل باستقصاء ذلك وتفصيله .

الدار الفلانية ، لا يحولون عن ذلك ولا يزولون خلفا عن سلف ، وينادون باسمه ويستغيثون به ويفزعون فى مهماتهم اليه ، معتقدين ان التقرب اليه نافع والانحراف عنه قيد شبر ضار ، مع أن النافع والضار هو الله وحده ؟ واذا ذكر لهم شيخ آخر أو دعوا اليه حاصوا حيصة حمر الوحش من غير تبصر فى أحواله هل يستحق ذلك التعظيم أم لا ، فصار الامر عصبيا وصارت الامة بذلك طرائق قددا ، ففى كل بلد أو قرية عدة طوائف وهذا لم يكن معروفا فى سلف الامة الذين هم القدوة لمن بعدهم ، وغرض الشارع انما هو فى الاجتماع وتمام الالفة واتحاد الوجهة ، وقد قال تعالى لاهل الكتاب «تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم » الآية وقد ذم قوما فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، وانما الشأن فى أهل الخصوصية والدين أن يكونوا عند العاقل المحتاط لدينه كأسنان المشط بحيث يحبهم لله وفى الله ويستشفع بهم الى الله ، ويسأله تعالى أن يكرمه بما أكرمهم به من الخير والهدى والدين ، وليحبهم حب التشرع لا حب التشيع ، وليتأدب معهم ولا يقدم على مفاضلتهم بالهوى والرجم بالغيب فان ذلك متوقف على الاطلاع على منزلتهم عند الله ، وذلك محجوب عنا ؛ واذا نزلت به حاجة فليفزع فى قضائها الى مولاه الذى خلقه ورزقه ، مستشفعا اليه بنبيه الذى هداه للايمان على يده ، ثم بخواص الامة الذين هم آباؤنا فى الدين ، فان المطلوب من العبد أن يصرف وجهته وقصده فى جميع أموره ، ويتعلق فيها بالله بحيث لا يطلبها الا منه ، ولا يتكل فيها الا عليه قاطعا للنظر عن كل ما سواه اللهم الا على سبيل التوسل والاستشفاع كما قلنا ، هذا هو التوحيد الذى بعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم ، واليه دعا ، وعليه قاتل ، وسواه شرك ومنابذا لما جاء به « ان هذا لهو القصص الحق ، وما من اله الا الله » الآية .

ثم استرسل هؤلاء الطغام فى ضلالهم حتى صارت كل طائفة تجتمع فى أوقات معلومة فى مكان مخصوص ـ أو غيره ـ على بدعتهم التى يسمونها الحضرة ! فما شئت من طست وطار ! وطبل ومزمار وغناء ورقص وخبط وفحص ! وربما أضافوا الى ذلك نارا أو غيرها يستعملونه على سبيل الكرامة

بزعمهم ! ويستغرقون فى ذلك الزمن الطويل حتى يمضى الوقت والوقتان من أوقات الصلوات ! وداعى الفلاح ينادى على رؤوسهم - وهم فى حيرتهم يعمهون - لا يرفعون به رأسا ! ولا يرون بما هم فيه من الضلال بأسا ! بل يعتقدون أن ماهم فيه من أفضل القرب الى الله ! تعالى الله عن جهالتهم علوا كبيرا .

ولا تجد فى هذه المجامع الشيطانية غالبا الا من بلغ الغاية فى الجفاء والجهل ، ممن لا يحسن الفاتحة فضلا عن غيرها ، مع ترك الصلاة طول عمره أو من فى معناه من معتوه ناقص العقل والدين ، فما أحوج هؤلاء الفسقة الى محتسب يغير عليهم ما هم فيه من المنكر العظيم واللبس المقيم ، وأعظم من هذا كله انهم يفعلون تلك الحضرة غالبا فى المساجد ، فانهم يتخذون الزاوية باسم الشيخ ويجعلونها مسجدا للصلاة بالمحراب والمنار وغير ذلك ، ثم يعمرونها بهذه البدعة الشنيعة ، فكم رأينا من عود ورباب ومزمار على أفحش الهيات فى محاريب الصلوات !

ومن بدعهم الشنيعة محاكاتهم أضرحة الشيوخ لبيت الله الحرام من جعل الكسوة لها وتحديد الحرم على مسافة معلومة بحيث يكون من دخل تلك البقعة من أهل الجرائم آمنا وسوق الذبائح اليها على هيئة الهدى ! واتخاذ الموسم كل عام ! وهذا وأمثاله لم يشرع الا فى حق الكعبة ، ثم يقع فى ذلك الموسم - ولاسيما مواسم البادية - من المناكر والمفاسد العظام واختلاط الرجال بالنساء باديات متبرجات - شأن أهل الاباحة وشأن قوم نوح فى جاهليتهم - ما تصم عنه الآذان ولا منكر ولا مغير ولا ممتعض للدين ! لا ! بل للحسب ! فأما الدين عند هؤلاء فلا دين ! فانا لله وانا اليه راجعون على ضيعة الدين وغفلة أهله عنه ؟ ويا لله ويا للمسلمين لهؤلاء الهمج الرعاع ! الذين سلبوا المروءة والحياء والغيرة والعقل والدين والانسانية جملة ! فليسوا فى فطنة الشياطين ! ولا فى سلامة صدور البهائم ! ولا فى نخوة السباع فيغضبوا لديهم ومروءتهم !

ومن جهالاتهم الفظيعة جمعهم بين اسم الله تعالى واسم الولى فى مقامات

التعظيم ـ كالقسم والاستعطاف وغيرهما ـ فاذا أقسموا قالوا : « وحق الله وحق سيدى فلان » ! واذا عزموا على أحد قالوا : « دخلت عليك بالله وسيدى فلان » ! واذا سألوا قالوا : « من يعطينا على الله وعلى سيدى فلان » ! فيعطفون اسم العبد على اسم مولاه بالواو المقتضية للتشريك والتسوية التامة ! فى مقام قد حظر الشارع أن يتجاوز فيه اسم الله الى غيره ! وهذا هو صريح الشرك .

ومن مناكرهم الجديرة بالتغيير : اجتماعهم كل سنة للوقوف يوم عرفة بضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش رضى الله عنه ! ويسمون ذلك حج المسكين ! فانظر الى هذه الطامة التى اخترعها هؤلاء العامة .

ومن اختراعاتهم : تسميتهم لبدعتهم بالحضرة ـ كما قلنا ـ أخذا من اسم حضرة الله تعالى فى أصلاح الائمة العارفين من الصوفية ! كأهل رسالة القشيرى ومن فى معناهم فأوهم هؤلاء الشياطين بهذه التسمية انهم يكونون فى حال اشتغالهم بتلك البدعة فى حضرة الله تعالى ؛ ثم يذهبون فيسمون جنونهم وتخبطهم على تلك الطبول والمزامير بالحال ! أخذا من الحال التى تعترى السالك الى الله تعالى فى حال ترقيه فى درجات المعرفة والوصول ، وهذا لعمر الله من أقبح الضلالات وأشنع الجهالات . الى غير هذا مما أغنى فيه العيان عن الخبر ، وعرفه الخاص والعام فى حالتى الورد والصدر .

ولسنا ننكر على أولياء الله وأهل الخصوصية منهم أو على من يسلك سبيلهم على الوجه المقرر فى كتب الائمة المقتدى بهم منهم ، وانما نشرح حال هؤلاء الجهلة الذين لم يأتوا الامر من بابه ، ولا أخذوه عن أربابه ، وانما حالهم ما رأيت وعلمت ، وهذه نفثة مصدور ، صاحبها عند المنصف معذور ، فنسأل الله العظيم ، المولى الكريم ، أن يحرك همة من له القدرة والتصرف الى حسم هذه الضلالات وقطعها ، عسى أن يرحمنا ربنا ويجبر كسرنا ويكبت عدونا اذا نحن راجعنا ديننا وسنة نبينا (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، واذا أراد الله بقوم سوء فلا مرد له ، ومالهم من دونه من وال) .

وقد آن أن نفرد الكلام على المغرب الاقصى عند ما استولى عليه المولى ادريس بن عبد الله وبنوه من بعده ، واقتطعوه عن نظر الخلفاء بالمشرق ، وصيروه مملكة مستقلة ، اذ كان ذلك من شرط كتابنا هذا ، حسبما تقدمت الاشارة اليه ، مقدمين لذلك ما يجب تقديمه من الاشارة الى أمر الخلافة وتنازع أهل الصدر الاول فى استحقاقها ومن هو أولى بها ، ثم نتخلص منه الى المقصود بالذات والله الموفق .



الدولة الادريسية

الخبر عن دولة آل ادريس بالمغرب الاقصى وذكر السبب في اوليتها

اعلم أنه قد ثبت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ان هذا الامر فى قريش لا يعاديهم أحد الا كبه الله على وجهه ، ما أقاموا الدين » وفيه أيضا أنه صلى الله عليه وسلم قال : « لا يزال هذا الامر فى قريش ما بقى منهم اثنان » .

قال الحافظ ابن حجر : « لو فقد قرشى فكنانى ثم رجل من بنى اسمعيل ثم عجمى على ما فى التهذيب أو جرهمى على مافى التتمة ثم رجل من بنى اسحق . وأن يكون شجاعا ليغزو بنفسه ويعالج الجيوش ويقوى على فتح البلاد ويحمى البيضة وأن يكون أهلا للقضاء بأن يكون مسلما مكلفا حرا عدلا ذكرا مجتهدا ذا رأى وسمع وبصر ونطق .

وتنعقد الامامة ببيعة أهل الحل والعقد من العلماء ووجوه الناس المتيسر اجتماعهم ، وباستخلاف الامام من يعينه فى حياته ويشترط القبول فى حياته ليكون خليفة بعد موته ، وباستيلاء متغلب على الامامة ولو غير أهل لها كصبى وامرأة ان قهر الناس بشوكته وجنده وذلك لينظم أمر المسلمين» اه .

ثم نقول قد تقدم لنا أمر الخلفاء الاربعة رضى الله عنهم بعد النبى صلى الله عليه وسلم وان السلف أطبقوا على أن ترتيبهم فى الفضل على حسب ترتيبهم فى الخلافة ، وتقدم لنا أيضا ما كان من على ومعاوية رضى الله عنهما وأن ما صدر منهما كان اجتهادا محضا وطلبا للحق ، وأن الصواب كان مع على رضى الله عنه والكل مأجور .

ثم لما قتل على رضى الله عنه بايع أهل العراق ابنه الحسن رضى الله عنه وزحف اليه معاوية فى أهل الشام ، ورأى الحسن ما فى حقن دماء المسلمين وجمع كلمتهم من الثواب عند الله والكرامة لديه ، فاختار الاخرى على الدنيا وقدم الآجل على العاجل ، وسلم الامر الى معاوية على شروط معروفة ، وأصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين كما قال جده صلى الله عليه وسلم .

وحاز معاوية الخلافة وصفت له وتوارثها بنو أمية من بعده بعد مقاتلات ومنازعات كانت من بنى هاشم وغيرهم لهم يطول جلبها .

وكان السواد الاعظم من المسلمين يرون أن بنى هاشم أحق بالامر من بنى أمية لان بنى هاشم هم آل بيت النبى صلى الله عليه وسلم وعشيرته الاقربون ، وهم أهل العلم والدين والخصوصية الذين اجتباهم الله وأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، فهم أحق بمنصب رسول الله صلى الله عليه وسلم من غيرهم ؛ وهذا الرأى صواب ، غير أن ذلك ليس بطريق الوجوب عند أهل السنة بل بطريق الاحقية والاولوية اذا توفرت الشروط فيهم وفى غيرهم من سائر بطون قريش ، والا فمن انفردت به الشروط وجب المصير اليه .

وكان شيعة على بن أبى طالب رضى الله عنه يوجبون الخلافة لبنيه دون من عداهم ويزعمون أن ذلك كان بوصية من النبى صلى الله عليه وسلم لعلى رضى الله عنه ، وهذه الوصية لم تثبت عند أهل السنة من طريق صحيح ، ومذاهب هؤلاء الشيعة فى كيفية سوق الخلافة فى عقب على رضى الله عنه متعددة لا حاجة لنا بذكرها .

وكان بنو على رضى الله عنه فى الصدر الاول كثيرا ما يثورون فى النواحى شرقا وغربا طالبين حقهم فى الخلافة ، منازعين فيها لبنى أمية أولا ثم لبنى العباس من بعدهم ثانيا وخبرهم فى ذلك معروف ، وجلبه يطول الى أن كان منهم عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ـ وكان من سادة أهل البيت يومئذ ـ وكان له عدة

أولاد ، منهم محمد المعروف بالنفس الزكيـــة وابراهيم ويحيـى وسليمان وادريس وغيرهم .

ولما صار أمر بنى أمية الى الاختلال أيام مروان الحمار آخر خلفائهم اجتمع أهل البيت بالمدينة وتشاوروا فيمن يقدمونه للخلافة ، فوقع اختيارهم على محمد بن عبد الله النفس الزكية ، فبايعوا له بالخلافة وسلموا لـه الامر بأجمعهم ، وحضر هذا العقد أبو جعفر عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس وهو المنصور ، وذلك قبل أن تنتقل الخلافة الى بنى العباس ، فبايع للنفس الزكية فيمن بايع له من أهل البيت وأجمعوا عـلى ذلك لتقدمه فيهم لما علموا له من الفضل عليهم .

قال ابن خلدون : «ولهذا كان مالك وابو حنيفة رحمهما الله يحتجان له حين خرج بالحجاز ، ويريان ان امامته أصح مـن امامة أبى جعفر المنصور لانعقاد هذه البيعة أولا ، وكان أبو حنيفة يقول بفضله ويحتج لحقـه ، فتأدت الى الامامين المحنة بسبب ذلك أيام أبى جعفر المنصور ، حتـى ضرب مالك رضى الله عنه على الفتيا فى طلاق المكره ، وحبس أبو حنيفة رضى الله عنه على القضاء» .

ولما انقرضت دولة بنى أمية وجاءت دولة بنى العباس وصار الامر الى أبى جعفر المنصور منهم سعى عنده بآل البيت ، وان محمد بن عبد الله يروم الخروج عليه ، وان دعاته قد ظهروا بخراسان فأمر المنصور عامله على المدينة رباح بن عثمان المرى بحبس عبد الله بن حسن ومن اليه مـــن آل الحسن ابن على بن أبى طالب ، فحبسه جماعة من بنيه واخوته وبنى عمه ، قال ابن خلدون : فى خمسة وأربعين من أكابرهم ، وقـدم المنصور المدينة فى حجة حجها فساقهم معه الى العراق ، وحبسهم بقصر ابن هبيرة مـن ظاهر الكوفة حتى هلكوا فى حبسهم ، وجد المنصور فى طلب محمد بـن عبد الله النفس الزكية وأخيه ابراهيم لكونهما تغيبا فلم يحبسا فى جملة مـــن حبس مـن عشيرتهـم .

ثم لما كانت سنة خمس وأربعين ومائة وأرهق محمد بـن عبد الله الطلب ،

وأعيت عليه المذاهب ظهر بالمدينة المنورة ، ودعا الناس الى بيعته فبايعوه .

واستفتى أهل المدينة الامام مالكا رضى الله عنه فى الخروج مع محمد ابن عبد الله وقالوا فى أعناقنا بيعة للمنصور ، فقال انما بايعتم مكرهين ، فتسارع الناس الى محمد وأجابوا دعوته ، ولزم الامام مالك بيته وخطب محمد بن عبد الله على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر المنصور بما نقمه عليه ، ووعد الناس واستنصر بهم ، وتسمى بالمهدى ، ولم يتخلف عن بيعته من وجوه الناس الا القليل .

وبلغ المنصور خبر محمد بن عبد الله وما كان منه بالمدينة ، فأشفق من ذلك غاية الاشفاق ، وكتب الى محمد كتاب أمان ويعده الجميل ان هو راجع الطاعة ، فأجابه محمد بعدم قبول ذلك منه، ودارت بينهما مكاتبات ومحاورات فى الافضلية واستحقاق الخلافة ، وقد ذكر مكاتبتهما المبرد فى كامله ، وابن خلدون فى تاريخه .

وآخر الامر أن المنصور بعث لحرب محمد المهدى ابن عمه عيسى بن موسى العباسى . فاستعد المهدى للقتال وأدار على المدينة الخندق الذى حفره رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاحزاب ، وقدمت جيوش العباسيين ونزلوا على المدينة .

وخرج اليهم محمد بن عبد الله فيمن بايعه واقتتل الناس قتالا شديدا، وأبلى محمد المهدى فى ذلك اليوم بلاء عظيما . وقتل بيده سبعين رجلا .

ولما اشتد القتال وعاين مخايل الاختلال انصرف فاغتسل وتحنط وجمع بين الظهر والعصر ومضى فأحرق الديوان الذى كان فيه أسماء من بايعه وجاء الى السجن فقتل رباح بن عثمان عامل المنصور على المدينة ، وقتل معه جماعة كانوا مسجونين عنده ثم عاد الى المعركة وقد تفرق عنه جل أصحابه ولم يبق معه الا نحو ثلاثمائة فقال له بعضهم : نحن اليوم فى عدة أهل بدر ثم تقدم فقاتل حتى قتل : ضرب فسقط لركبتيه وطعنه حميد بن قحطبة فى صدره ثم احتز رأسه وأتى به عيسى بن موسى فبعث به الى المنصور .

وكان مقتل محمد المهدى رحمه الله فى منتصف رمضان سنة خمس

وأربعين ومائة ، وقتل معه جماعة من أهل بيتـه وأصحابه ولحق ابنه على بن محمد بالسند الى أن هلك هناك ، واختفى ابنه الآخر عبد الله الاشتر الى أن هلك أيضا فى خبر طويل .

ثم خرج ابراهيم بن عبد الله أخو المهدى المذكور بالبصرة عقب ذلك فبعث اليه المنصور عيسى بن موسى المذكور آنفا فقاتله آخـر ذى القعدة من السنة فانهزم ابراهيم وقتل رحمه الله بعد أن بايعه أكثر من مائة ألف .

ثم لما كانت سنة تسع وستين ومائة فى أيــام موسى الهادى بن محمد المهدى بن أبى جعفر المنصور ، خرج بالمدينة الحسين بالتصغير بـــن على بن الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكان معه جماعة من أهل بيته منهم ادريس ويحيى وسليمان بنو عبد الله بن الحسن المثنى ـ وهم اخوة محمد النفس الزكيــة ـ فاشتد أمر الحسين المذكور بالمدينة وجرى بينه وبين عامل الهادى عـلى المدينة ـ وهو عمر بن عبد العزيز بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ـ قتال ، فانهزم عمر المذكور ، وبايع الناس الحسين المذكور على كتاب الله وسنة نبيه للمرتضى من آل محمد ـ وكانوا يكنون بذلك عن الامام المستور الى أن يقدر على اظهار أمره ـ وأقام الحسين وأصحابه بالمدينة يتجهزون أياما ثم خرجوا الى مكة يوم السبت لست بقين من ذى القعدة فانتهى الحسين الى مكة ، وانضم اليه جماعة من عبيدها .

وكان قد حج تلك السنة جماعة من وجوه بنـى العباس وشيعتهم ، فمنهم سليمان بن أبى جعفر المنصور ومحمد بن سليمان بن على والعباس بن محمد بن على وانضم اليهم من حج من قوادهم ومواليهم واقتتلوا مع الحسين المذكور يوم التروية ـ الثامن من ذى الحجة ـ فانهزم الحسين وأصحابه وقتل فاحتزوا رأسه وأحضروه أمام بنى العباس وهو مضروب على قفاه وجبهته ، ثم جمعت رؤوس أصحابه فكانت مائة ونيفا وكان فيها رأس سليمان بن عبد الله بن الحسن المثنى فى قول واختلط المنهزمون بالحاج فذهبوا فى كل وجه.

وكان مقتلهم بموضع يقال له فخ على ثلاثة أميال مـــن مكة سنة تسع

وستين ومائة كما قلنا . وفى ذلك يقول بعض شعراء ذلك العصر :

فلا بكين على الحسيـ ـن بعولة ، وعلى الحسن
وعلى ابـن عاتكة الـذى واروه ليس لـه كفـن
تركـوا بفـخ غـدوة فى غيـر منزلة الوطـن

فى أبيات . والحسن الذى ذكره فى هذه الابيات هو الحسن بن محمد ابن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبى طالب ، وكان أسر فى ذلك اليوم فضربت عنقه صبرا ، وابن عاتكة الذى ذكـره هو عبد الله بن اسحق بن ابراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبى طالب. ثم حمل رأس الحسين ومعه باقـى الرؤوس الى الهادى فأنكر عليهم حمل رأس الحسين ولم يعطهم جوائزهم غضبا عليهم .

دخول ادريس بن عبد الله أرض المغرب الاقصى

قد تقدم لنا أن يحيى وادريس ابنى عبد الله حضرا وقعة فخ مع الحسين ابن على المذكور آنفا . فأما يحيى فانه فر من الوقعة المذكورة الى بلاد الديلم فى جهة الشرق ودعا الناس الى بيعته فبايعوه واشتدت شوكته. ثم ان الرشيد جهز اليه الفضل بن يحيى البرمكى فى جيش كثيف فكاتبه الفضل وبذل له الامان وما يختاره ، فأجابه يحيى بن عبد الله الى ذلك وطلب يمين الرشيد وأن يكون بخطه ويشهد فيه الاكابر . ففعل ذلك ، وحضر يحيى بـن عبد الله الى بغداد فأكرمه الرشيد وأعطاه مالا كثيرا ثـم حبسه حتـى مات فى السجـن .

وأما ادريس فانه فر من الوقعة المذكورة ولحق بمصر ، وعلى بريدها يومئذ واضح مولى صالح بن المنصور ـ ويعرف بالمسكين ـ وكان واضح يتشيع لآل البيت ، فعلم شأن ادريس وأتاه الى الموضع الذى كـان مستخفيا به ، ولم ير شيئا أخلص له من أن يحمله على البريد الى المغرب ففعـل ، ولحق

ادريس بالمغرب الاقصى هو ومولاه راشد . فنزل بمدينة وليلى سنة ثنتين وسبعين ومائة ، وبها يومئذ اسحق بن محمد بن عبد الحميد أمير أوربة من البربر البرانس فأجاره وأكرمه وجمع البربر على القيام بدعوته ، وخلع الطاعة العباسية وكشف القناع فى ذلك وانتهى الخبر الى الرشيد بما فعله واضح فى شأن ادريس فقتله وصلبه .

وقال ابن أبى زرع فى كتاب القرطاس : ان ادريس بن عبد الله لما قتلت عشيرته بفخ فر بنفسه متستترا فى البلاد يريد المغرب فسار من مكة حتى وصل الى مصر ومعه مولى له اسمه راشد ، فدخلها والعامل عليها يومئذ لبنى العباس هو على بن سليمان الهاشمى فبينما ادريس وراشد يمشيان فى شوارع مصر اذ مرا بدار حسنة البناء فوقفا يتأملانها ، واذا بصاحب الدار قد خرج فسلم عليهما وقال : «ما الذى تنظرانه من هذه الدار» فقال راشد : «أعجبنا حسن بنائها» قال : «وأظنكما غريبين ليسا من هذه البلاد» فقال راشد: «جعلت فداك ان الامر كما ذكرت» قال : «فمن أى الاقاليم أنتما» قالا : «من الحجاز» قال : « فمن أى بلاده » قالا : « من مكة » قال : « واخالكما من شيعة الحسنيين الفارين من وقعة فخ» فهما بالانكار ثم توسما فيه الخير فقال راشد : «ياسيدى أرى لك صورة حسنة وقد توسمت فيك الخير أرأيت ان أخبرناك من نحن أكنت تستر علينا ؟ » قال : « نعم ورب الكعبة وأبذل الجهد فى صلاح حالكما» فقال راشد : «هذا ادريس بن عبد الله بن حسن وأنا مولاه راشد ، فررت به خوفا عليه من القتل ونحن قاصدون بلاد المغرب» فقال الرجل : «لتطمئن نفوسكما فانى من شيعة آل البيت وأول من كتم سرهم فأنتما من الآمنين» ثم أدخلهما منزله وبالغ فى الاحسان اليهما فاتصل خبرهما بعلى بن سليمان صاحب مصر ، فبعث الى الرجل الذى هما عنده ، فقال له : «انه قد رفع الى خبر الرجلين اللذين عندك ، وان أمير المؤمنين قد كتب الى فى طلب الحسنيين والبحث عنهم ، وقد بث عيونه على الطرقات وجعل الرصاد على أطراف البلاد فلا يمر بهم أحد حتى يعرف نسبه وحاله ، وانى أكره أن أتعرض لدماء آل البيت فلك ولهم الامان فاذهب اليهما

واعلمهما بمقالى ، وامرهما بالخروج من عملى ، وقد أجلتهما ثلاثـــا» فسار الرجل فاشترى راحلتين لادريس ومولاه واشترى لنفسه أخرى وضع زادا يبلغهما الى افريقية وقال لراشد : «اخرج أنت مع الرفقة على الجادة وأخرج أنا وادريس على طريق غامض لاتسلكه الرفـاق ، وموعدنا مدينــة برقة» فخرج راشد مع الرفقة فى زى التجار ، وخرج ادريس مع المصرى فسلكا البرية حتى وصلا الى برقة وأقاما بها حتى لحق بهما راشد ، ثم جدد المصرى لهما زادا وودعهما وانصرف .

وسار ادريس وراشد يجدان السير حتى وصلا الى القيروان فأقاما بها مدة ، ثم خرجا الى المغرب الاقصى .

وكان راشد من اهل النجدة والحزم والدين والنصيحة لآل البيت ، فعمد الى ادريس حين خرجا من القيروان فألبسه مدرعة صوف خشينة وعمامة كذلك ، وصيره كالخادم له يأمره وينهاه ، كل ذلك خوفا عليه وحياطة له ، ثم وصلا الى مدينة تلمسان فأراحا بها أياما ثم ارتحلا نحو بلاد طنجة فسارا حتى عبرا وادى ملوية ودخلا بلاد السوس الادنى وتقدما الى مدينــة طنجة ـ وهى يومئذ قاعدة بلاد المغرب الاقصى وأم مدنه ـ فأقاما بهـا أياما ، فلما لم يجد ادريس بها مراده خرج مع مولاه راشد حتى انتهيا الى مدينة وليلى قاعدة جبل زرهون .

وكانت مدينة متوسطة حصينة كثيرة المياه والغروس والزيتون ، وكان لها سور عظيم من بنيان الاوائل يقال انها المسماة اليـــوم بقصر فرعون ، فنزل بها ادريس على صاحبها ابن عبد الحميد الاوربى فأقبل عليه ابـن عبد الحميد وبالـغ فى اكرامه وبره ، فعرفـــه ادريس بنفسه وأفضى اليه بسره فوافقه على مراده وأنزله معه فى داره وتولى خدمته والقيام بشؤونه .

وكان دخول ادريس المغرب ونزوله على ابن عبد الحميد بمدينة وليلى غرة ربيع الاول سنة اثنتين وسبعين ومائة .

بيعة الامام ادريس بن عبد الله رضى الله عنه

لما استقر ادريس بن عبد الله بمدينة وليلى عند كبيرها اسحق بن محمد ابن عبد الحميد الاوربى أقام عنده ستة أشهر فلما دخل شهر رمضان من السنة جمع ابن عبد الحميد عشيرته من أوربة وعرفهم بنسب ادريس وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرر لهم فضله ودينه وعلمه واجتماع خصال الخير فيه ، فقالوا الحمد لله الذى أكرمنا به وشرفنا بجواره وهو سيدنا ونحن العبيد ، فما تريد منا ؟ قال : « تبايعونه » قالوا : « ما منا من يتوقف عن بيعته » فبايعوه بمدينة وليلى يوم الجمعة رابع رمضان المعظم سنة اثنتين وسبعين ومائة .

وكان أول من بايعه قبيلة أوربة على السمع والطاعة والقيام بأمره ، والاقتداء به فى صلواتهم وغزواتهم وسائر أحكامهم .

وكانت أوربة يومئذ من أعظم قبائل البربر بالمغرب الاقصى وأكثرها عددا ، وتلتها فى نصرة ادريس والقيام بأمره مغيلة وصدينة ، وهما معا من ولد تامزيت بن ضرى

ولما بويع ادريس رحمه الله خطب الناس فقال بعد حمد الله والصلاة على نبيه صلى الله عليه وسلم «أيها الناس لا تمدن الاعناق الى غيرنا ، فان الذى تجدونه من الحق عندنا لا تجدونه عند غيرنا »

ثم بعد ذلك وفدت عليه قبائل زناتة والبربر مثل زواغة وزواوة وسدراتة وغياثة ومكناسة وغمارة وكافة البربر بالمغرب الاقصى . فبايعوه أيضا ، ودخلوا فى طاعته فاستتب أمره وتمكن سلطانه وقويت شوكته .

ولحق به من اخوته سليمان بن عبد الله ونزل بأرض زناتة من تلمسان ونواحيها ، كذا عند ابن خلدون فى أخبار الادارسة ، والذى عنده فى أخبار بنى العباس وكذا عند أبى الفداء أن سليمان بن عبد الله بن حسن قتل بوقعة فخ وجمع رأسه مع رؤوس القتلى فالله أعلم .

غزو ادريس بن عبد الله بلاد المغرب الاقصى وفتحه اياها

ثم أن ادريس بن عبد الله رضى الله عنه اتخذ جيشا كثيفا من وجوه زناتة وأوربة وصنهاجة وهوارة وغيرهم ، وخرج غازيا بلاد تامسنا ، ثم زحف الى بلاد تادلا ففتح معاقلها وحصونها ، وكان أكثر أهل هذه البلاد لازالوا على دين اليهودية والنصرانية وانما الاسلام بها قليل ، فأسلم جميعهم على يده .

وقفل الى مدينة وليلى مؤيدا منصورا فدخلها أواخر ذى الحجة سنة اثنتين وسبعين ومائة ، فأقام بها شهر محرم فاتح سنة ثلاث وسبعين ريثما استراح الناس ، ثم خرج برسم غزو من كان بقى من قبائل البربر بالمغرب على دين المجوسية واليهودية والنصرانية وكان قد بقى منهم بقية متحصنون فى المعاقل والجبال والحصون المنيعة ، فلم يزل ادريس رحمه الله يجاهدهم فى حصونهم ويستنزلهم من معاقلهم حتى دخلوا فى الاسلام طوعا وكرها ومن أبى الاسلام منهم اباده قتلا وسبيا .

وكانت البلاد التى غزاها فى هذه المرة حصون فندلاوة وحصون مديونة وبهلولة وقلاع غياثة وبلاد فازاز ثم عاد الى مدينة وليلى فدخلها فى النصف من جمادى الآخرة من السنة المذكورة .



غزو ادريس بن عبد الله أرض المغرب الاوسط وفتح مدينة تلمسان

لما قفل ادريس رضى الله عنه من غزو بلاد المغرب الاقصى سنة ثلاث وسبعين ومائة أقام بوليلى بقية جمادى الآخرة ونصف رجب التالى لها ريثما استراح جيشه ثم خرج منتصف رجب المذكور برسم غزو مدينة تلمسان ومن بها من قبائل مغراوة وبنى يفرن فانتهى اليها ونزل خارجها فخرج اليه صاحبها محمد بن خزر من ولد صولات المغراوى مستأمنا ومبايعا له فأمنه ادريس وقبل بيعته .

ودخل مدينة تلمسان فأمن أهلها ثم أمن سائر زناتة وبنى مسجد تلمسان وأتقنه وأمر بعمل منبر نصبه فيه وكتب عليه : «بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أمر به الامام ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على رضى الله عنهم وذلك فى شهر صفر سنة اربع وسبعين ومائة» ، قال ابن خلدون : (واسم ادريس مخطوط فى صفحة المنبر لهذا العهد) اه ثم رجع ادريس رحمه الله الى مدينة وليلى فدخلها مؤيدا منصورا .

وفاة ادريس بن عبد الله والسبب فى ذلك

لما حصل لادريس رحمه الله ما حصل من التمكن والظهور اتصل خبر ذلك بالخليفة ببغداد وهو هرون الرشيد العباسى ، وبلغه أن ادريس قد استقام له أمر المغرب وأنه قد استفحل أمره وكثرت جنوده وقد فتح مدينة تلمسان وبنى مسجدها وأنه عازم على غزو افريقية فخاف الرشيد عاقبة ذلك وأنه ان لم يتدارك أمره الآن ربما عجز عنه فى المستقبل مع ما يعلم من فضل ادريس خصوصا ومحبة الناس فى آل البيت عموما . فقلق الرشيد من ذلك واستشار وزيره يحيى بن خالد البرمكى وقال : «ان الرجل قد فتح تلمسان وهى باب افريقية ومن ملك الباب يوشك أن يدخل الدار

وقد هممت أن أبعث اليه جيشا ثم فكرت فى بعد الشقة وعظم المشقة فرجعت عن ذلك» فقال يحيى : «الرأى يا أمير المؤمنين أن تبعث اليه برجل داهية يحتال عليه ويغتاله وتستريح منه » فأعجب الرشيد ذلك ؛ فوقع اختيارهما على رجل من موالى المهدى والد الرشيد ــ واسم الرجل سليمان بن جرير ــ ويعرف بالشماخ ــ فأحضره يحيى وأعلمه بما يريد منه ، ووعده على قتل ادريس الرفعة والمنزلة العالية عند الرشيد ، وزوده مالا وطرفا يستعين بها على أمره وأصحبه الرشيد كتابا منه الى واليه على افريقية ابراهيم بن الاغلب. كذا عند ابن خلدون وابن الخطيب وفيه أن ابن الاغلب لم يكن واليا على افريقية فى هذا التاريخ وانما وليها سنة أربع وثمانين ومائة حسبما سبق فوصل الشماخ الى والى افريقية بكتاب الرشيد فأجازه الى المغرب .

وقدم الشماخ على ادريس بن عبد الله مظهرا النزوع اليه فيمن نزع اليه من وحدان العرب متبرئا من الدعوة العباسية منتحلا للدعوة الطالبية فاختصه ادريس رحمه الله وحلا بعينيه وعظمت منزلته لديه .

وكان الشماخ ممتلئا من الادب والظرف والبلاغة عارفا بصناعة الجدل فكان اذا جلس الامام ادريس الى رؤساء البربر ووجوه القبائل تكلم الشماخ فذكر فضل أهل البيت وعظيم بركتهم على الامة ويقرر ذلك ويحتج لامامة ادريس وانه الامام الحق دون غيره فكان ذلك يعجب ادريس ويقع منه الموقع فاستولى الشماخ عليه حتى صار من ملازميه ولا يأكل الا معه .

وكان راشد كالئا لادريس ملازما له أيضا ، قلما ينفرد عنه لانه كان يخاف عليه من مثل ما وقع فيه لكثرة أعداء آل البيت يومئذ وكان الشماخ يترصد الغرة من راشد ويترقب الفرصة فى ادريس الى أن غاب راشد ذات يوم فى بعض حاجاته فدخل الشماخ على ادريس فجلس بين يديه على العادة وتحدثا مليا .

ولما لم ير الشماخ راشدا بالحضرة انتهز الفرصة فى ادريس فقيل انه كانت مع الشماخ قارورة من طيب مسموم فأخرجها وقال لادريس : « هذا طيب كنت استصحبته معى وهو من جيد الطيب فرأيت أن الامام أولى به منى

وذلك من بعض ما يجب له على » ثم وضع القارورة بين يديه . فشكره ادريس وتناول القارورة ففتحها واشتم ما فيها ، فصعد السم الى خياشيمه وانتهى الى دماغه فغشى عليه ، وقام الشماخ للحين كأنه يريد حاجة الانسان. فخرج وأتى منزله فركب فرسا له عتيقا كان قد أعده لذلك ، وذهب لوجهه يريدالمشرق وافتقد الناس الامام ادريس فاذا هو مغشى عليه لا يتكلم ولا يعلم أحد ما به وقيل أن الشماخ سمه فى سنون ـ والسنون بوزن صبور ما يستاك به ـ وكان ادريس يشتكى وجع الاسنان واللثة وقيل سمه فى الحوت الشابل وقيل فى عنب أهداه اليه فى غير ابانه والله أعلم .

ولما اتصل خبر ادريس بمولاه راشد أقبل مسرعا فدخل عليه وهو يحرك شفتيه لا يبين كلاما قد أشرف على الموت فجلس عند رأسه متحيرا لا يدرى ما دهاه واستمر ادريس على حالته تلك الى عشى النهار فتوفى فى مهل ربيع الآخر سنة سبع وسبعين ومائة وتفقد راشد الشماخ فلم يره فعلم أنه الذى اغتال ادريس .

ثم جاء الخبر بان الشماخ قد لقى على أميال من البلد فركب راشد فى جمع من البربر واتبعوه وتقطعت الخيل فى النواحى وطلبوه ليلتهم الى الصباح فلحقه راشد بوادى ملوية عابرا فشد عليه راشد بالسيف وضربه ضربات قطع فى بعضها يمناه وشجه فى رأسه شجاجا ونجا الشماخ بجريعاء الذقن وأعيى فرس راشد عن اللحاق به فرجع عنه ويقال ان الشماخ رىء بعد ذلك ببغداد وهو مقطوع اليد .

ولما رجع راشد الى منزله أخذ فى تجهيز الامام رضى الله عنه وصلى عليه ودفنه بصحن رابطة عند باب وليلى ليتبرك الناس بتربته رحمه الله ورضى عنه .

أمر البربر بعد وفاة ادريس بن عبد الله رحمه الله

قالوا ان الامام ادريس لما توفى لم يترك ولدا الا حملا من أمة له بربرية اسمها كنزة ، فلما فرغ راشد من جهازه ودفنه جمع رؤساء البربر ووجوه الناس فقال لهم : ان ادريس لم يترك ولدا الا حملا من أمته كنزة وهى الآن فى الشهر السابع من حملها ، فان رأيتم أن تصبروا حتى تضع هذه الجارية حملها فان كان ذكرا أحسنا تربيته حتى اذا بلغ مبلغ الرجال بايعناه تمسكا بدعوة آل البيت وتبركا بذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وان كان جارية نظرتم لانفسكم فقالوا له : أيها الشيخ المبارك ما لنا رأى الا ما رأيت ، فانك عندنا عوض من ادريس تقوم بأمورنا كما كان ادريس يقوم بها وتصلى بنا وتقضى بيننا بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ونصبر حتى تضع الجارية حملها ويكون ما أشرت به ، على أنها ان وضعت جارية كنت أحق الناس بهذا الامر لفضلك ودينك وعلمك فشكرهم راشد على ذلك ودعا لهم وانصرفوا فقام راشد بأمر البربر تلك المدة .

ولما تمت للجارية أشهر حملها وضعت غلاما أشبه الناس بأبيه ادريس فأخرجه راشد الى رؤساء البربر حتى نظروا اليه فقالوا : هذا ادريس بعينيه كأنه لم يمت فسماه راشد ادريس ونشأ الصبى نشأة حسنة الى أن كان من أمره ما نذكره .

الخبر عن دولة ادريس بن ادريس رحمه الله

كانت ولادة ادريس بن ادريس بن عبد الله يوم الاثنين ثالث رجب سنة سبع وسبعين ومائة فكفله راشد مولى أبيه ، وقام بأمره أحسن قيام فأقرأه القرآن حتى حفظه وهو ابن ثمان سنين ثم علمه الحديث والسنة والفقه فى الدين والعربية ورواه الشعر وأمثال العرب وحكمها ، وأطلعه على سير الملوك وعرفه أيام الناس ، ودربه على ركوب الخيل والرمى بالسهام وغير ذلك من مكايد الحرب ، فلم يمض له من العمر مقدار احدى عشرة سنة الا وقد اضطلع بما حمل وترشح للامر ، واستحق لان يبايع ، فبايعه البربر وآتوه صفقتهم عن طاعة منهم واخلاص .

قال ابن خلدون : بايع البربر ادريس الاصغر حملا ثم رضيعا ثم فصيلا الى أن شب فبايعوه بجامع مدينة وليلى سنة ثمان وثمانين ومائة وهو ابن احدى عشرة سنة .

وكان ابراهيم بن الاغلب صاحب افريقية قد دس الى بعض البربر الاموال واستمالهم حتى قتلوا راشدا مولاه سنة ست وثمانين ومائة ، وحملوا اليه رأسه وقام بكفالة ادريس من بعده أبو خالد يزيد بن الياس العبدى ، ولم يزل على ذلك الى أن بايعوا لادريس فقاموا بأمره وجددوا لانفسهم رسوم الملك بتجديد طاعته ، وفى القرطاس أن مقتل راشد كان فى السنة التى بويع فيها ادريس بن ادريس ، قال : «وكانت بيعة ادريس يوم الجمعة غرة ربيع الاول سنة ثمان وثمانين ومائة بعد مقتل راشد بعشرين يوما وادريس يومئذ ابن احدى عشرة سنة وخمسة أشهر ، قاله عبد الملك الوراق فى تاريخه ، وفيه بعض مخالفة لتاريخ الولادة المتقدم .

وفى قتل راشد يقول ابراهيم بن الاغلب فى بعض ما كتب به الى الرشيد يعرفه بنصحه وكمال خدمته .

الم ترنى بالكيد أرديت راشدا   وانى بأخرى لابن ادريس راصد

تناوله عزمي – على بعد داره – بمحتومة ، يحظى بها من يكايد
فقاه أخو عك بمقتل راشد وقد كنت فيه شاهدا وهو راقد

يريد بأخي عك محمد بن مقاتل العكي والي افريقية فانه لما حاول ابن الاغلب قتل راشد وتم له ذلك كتب العكي الى الرشيد يعلمه أنه هوالذي فعل ذلك فكتب صاحب البريد الى الرشيد بحقيقة الامر ، وان ابن الاغلب هو الفاعل لذلك والمتولى له فثبت عند الرشيد كذب العكي وصدق ابن الاغلب فعزل الرشيد العكي عن افريقيا وولى ابن الاغلب عليها وانما كان قبل ذلك عاملا للعكي على بعض كورها هكذا حكى صاحب القرطاس هذا الخبر وفيه أن عزل العكي عن افريقية وتولية ابن الاغلب عليها كان في سنة أربع وثمانين قبل وفاة راشد بسنتين أو بأربع سنين على الخلاف المتقدم .

وقال البكري والبرنسي : ان راشدا لم يمت حتى أخذ البيعة لادريس بالمغرب وان ادريس لما تم له من العمر احدى عشرة سنة ظهر من وفور عقله ونباهته وفصاحته ما أذهل عقول الخاصة والعامة فأخذ له راشد البيعة على البربر يوم الجمعة سابع ربيع الاول من السنة المذكورة فصعد ادريس المنبر وخطب الناس فقال : « الحمد لله أحمده وأستغفره وأستعين به وأتوكل عليه وأعوذ به من شر نفسي ومن شر كل ذي شر ، وأشهد ان لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله المبعوث الى الثقلين بشيرا ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا صلى الله عليه وعلى آل بيته الطاهرين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، أيها الناس انا قد ولينا هذا الامر الذي يضاعف فيه للمحسن الاجر ، وعلى المسيء الوزر ، ونحن والحمد لله على قصد ، فلا تمدوا الاعناق الى غيرنا ، فان الذي تطلبونه من اقامة الحق انما تجدونه عندنا » ثم دعا الناس الى بيعته ، وحضهم على التمسك بطاعته ، فعجب الناس من فصاحته وقوة جأشه على صغر سنه ، ثم نزل فتسارع الناس الى بيعته وازدحموا عليه يقبلون يده فبايعه كافة قبائل المغرب من زناتة وأوربة وصنهاجة وغمارة وسائر قبائل البربر فتمت له البيعة وبعد بيعته بقليل توفي مولاه راشد والله أعلم .

وفود العرب على ادريس بن ادريس رحمه الله

لما استقام أمر المغرب لادريس بن ادريس وتوطد ملكه وعظم سلطانه وكثرت جيوشه وأتباعه ، وفدت عليه الوفود من البلدان ، وقصد الناس حضرته من كل صقع ومكان ، فاستمر بقية سنة ثمان وثمانين يصل الوفود ويبذل الاموال ، ويستميل الرؤساء والاقيال .

ولما دخلت سنة تسع وثمانين ومائة وفدت عليه وفود العرب من افريقية والاندلس نازعين اليه وملتفين عليه ، فاجتمع لديه منهم نحو خمسمائة فارس من قيس والازد ومذحج ويحصب والصدف وغيرهم ، فسر ادريس بوفادتهم وأجزل صلتهم وأدنى منزلتهم وجعلهم بطانة دون البربر ، فاعتز بهم وأنس بقربهم ، فانه كان غريبا بين البربر فاستوزر منهم (١) عمير بن مصعب الازدى المعروف بالملجوم ، من ضربة ضربها فى بعض حربهم وسمته على الخرطوم .

وكان عمير من فرسان العرب وسادتها ولأبيه مصعب مآثر بافريقية والاندلس ، ومواقف فى غزو الفرنج . واستقضى منهم عامر بن محمد بن سعيد القيسى ، وكان من أهل الورع والفقه والدين ، سمع من مالك بن أنس وسفيان الثورى وروى عنهما كثيرا وكان قد خرج الى الاندلس برسم الجهاد ، ثم أجاز الى العدوة فوفد بها على ادريس فيمن وفد عليه من العرب فاستقضاه ، واستكتب منهم أبا الحسن عبد الله بن مالك الخزرجى

ولم تزل الوفود تقدم عليه من العرب والبربر حتى كثر الناس لديه ، وضاقت بهم مدينة وليلى .

وانتهى الى ابن الاغلب ما عليه ادريس من الاستفحال ، فأرهف عزمه

---

(١) هو أول تنظيم عرف للمخزن (الحكومة المغربية) والمخزنية فى التاريخ بالمغرب الاقصى

للتضريب بين البربر واستفسادهم على ادريس ، فكان منهم بهلول بن عبد الواحد المضغرى من خاصة ادريس ومن أركان دولته ، فكاتبه ابن الاغلب واستهواه بالمال حتى بايع الرشيد وانحرف عن ادريس ، واعتزله فى قومه فصالحه ادريس ، وكتب اليه يستعطفه بقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فكف عنه ، وكان فيما كتب به ادريس الى بهلول المذكور قوله :

أبهلول قد حملت نفسك خطة ... تبدلت منها ضلة برشاد
أضلك ابراهيم مع بعد داره ... فأصبحت منقادا ، بغير قياد
كأنك لم تسمع بمكر ابن أغلب ... وقدما رمى بالكيد كل بلاد
ومن دون ما منتك نفسك خاليا ... ومناك ابراهيم ، شوك قتاد

ثم أحس ادريس من اسحق بن محمد الاوربى بانحراف عنه ، وموالاة لابن الاغلب فقتله سنة ثنتين وتسعين ومائة وصفا له المغرب ، وتمكن سلطانه به . والله غالب على أمره .

بناء مدينة فاس

لما كثرت الوفود من العرب وغيرهم على ادريس رحمه الله وضاقت بهم مدينة وليلى أراد أن يبنى لنفسه مدينة يسكنها هو وخاصته ووجوه دولته فركب يوما فى جماعة من حاشيته وخرج يتخير البقاع فوصل الى جبل زالغ فأعجبه ارتفاعه وطيب هوائه وتربته ، فاختط بسنده مدينة مما يلى الجوف وشرع فى بنائها فبنى بعضا من الدور ونحو الثلث من السور فأتى السيل من أعلى الجبل فى بعض الليالى فهدم السور والدور ، وحمل ما حول ذلك من الخيام والزروع وألقاها فى نهر سبو فكف ادريس عن البناء ، واستمر الحال على ذلك مدة يسيرة ؛ ثم خرج ثانية يتصيد ويرتاد لنفسه موضعا يبنى فيه ما قد عزم عليه ، فانتهى الى نهر سبو حيث

هى اليوم حمة خولان فأعجبه الموضع لقربه من الماء ولاجل الحمة التى هناك (والحمة كما فى القاموس كل عين فيها ماء حار ينبع منها ويستشفى به) فعزم ادريس على أن يبنى هناك مدينة وشرع فى حفر الاساس وعمل الجيار وقطع الخشب وابتدأ بالبناء ثم فكر فى نهر سبو وما يأتى به من المدود والسيول زمان الشتاء وما يحصل بذلك من الضرر العظيم للناس فكف عن البناء ورجع الى وليلى .

ثم بعث وزيره عمير بن مصعب الازدى يرتاد له موضعا يبنى فيه المدينة التى عزم عليها ، فسار عمير فى جماعة يقص الجهات ويتخير البقاع والترب والمياه ؛ حتى انتهى الى فحص سايس ، فأعجبه المحل فنزل هناك على عين ماء تطرد فى مرج أخضر ، فتوضأ وصلى الظهر هو وجماعة القوم الذين معه ، ثم دعا الله تعالى أن ييسر عليه مطلبه ، ثم ركب وحده وأمر الجماعة أن ينتظروه حتى يعود اليهم ، فنسبت العين اليه من يومئذ ودعيت عين عمير الى الآن ـ وعمير هذا هو جد بنى الملجوم من بيوتات فاس وكبرائهم ـ فأوغل عمير فى فحص سايس حتى انتهى الى العيون التى ينبع منها وادى فاس ، فرأى بها من عناصر الماء ما ينيف على الستين عنصرا ، ورأى مياهها تطرد فى فسيح من الارض وحول العيون شعراء من شجر الطرفاء والطخش والعرعار والكلخ وغير ذلك ، فشرب من الماء فاستطابه ، ونظر الى ما حوله من المزارع التى ليست على نهر سبو فأعجبته ؛ فانحدر مع مسيل الوادى حتى انتهى الى موضع مدينة فاس اليوم ، فنظر فاذا ما بين الجبلين غيضة ملتفة الاشجار ، مطردة العيون والانهار ، وفى جانب منها خيام من شعر يسكنها قوم من زواغة يعرفون ببنى الخير ، وقوم من زناتة يعرفون ببنى يرغش وكان بنو يرغش على دين المجوسية ، وكان بيت نارهم بالموضع المعروف بشيبوبة ، وكان البعض منهم على دين اليهودية ، والبعض على دين النصرانية .

وكان بنو الخير ينزلون بعدوة القرويين وبنو يرغش ينزلون بعدوة الاندلس ، وكانوا قلما يفترون عن القتال لاختلاف أهوائهم وتباين أديانهم

فرجع عمير الى ادريس وأعلمه بما رأى من الغيضة وساكنيها وما وقع عليه اختياره فيها فجاء ادريس لينظر الى البقعة فألفى بنى الخير وبنى يرغش يقتتلون ؛ فأصلح بينهم وأسلموا على يده .

واشترى منهم الغيضة بستة آلاف درهم فرضوا بذلك ودفع لهم الثمن وأشهد عليهم بذلك على يد كاتبه أبى الحسن عبد الله بن مالك الخزرجى .

ثم ضرب أبنيته بكرواوة وشرع فى بناء المدينة فاختط عدوة الاندلس غرة ربيع الاول سنة اثنتين وتسعين ومائة .

وفى سنة ثلاث بعدها اختط عدوة القرويين وبنى مساكنه بها وانتقل اليها . وقد كان أولا أدار السور على عدوة الاندلس وبنى بها الجامع المعروف بجامع الاشياخ وأقام فيه الخطبة ثم انتقل ثانيا الى عدوة القرويين كما قلنا ونزل بالموضع المعروف بالقرمدة وضرب فيه قيطونه وأخذ فى بناء جامع الشرفاء وأقام فيه الخطبة أيضا ثم شرع فى بناء داره المعروفة الآن بدار القيطون التى يسكنها الشرفاء الجوطيون من ولده ، ثم بنى القيسارية الى جانب المسجد الجامع ، وأدار الاسواق حوله وأمر الناس بالبناء ، وقال لهم : « من بنى موضعا أو اغترسه قبل تمام السور فهو له » . فبنى الناس من ذلك شيئا كثيرا واغترسوا ، ووفد عليه جماعة من الفرس من أرض العراق فأنزلهم بغيضة هناك كانت على العين المعروفة بعين علون .

وكان علون عبدا أسود يأوى الى تلك الغيضة ويقطع الطريق بها على المارة فتحامى الناس غيضته وتناذروها فأعلم ادريس رحمه الله بشأنه فبعث فى طلبه خيلا قبضوا عليه ، وجاءوا به اليه فأمر بقتله وصلبه على شجرة كانت على العين فأضيفت اليه العين من يومئذ وقيل عين علون .

ثم أدار ادريس السور على عدوة القرويين وكانت من لدن باب السلسلة الى غدير الجوزاء .

قال عبد الملك الوراق : كانت مدينة فاس فى القديم بلدين لكل بلد منهما سور يحيط به ، وأبواب تختص به ، والنهر فاصل بينهما ؛ وسميت احدى العدوتين عدوة القرويين لنزول العرب الوافدين من القيروان بها ،

وكانوا ثلاثمائة أهل بيت وسميت الاخرى عدوة الاندلس لنزول العرب الوافدين من الاندلس بها ، وكانوا جما غفيرا يقال أربعة آلاف أهل بيت .

وكان الحكم بن هشام الاموى صاحب الاندلس صدرت منه لاول امارته هنات أوجبت قيام جماعة من أهل الورع عليه وكان فيهم يحيى بن يحيى الليثى صاحب مالك وراوى الموطأ عنه وطالوت الفقيه وغيرهما فخلعوا الحكم وبايعوا بعض قرابته وكانوا بالربض الغربى من قرطبة فقاتلهم الحكم وكثروه وكادوا يأتون عليه ، ثم أظفره الله بهم ووضع فيهم السيف ثلاثة أيام وهدم دورهم ومساجدهم وفر الباقون منهم فلحقوا بفاس المغرب الاقصى وبالاسكندرية من أرض مصر ، فأما اللاحقون بفاس فأنزلهم ادريس رحمه الله بعدوة الاندلس فأضيفت اليهم ، وأما اللاحقون بالاسكندرية فثاروا بها بعد حين فزحف اليهم عبد الله بن طاهر الخزاعى صاحب مصر من قبل المأمون بن الرشيد فقاتلهم ونفاهم الى جزيرة اقريطش فلم يزالوا بها الى أن ملكها الفرنج (١) من أيديهم بعد مدة .

وذكر ابن غالب فى تاريخه ان الامام ادريس لما فرغ من بناء مدينة فاس وحضرت الجمعة الاولى صعد المنبر وخطب الناس ثم رفع يديه فى آخر الخطبة فقال : « اللهم انك تعلم أنى ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ولا رياء ولا سمعة ولا مكابرة ، وانما أردت أن تعبد بها ويتلى بها كتابك وتقام بها حدودك وشرائع دينك وسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ما بقيت الدنيا . اللهم وفق سكانها وقطانها للخير وأعنهم عليه واكفهم مؤنة أعدائهم وأدر عليهم الارزاق واغمد عنهم سيف الفتنة والشقاق انك على كل شىء قدير » .

---

(١) المقصود بالفرنج هنا فرنج القسطنطينية وهم البزنطيون وكان امتلاكهم لها من يد المسلمين سنة ٣٥٠ هـ موافق ٩٦١ مسيحية على يد «نيسيفور فوكاص» امبراطور القسطنطينية (انظر ابن خلدون صفحة ٢١١ من الجزء الرابع) .

فأمن الناس على دعائه فكثرت الخيرات بالمدينة وظهرت بها البركات .

ومن محاسن فاس أن نهرها يشقها بنصفين وتتشعب جداوله فى دورها وحماماتها وشوارعها وأسواقها وتطحن به أرحاؤها ثم يخرج منها ، وقد حمل أقذارها وأزبالها ، الى غير ذلك من عيون الماء التى تنبع بداخلها وتنفجر من بيوتها تجاوز الحصر كثرة وقد مدحها الفقيه الزاهد أبو الفضل ابن النحوى بقوله :

يافاس منك جميع الحسن مسترق	وساكنوك ليهنهم بما رزقوا
هذا نسيمك ، أم روح لراحتنا	وماؤك السلسل الصافى، أم الورق؟
أرض تخللها الانهار داخلها	حتى المجالس والاسواق والطرق

وقال الفقيه الكاتب أبو عبد الله المغيلى يتشوق الى فاس (وكان يلى خطة القضاء بمدينة آزمور) :

يافاس حيا الله أرضك من ثرى	وسقاك من صوب الغمام المسبل
ياجنة الدنيا التى أربت على	حمص بمنظرها البهى الاجمل
غرف على غرف ويجرى تحتها	ماء ألذ من الرحيق السلسل
وبساتن من سندس قد زخرفت	بجداول كالايم أو كالمقصل (١)
وبجامع القروين شرف ذكره	أنس بذكراه يهيج تململ
وبصحنه زمن المصيف محاسن	فمع العشى الغرب منه استقبل
واجلس ازاء الخصة الحسنا به	واكرع بهاعنى ـ فديتك ـ وانهل

---

(١) المقصل السيف الصقيل .

غزو ادريس بن ادريس المغربين واستيلاؤه عليهما

لما فرغ ادريس من بناء مدينة فاس وانتقل اليها بمحلته واستوطنها حاشيته وأرباب دولته واتخذها دار مكله ، أقام بها الى سنة سبع وتسعين ومائة فخرج غازيا بلاد المصامدة فانتهى اليها واستولى عليها، ودخل مدينة نفيس(١) ومدينة اغمات(٢)وفتح سائر بلاد المصامدة . وعاد الى فاس فأقام بها الى سنة تسع وتسعين ومائة ، فخرج فى المحرم برسم غزو قبائل نفزة من أهل المغرب الاوسط ومن بقى هناك على دين الخارجية من البربر ، فسار حتى غلب عليهم ودخل مدينة تلمسان . فنظر فى أحوالها وأصلح سورها وجامعها وضع فيها منبرا . قال أبو مروان عبد الملك الوراق : «دخلت مدينة تلمسان سنة خمس وخمسين وخمسمائة فرأيت فى رأس منبرها لوحا من بقية منبر قديم قد سمر عليه هنالك مكتوبا فيه : «هذا ما أمر به الامام ادريس بن ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على رضى الله عنهم ، فى شهر المحرم سنة تسع وتسعين ومائة » اه . وقد تقدم لنا ما يخالف هذا والله أعلم .

وأقام ادريس بمدينة تلمسان وأحوازها يدبر أمرها ويصلح أحوالها ثلاث سنين ثم رجع الى مدينة فاس

قال داود (٣) بن القاسم الاوربى : شهدت مع ادريس بن ادريس بعض

---

(١) قال البكرى : نفيس مدينة حصينة أولية افتتحها عقبة ابن نافع وذكر أنها كانت عامرة فى زمانه ، أما اليوم فلا يعرف لها أثر .

(٢) أغمات وصفها البكرى بأنها كانت مدينة كبيرة ، أما اليوم فهى قرية صغيرة خاملة بها بقية عمارة .

(٣) هو داود بن القاسم بن اسحق بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب الجعفرى يكنى أباهاشم المتوفى سنة احدى وستين ومائتين أنظر ترجمته فى صحيفة ٦٥ من كتاب طلعة المشترى فى النسب الجعفرى للمؤلف فقد بسطها هناك . وأما قوله الاوربى هنا فصوابه الجعفرى وانما تصحفت على صاحب تاريخ القرطاس الذى ساق المؤلف نقله هنا .

غزواته مع الخوارج الصفرية من البربر ، فلقيناهم وهم ثلاثـة أضعافنا فلما تقارب الجمعان نزل ادريس فتوضأ وصلى ركعتين ودعا الله تعالى ثـم ركب فرسه وتقدم للقتال ، قال : فقاتلناهم قتالا شديدا ، فكان ادريس يضرب فى هذا الجانب مرة ! ويكر فى هذا الجانب الآخر مرة ! ولم يزل كذلك حتى ارتفع النهار ، ثم رجع الى رايته فوقف بازائها والناس يقاتلون بـين يديه ، فطفقت أتأمله وأديم النظر اليه وهو تحت ظـلال البنود يحرض الناس وبشجعهم . فأعجبنى ما رأيت من ثباته وقوة جأشه ! فالتفت نحوى وقال : «يادود ما لى أراك تديم النظر الى ؟» قلت : أيهـا الامام انه قد أعجبنى منك خصال لم أرها اليوم فى غيرك . قال : «ومـا هى ؟» قلت : أولاها ما أراه من ثبات قلبك وطلاقة وجهك عند لقاء العدو ! قال : «ذاك ببركة جدنا صلى الله عليه وسلم ودعائه لنا وصلاته علينا ، ووراثة من أبينا على بن أبى طالب» قلت : وأراك تبصق بصاقا مجتمعا ! وأنا أطلب قليل الريق فى فمى فلا أجده قال : «ياداود ذاك لقوة جأشى واجتماع لبى عند الحرب ، وعـدم ريقك لطيش عقلك وافتراق لبك» قلت : وأنا أيضا أتعجب مـن كثرة تقلبك فى سرجك ! وقلة قرارك عليه ! قال : «ذاك منى زمع الى القتال وصرامة فيه، فلا تظنه رعبا» . وأنشأ يقول :(١)

أليس أبـونا هاشم شد أزره ... وأوصى بنيـه بالطعان ، وبالضرب
فلسنا نمـل الحرب حتـى تملنا ... ولا نشتكى ممـا يؤول من النصب

---

(١) يعنى متمثلا وأصل البيتين لابى طالب (انظر كتاب الاكتفاء للكلاعى فى خبر نقض صحيفة قريش)

وفاة ادريس بن ادريس رحمه الله

قال ابن خلدون : انتظمت لادريس بن ادريس كلمة البربر وزناتة ومحى دعوة الخوارج منهم واقتطع المغربين عن دعوة العباسيين من لدن السوس الاقصى الى وادى شلف ، ودافع ابراهيم بن الاغلب عن حماه بعد ما ضايقه بالمكايد واستفساد الاولياء حتى قتلوا راشد مولاه . وارتاب ادريس بالبربر فصالح ابن الاغلب وسكن من غربه وضرب السكة باسمه .

وعجز الاغالبة بعد ذلك عن مدافعة هؤلاء الادارسة ودافعوا خلفاء بنى العباس بالمعاذير الباطلة . وصفا ملك المغرب لادريس واستمر بدار ملكه من فاس ساكنا وادعا مقتعدا أريكته ، مجتنيا ثمرته الى أن توفاه الله ثانى جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة ومائتين ، وعمره نحو ست وثلاثين سنة ، ودفن بمسجده بازاء الحائط الشرقى منه . وقال البرنسى انه توفى بمدينة وليلى (١) ودفن الى جنب أبيه .

وكان سبب وفاته انه أكل عنبا فشرق بحبة منه فمات لحينه ، وخلف من الولد اثنى عشر ذكرا أولهم محمد ، وعبد الله ، وعيسى ، وادريس وأحمد . وجعفر . ويحيى . والقاسم . وعمر . وعلى . وداود . وحمزة كذا فى القرطاس . وزاد ابن حزم ، الحسن ، والحسين ، وولى الامر منهم بعده محمد وهو أكبرهم .

---

(١) كذا عند البكرى فى مسالكه من انه توفى بوليلى واقتصر على هذا القول ، وكذا عند الرشاطى والتنيسى ونقل هذا الخلاف عن البرنسى صاحب الانيس والجذوة . والله أعلم بالحقيقة .

الخبر عن دولة محمد بن ادريس رحمه الله

لما توفى ادريس بن ادريس رحمه الله . قام بالامر بعده ابنه محمد بعهد منه اليه ، ولما ولى قسم بلاد المغرب بين اخوته ـ وذلك باشارة جدته كنزة ـ أم ادريس فاختص القاسم منها بطنجة وسبتة وقصر مصمودة وقلعة حجر النسر وتطوان وما انضم الى ذلك من القبائل والبلاد . واختص عمر منها بتيكساس وترغة وما بينهما من قبائل صنهاجة وغمارة . واختص داود ببلاد هوارة وتسول وتازا وما بين ذلك من قبائل مكناسة وغياثة . واختص يحيى بآصيلا والعرايش والبصرة (١) وبلاد ورغة وما والى ذلك . واختص عيسى بسلا وشالة وآزمور وتامسنا وما انضم الى ذلك من القبائل . واختص حمزة بمدينة وليلى وأعمالها . واختص أحمد بمدينة مكناسة ومدينة تادلا وما بينهما من بلاد فازاز . واختص عبد الله بأغمات وبلد نفيس وجبل المصامدة وبلاد لمطة والسوس الاقصى . وأبقى الآخرين فى كفالته وكفالة جدتهم كنزة لصغرهم .

وبقيت تلمسان لولد عمه سليمان بن عبد الله ، فان ادريس بن ادريس لما غزا تلمسان وأقام بها ثلاث سنين كما سبق ودوخ بلاد زناتة واستوسقت له طاعتهم . عقد عليها لبنى عمه سليمان بن عبد الله . فلما توفى ادريس واقتسم بنوه أعمال المغرب كانت تلمسان فى سهم عيسى بن ادريس بن

---

(١) البصرة كانت مدينة كبيرة بالمغرب تأسست مع أصيلا أوائل القرن الثالث الهجرى وعمرت وكان لها شأن ثم خربت قبل أواخر القرن الرابع . وموضعها بقبيلة الغرب بنواحى حد كورت فى حدود المنطقة الاسبانية ولم يبق لها أثر اليوم. وحد كورت كانت أيضا مدينة عظيمة فى ذلك التاريخ ثم خربت واندثرت . وقد ذكر هذه المدن كلها ياقوت فى معجمه ، والبكرى فى مسالكه ، وابن حوقل وابن عذارى وغيرهم .

محمد بن سليمان بن عبد الله ، واستمرت بأيديهم الى أن تلاشى أمرهم بدخول العبيديين عليهم قاله ابن خلدون .

وأقام محمد بن ادريس بدار ملكه من فاس مقتعدا على أريكته، واخوته ولاة على بلاد المغرب قد ضبطوا أعمالها وسدوا ثغورها وأمنوا سبلها وحسنت سيرتهم فى ذلك الى ان كان ما نذكره .

حدوث الفتنة بين بنى ادريس

ثم خرج على محمد بن ادريس أخوه عيسى بن ادريس بمدينة آزمور ونبذ طاعته وطلب الامر لنفسه ، فكتب محمد الى أخيه القاسم صاحب طنجة يأمره بحرب عيسى فامتنع من ذلك ، فكتب محمد الى أخيه عمر صاحب تيكساس بمثل ما كتب به الى القاسم فامتثل أمره وزحف الى عيسى فى قبائل البربر وأمده محمد بألف فارس من زناتة فأوقع عمر بعيسى وهزمه وطرده عن عمله ، وكتب الى الامير محمد بالفتح ، فشكره على ذلك، وولاه على ما فتحه من عمل عيسى وأمره مع ذلك بالمسير الى قتال القاسم الذى عصى أمره أولا ، فزحف عمر الى القاسم ونزل عليه بظاهر طنجة فخرج اليه القاسم ودارت بينهما حرب شديدة هزم فيها القاسم واستولى عمر على ما بيده من البلاد ، فصار الريف البحرى كله فى عمل عمر من تيكيساس وبلاد غمارة الى سبتة ثم الى طنجة وهذا ساحل البحر الرومى ، ثم ينعطف الى آصيلا والعرايش ثم الى سلا ثم آزمور وبلاد تامسنا وهذا ساحل البحر المحيط . وتزهد القاسم بعد هذه الحرب فبنى مسجدا بساحل البحر قرب آصيلا بموضع يعرف بتاهدارت على ضفة النهر هناك ، وأعرض عن الدنيا وأقام يعبد الله الى أن مات رحمه الله .

واتسعت ولاية عمر بن ادريس وخلصت طويته لاخيه محمد الامير الى أن توفى عمر بموضع يعرف بفج الفرس من بلاد صنهاجة فى دولة أخيه

محمد سنة عشرين ومائتين ، فحمل الى فاس وصلى عليه الامير محمد ودفن مع أبيه (وعمر هذا هو جد الاشراف الحموديين المالكين للاندلس بعد بني أمية) .

وعقد الامير محمد على عمله لولده على بن عمر الى أن كان من أمره ما نذكره . وأما عيسى فيقال انه توفى بآيت عتاب وله بها ذرية والله أعلم.

وفاة محمد بن ادريس رحمه الله

وأقام الامير محمد بن ادريس بعد وفاة أخيه عمر سبعة أشهر وتوفى بمدينة فاس في ربيع الثاني سنة احدى وعشرين ومائتين ودفن بشرقي جامعها مع أبيه وأخيه بعد أن عهد بالامر لابنه على بن محمد المعروف بحيدرة على ما سياتى .

الخبر عن دولة على بن محمد بن ادريس

لما توفى محمد بن ادريس بايع الناس لابنه على بن محمد بعهد منه اليه ، ويلقب على هذا بحيدرة على لقب على بن أبي طالب رضى الله عنه وهو جد الاشراف العلميين ـ أهل جبل العلم ـ ومنهم المشيشيون أولاد مولانا عبد السلام بن مشيش رضى الله عنه ، والوزانيون أولاد مولانا عبد الله الشريف ، وينتهى نسب هؤلاء الى المولى يملح بن مشيش أخي المولى عبد السلام بن مشيش .

وكان سن على حيدرة يوم بويع تسع سنين وأربعة أشهر فقام بأمره الاولياء والحاشية من العرب والبربر ، وأحسنوا كفالته وطاعته ، وكانت أيامه خير أيام .

وقال ابن أبى زرع : ظهر لعلى هذا من الذكاء والفضل ما يقتضيه شرفه ، وسار بسيرة أبيه وجده فى العدل ، فكان الناس فى أيامه فى أمن ودعة ، الى أن توفى فى شهر رجب سنة أربع وثلاثين ومائتين وعهد بالامر لاخيه يحيى بن محمد على ما سيأتى .

الخبر عن دولة يحيى بن محمد بن ادريس

قال ابن خلدون : «قام يحيى بن محمد بن ادريس بالامر وامتد سلطانه وعظمت دولته وحسنت آثار أيامه واستبحر عمران فاس وبنيت بها الحمامات والفنادق للتجار وبنيت خارجها الارباض ، ورحل اليها الناس من الثغور القاصية» . وقال ابن أبى زرع : «قصد اليها الناس من الاندلس وافريقية وجميع بلاد المغرب » .

بناء مسجد القرويين بفاس

قال ابن أبى زرع : كان موضع مسجد القرويين أرضا بيضاء لرجل من هوارة كان والده قد حازها أيام بناء فاس ، ولما قدم وفد القيروان على ادريس الاصغر ـ حسبما تقدم ـ كان فيهم امرأة اسمها فاطمة بنت محمد الفهرى ـ وتكنى أم البنين ـ فنزلت فى أهل بيتها بالقرب من موضع المسجد المذكور ، ثم مات زوجها واخوتها فورثت منهم مالا جسيما وكان من حلال ، فأرادت أن تنفقه فى وجوه الخير وكانت لها نية صالحة فعزمت على بناء مسجد تجد ثوابه عند الله . فاشترت البقعة من ربها وشرعت فى حفر أساس المسجد وبناء جدرانه ، وذلك يوم السبت فاتح رمضان المعظم سنة خمس

وأربعين ومائتين فبنته بالطابية والكدان .

وكانت الطريقة التى سلكتها فى بنائه أنها التزمت أن تأخذ التراب وغيره من مادة البناء من نفس البقعة دون غيرها مما هو خارج عن مساحتها، فحفرت فى أعماقها كهوفا وجعلت تستخرج منها التراب الجيد والحجر الكدان وتبنى به ، وأنبطت بها بئرا يستقى منها الماء للبناء والشرب وغير ذلك وكان ذلك كله تحريا منها أن لا تدخل فى بناء المسجد شبهة فعادت بركة نيتها وورعها على المسجد المذكور حتى كان منه ما ترى .

قالوا ولم تزل فاطمة المذكورة صائمة من يوم شرع فى بنائه الى أن تم وصلت فيه شكرا لله تعالى .

وكانت مساحة المسجد يوم بنى أربع بلاطات وصحنا صغيرا ، وجعلت محرابه فى موضع الثريا الكبرى ، وجعلت طوله من الغرب الى الشرق مائة وخمسين (١) شبرا ، وبنت به صومعة غير مرتفعة بموضع القبة التى على رأس العنزة اليوم .

واستمر الحال على ذلك الى أن انقرضت دولة الادارسة ، وجاءت دولة زناتة من بعدها واداروا السور على العدوتين معا : القرويين والاندلس وزادوا فى مسجديهما زيادة كثيرة ، فنقلوا الخطبة من مسجد الشرفاء الى مسجد القرويين ، ومن مسجد الاشياخ الى مسجد الاندلس ، وذلك صدر المائة الرابعة .

ثم لما استولى عبد الرحمن الناصر صاحب الاندلس على فاس وبلاد العدوة استعمل على فاس عاملا له اسمه احمد بن أبى بكر الزناتى ثم اليفرنى فاستأذن الناصر فى اصلاح مسجد القرويين والزيادة فيه فاذن له ، وبعث اليه بمال من خمس الغنائم ، فزاد فيه زيادة بينة ، وأزال الصومعة القديمة عن موضعها وبنى الصومعة الموجودة الآن ، وكتب على بابها فى مربعة بالجص واللازورد : (هذا ما أمر به أحمد بن ابى بكر الزناتى هداه الله

---

(١) وذلك نحو خمسة وثلاثين مترا .

ووفقه ، ابتغاء ثواب الله وجزيل احسانه)

وابتدأ العمل فى هذه الصومعة يوم الاثنين غرة رجب سنة أربع واربعين وثلاثمائة وفرغ من بنائها فى شهر ربيع الآخر سنة خمس وأربعين وثلاثمائة .

وركب فى أعلى المنارة سيف الامام ادريس بن ادريس تبركا به ، وذلك أن بعض حفدة ادريس رحمه الله تنازعوا فى السيف المذكور ، وأراد كل أن يحوزه لنفسه ، فقال لهم الامير أحمد بن أبى بكر : « هل لكم فى أن تبيعونى هذا السيف ؟ » قالوا : « وما تصنع به ؟ » قال : « أجعله فى أعلى المنارة » فقالوا : « أما اذا أردت هذا فنحن نهبه لك مجانا » فوهبوه له فركبه فى أعلى المنارة .

وكانت مبنية من الحجر المنجور وفيها ثقب يعشش فيها الطير من الحمام والزرزور وغيرهما ، ويتأذى المسجد والناس بها ، واستمر الحال على ذلك الى أن كانت سنة ثمان وثمانين وستمائة ، أيام السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المرينى ، فاستأذن القاضى أبو عبد الله ابن أبى الصبر السلطان يوسف المذكور فى تلبيس المنارة وتبييضها فأذن له فلبسها وبيضها ودلكها حتى صارت كالمرآة الصقيلة .

وقال ابن خلدون : « ثم أوسع فى خطة المسجد المذكور المنصور بن أبى عامر صاحب الاندلس ، وأعد له السقاية والسلسلة بباب الحفاة ، ثم أوسع فى خطته على بن يوسف اللمتونى ، ثم ملوك الموحدين وبنى مرين ، واستمرت العمارة به وانصرفت هممهم الى تشييده والمنافسة فى الاحتفال به ، فبلغ الاحتفال فيه ما شاء حسبما هو مذكور فى تواريخ المغرب » اه .

وفى أيام يحيى بن محمد صاحب الترجمة وذلك فى سنة سبع وثلاثين ومائتين ، قام رجل مؤذن بناحية تلمسان يدعى النبوة ، وتأول القرآن على غير وجهه ، فأتبعه خلق كثير من الغوغاء .

وكان من بعض شرائعه أنه ينهى عن قص الشعر وتقليم الاظفار ونتف الابطين والاستحداد وأخذ الزينة ، ويقول : « لا تغيير لخلق الله » فأمر

أمير تلمسان بالقبض عليه فهرب وركب البحر من مرسى هنين (١) الى الاندلس فشاع بها أيضا خبره وتبعه من سفهاء الناس أمة عظيمة فبعث اليه ملك الاندلس فاستتابه فلم يتب فقتله وصلبه ، وهو يقول : «أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله » .

الخبر عن دولة يحيى بن يحيى بن محمد بن ادريس

لما توفى يحيى بن محمد الذى بنى مسجد القرويين فى أيامه ولى الامر من بعده ابنه يحيى بن يحيى بن محمد بن ادريس ، فأساء السيرة وكثر عيثه فى الحرم ودخل على جارية من بنات اليهود فى الحمام ـ وكانت بارعة فى الجمال ـ فراودها عن نفسها فاستغاثت وبادر الناس اليه بالانكار وثابت العامة عليه ، وتولى كبر ذلك عبد الرحمن بن أبى سهل الجذامى وكانت زوجة يحيى المذكور ـ وهى عاتكة بنت على بن عمر بن ادريس صاحب الريف والسواحل ـ أشارت عليه بالاختفاء بعدوة الاندلس ريثما تسكن الفتنة ، فتوارى بها فمات من ليلته أسفا على ما صنع بنفسه وما وقع فيه من العار .

واستولى عبد الرحمن بن أبى سهل على فاس وقام بأمرها ، فكتبت عاتكة بنت على الى أبيها تعلمه بالخبر ، واستدعاه مع ذلك أهل الدولة من العرب والبربر والموالى فجمع حشمه وجيشه وجاء الى فاس فاستولى عليها .

وانقطع الملك من عقب محمد بن ادريس وصار بعد هذا تارة يكون فى عقب عمر بن ادريس صاحب الريف ، وتارة يكون فى عقب القاسم بن ادريس الزاهد على ما نذكره .

---

(١) هنين بضم أوله وفتح ثانيه حصن على مرسى جيد من مراسى البحر المتوسط وقربه بليدة يقال لها تاجورة منها كان عبد المؤمن بن على ذكره ياقوت والبكرى .

الخبر عن دولة على بن عمر بن ادريس

لما دخل على بن عمر مدينة فاس واستقر بها بايعه الناس ودخلت الكافة فى طاعته وخطب له على جميع منابر المغرب ، واستقام له الامر الى أن ثار عليه عبد الرزاق الفهرى ـ وكان من الخوارج الصفرية وأصله من وشقة بلد بالاندلس ـ فقام بجبال مديونة من أعمال فاس على مسيرة يوم ونصف منها ، فتبعه خلق كثير من البربر من مديونة وغياثة وغيرهم ، فبنى قلعة منيعة ببعض جبال مديونة وسماها وشقة باسم بلده . قال ابن أبى زرع : « وهى باقية بتلك الناحية حتى الآن »

ثم زحف الى قرية صفرون (١) فدخلها وبايعه كافة البربر الصفرونية ثم زحف بهم الى فاس فخرج اليه على بن عمر بن ادريس فى عسكر ضخم فكانت بينهم حرب شديدة كان الظفر فى آخرها لعبد الرزاق ، فانهزم على بن عمر وقتل خلق كثير من جنده وفر بنفسه الى بلاد أوربة . فدخل عبد الرزاق مدينة فاس وملك عدوة الاندلس وخطب له بها ، وامتنع منه أهل عدوة القرويين وبعثوا الى يحيى بن القاسم الزاهد وكان ما نذكره .

الخبر عن دولة يحيى بن القاسم بن ادريس

لما فر على بن عمر عن فاس واستولى عبد الرزاق الصفرى على عدوة الاندلس بعث أهل فاس الى يحيى بن القاسم بن ادريس ـ ويعرف يحيى هذا بالعدام ـ فوصل اليهم فبايعوه وولوه على أنفسهم . ويحيى العدام هذا

---

(١) هى مدينة صفرو الموجودة اليوم ، وبينها وبين فاس ثلاثون كيلومترا .

هو جد الاشراف الجوطيين بفاس فانهم أولاد يحيى الجوطى ابن محمد بن يحيى العدام ، وانما قيل له الجوطى نسبة الى جوطة بضم الجيم وبالطاء المهملة قرية كانت على نهر سبو بالعدوة الجنوبية منه ، نزلها يحيى بن محمد فنسب اليها وقبره معروف بها الى الآن

ولما استقل يحيى بن القاسم بالامر قاتل عبد الرزاق حتى أخرجه من عدوة الاندلس فدخلها وبايعه أهلها وجميع من نزل بها من أهل الاندلس الربضيين ربض قرطبة . واستعمل يحيى بن القاسم عليهم ثعلبة بن محارب بن عبد الله الازدى من ولد المهلب بن أبى صفرة وهو ربضى أيضا ، فلم يزل واليا على عدوة الاندلس الى ان توفى ، فاستعمل يحيى مكانه ولده عبد الله بن ثعلبة المعروف بعبود الى أن توفى أيضا فاستعمل الامير يحيى مكانه ولده محارب بن عبود بن ثعلبة .

وخرج الامير يحيى بن القاسم الى قتال الصفرية فكانت له معهم حروب ووقائع كثيرة ، ولم يزل أميرا على فاس وأعمالها الى أن اغتاله الربيع بن سليمان سنة اثنتين وتسعين ومائتين . وكانت فى أيام هؤلاء الامراء أحداث نذكرها :

ففى سنة ثلاث وخمسين ومائتين كان ببلاد العدوة والاندلس قحط شديد نضبت منه المياه واستمر الى سنة ستين .

وفى سنة أربع وخمسين كسف القمر كله من أول الليل حتى أصبح ولم ينجل .

وفى سنة ستين ومائتين عم القحط والغلاء جميع بلاد الاندلس والمغرب وافريقية ومصر والحجاز حتى رحل الناس عن مكة الى الشام ولم يبق بها الا نفر يسير مع سدنة الكعبة ، ثم كان بالمغرب والاندلس وباء عظيم مع غلاء فى الاسعار وعدمت الاقوات فهلك خلق كثير .

وفى سنة ست وستين ومائتين كانت بالسماء حمرة شديدة من أول الليل الى آخره لم يعهد قبلها مثلها ، وذلك ليلة السبت لتسع بقين من صفر من السنة المذكورة .

وفى سنة سبع وستين ومائتين فى يوم الخميس الثانى والعشرين من شوال منها كانت زلزلة عظيمة لم يسمع بمثلها تهدمت منها القصور وانحطت منها الصخور من الجبال ، وفر الناس من المدن الى البرية من شدة اضطراب الارض ، وتساقطت السقوف والحيطان ، وفرت الطيور عن أوكارها وماجت فى السماء زمانا حتى سكنت الزلزلة ، وعمت هذه الرجفة جميع بلاد الاندلس سهلها وجبالها وجميع بلاد العدوة من تلمسان الى طنجة ، ومن البحر الرومى الى أقصى المغرب ، الا أنها لم يمت فيها أحد لطفا من الله تعالى بخلقه .

وفى سنة ست وسبعين ومائتين طبقت الفتنة جميع آفاق الاندلس والمغرب وافريقية

وفى سنة خمس وثمانين ومائتين كانت المجاعة الشديدة التى عمت جميع بلاد الاندلس وبلاد العدوة حتى أكل الناس بعضهم بعضا ثم عقب ذلك وباء ومرض وموت كبير هلك فيه من الخلق مالا يحصى ، فكان يدفن فى القبر الواحد عدد من الناس لكثرة الموتى وقلة من يقوم بهم ، وكانوا يدفنون من غير غسل ولا صلاة والامر لله وحده .

الخبر عن دولة يحيى بن ادريس بن عمر بن ادريس

لما قتل يحيى العدام فى التاريخ المتقدم ولى الامر من بعده يحيى بن ادريس بن عمر بن ادريس ، فبايعه أهل عدوة فاس وخطب له بهما ؟ وامتد ملكه على جميع أعمال المغرب ، وخطب له على سائر منابره .

وكان يحيى هذا واسطة عقد البيت الادريسى : أعلاهم قدرا وأبعدهم ذكرا وأكثرهم عدلا وأغزرهم فضلا وأوسعهم ملكا ، وكان فقيها حافظا للحديث ذا فصاحة وبيان ، بطلا شجاعا حازما ذا صلاح ودين وورع .

قال ابن خلدون : « لم يبلغ أحد من الادارسة مبلغه فى الدولة والسلطان الى أن طما على ملكه عباب العبيديين القائمين بافريقية فأغرقه »

استيلاء العبيديين من الشيعة على المغرب الاقصى وقدوم قائدهم مصالة بن حبوس الى فاس

قد قدمنا عند ذكر ولاة المغرب أن ابراهيم بن الاغلب كان آخرهم ، وانه أورث بافريقية ملكا لبنيه فاستمرت دولتهم بها الى أواخر المائة الثالثة، وانقرضت على يد أبى عبد الله المحتسب داعية العبيديين من الشيعة ، فان المحتسب حج فى بعض السنين واجتمع بمكة بحجاج كتامة من أهل المغرب فتعرف اليهم ، ووعدهم بظهور المهدى من آل البيت على يدهم ، ويكون لهم به الملك والسلطان ، فتبعوه على رأيه وصحبهم الى بلادهم ورأس فيهم رئاسة دينية وقرر لهم مذهب الشيعة فاتبعوه وتمسكوا به ، ثم بايعوا مولاه عبيد الله المهدى أول خلفاء العبيديين فاستولى على افريقية فى خبر طويل .

ثم سمت همته الى تملك المغرب الاقصى فأغزاه قائده مصالة بن حبوس المكناسي صاحب تاهرت والمغرب الاوسط، فزحف مصالة الى المغرب الاقصى سنة خمس وثلاثمائة وانتهى الى فاس فبرز اليه يحيى بن ادريس لمدافعته فى جموع العرب والبربر والموالى ، والتقوا بقرب مكناسة فانهزم يحيى وعاد مفلولا الى فاس ، ثم تقدم مصالة الى فاس وحاصرها الى أن صالحه يحيى على مال يؤديه اليه ، وعلى البيعة لعبيد الله المهدى فقبل يحيى الشرط وخرج عن الامر وأنفذ بيعته الى المهدى وأبقى عليه مصالة فى سكنى فاس وعقد له على عملها خاصة ، وعقد لابن عمه موسى بن أبى العافية المكناسي على ما سوى ذلك من بلاد المغرب .

وكان موسى هذا صاحب تسول وبلاد تازا وكان كبير مكناسة بالمغرب الاقصى على الاطلاق ، وكان قد خدم مصالة حين قدم المغرب وتعرف اليه وهاداه وقاتل معه فى جميع حروبه بالمغرب ، فحسنت منزلته لديه وولاه بلاد المغرب كلها عدى فاسا وأعمالها فانه تركها للامير يحيى كما قلنا .

وصار المغرب الاقصى فى ملكة العبيديين واندرجت دولة الادارسة فى دولتهم . فكان موسى بن أبى العافية بعد ذهاب مصالة كلما أراد الظهور بالمغرب والاستبداد به غمره يحيى بن ادريس بحسبه ونسبه وفضله ودينه ، فقطع به كلما كان يريده فكان على قلب موسى منه حمل ثقيل . فلما قدم مصالة المغرب فى كرته الثانية ـ وذلك سنة تسع وثلاثمائة ـ سعى موسى ابن أبى العافية عنده بيحيى بن ادريس حتى أوغر صدره عليه ! فلما قرب مصالة من فاس خرج اليه يحيى للقائه والسلام عليه فى جماعة من وجوه دولته ، فقبض مصالة عليهم وقيد يحيى بالحديد وتقدم الى فاس فدخلها ويحيى بين يديه موثقا على جمل ، ثم عذبه بأنواع العذاب حتى استصفى أمواله وذخائره ، ثم نفاه الى نواحى آصيلا وقد ساءت حاله وانفض جمعه. فأقام عند بنى عمه ببلاد الريف مدة فأعطوه مالا ووصلوه بما يقيم به أوده ويستعين به على أمره ، فلم يرض ذلك وارتحل عنهم يريد افريقية فعرض له موسى بن أبى العافية فى طريقه فقبض عليه وسجنه بمدينة آلكاى(١) قريبا من عشرين سنة ثم أطلقه بعد ذلك . قالوا : وكان أبوه ادريس بن عمر قد دعا عليه أن يميته الله جائعا غريبا ، فاستجيب له فيه . فخرج يحيى من سجن ابن أبى العافية الى افريقية وهو فى فقر وذلة قد بلغ سوء الحال منه كل مبلغ ، فوصل الى المهدية على تلك الحال فوافق بها فتنة أبى يزيد مخلد بن كيداد اليفرنى وحصاره اياها فمات بها جائعا غريبا سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة رحمه الله .

---

(١) الذى فى البكرى لكاى بدون همزة ، فليحرر .

١٨٤

عود المغرب الاقصى الى الادارسة
وظهور الحسن الحجام بن محمد بن القاسم بن ادريس

لما قبض مصالة على يحيى بن ادريس واستصفى أمواله – كما قلنا – استعمل على فاس ريحان الكتامى وعاد الى القيروان ، فأقام ريحان عاملا على فاس وأحوازها نحو ثلاثة أشهر ، وثار عليه الحسن بن محمد بن القاسم بن ادريس المعروف بالحجام ، وعرف بذلك لانه كان بينه وبين عمه أحمد بن القاسم بن ادريس حرب فحمل الحسن على فارس من أصحاب عمه فطعنه فى موضع المحاجم ، ثم فعل ذلك بثان وثالث لا يطعنهم الا فى موضع المحاجم ! فقال عمه أحمد : ان ابن اخى الحجام ، فلزمه ذلك اللقب . وفى ذلك يقول بعضهم :

وسميت حجاما ولست بحاجم * ولكن لطعن فى مكان المحاجم

وكانت ثورة الحجام على ريحان سنة عشر وثلاثمائة أتى الى فاس فى جمع من شيعته وأنصاره وكان مقداما شجاعا ، فدخلها على حين غفلة من أهلها فاستولى عليها وقتل ريحان وقيل نفاه عنها . واجتمع الناس على بيعته ودخل فى طاعته أكثر قبائل البربر بالمغرب ، وملك عدة مدن مثل مدينة لواتة وصفرون ومدين ومدائن مكناسة والبصرة . واستقام له الامر بالمغرب الى أن كان منه مع موسى بن أبى العافية ما نذكره .

خروج الحسن الحجام الى قتال موسى بن ابى العافية

قال فى القرطاس : وفى سنة احدى عشرة وثلاثمائة خرج الامير الحسن الحجام الى قتال موسى بن أبى العافية ، فالتقى معه بفحص الزاد على مقربة من وادى المطاحن ما بين فاس وتازا ، فأوقع الحجام بابن أبى العافية وقعة عظيمة لم يقع فى دولة الادارسة مثلها ، قتل فيها من عسكر ابن أبى العافية نحو ألفين وثلاثمائة من جملتهم ابنه منهال بن موسى بن أبى العافية ، وقتل من عسكر الحجام نحو السبعمائة . ثم كانت العاقبة لموسى على الحجام فانفض عسكر الحجام وعاد مفلولا الى فاس ، فعجل الحجام ودخل فاسا وحده وترك عسكره خارج المدينة فغدر به عامله عليها حامد بن حمدان الهمدانى ، ويقال الاوربى من قرى افريقية : دخل عليه ليلا فى داره فقيده وأخذه اليه وأغلق المدينة فى وجه الجند ، وطير الى موسى بن أبى العافية يستدعيه الى فاس وكان ما نذكره

الخبر عن دولة آل ابي العافية المكناسيين الناسخة لدولة آل ادريس بفاس واعمالها

كان موسى بن أبى العافية متمسكا فى هذه المدة بدعوة العبيديين من الشيعة ، فلما قبض حامد بن حمدان على الحسن الحجام واستدعى ابن أبى العافية بادر نحوه فدخل عدوة القرويين واستولى عليها ، ثم قاتل أهل عدوة الاندلس حتى ملكها ، فلما ملك المدينتين معا طالب حامد بن حمدان باحضار الحسن الحجام وقال أقتله بولدى منهال .

وكان حامد قد ندم على فعلته تلك ، فدافع موسى وسوفه وكره المجاهرة بسفك دماء آل البيت ، ولما جن الليل خالف حامد الى الحسن ففك

عنه قيده وأرسله فتدلى الحسن من السور فسقط وانكسرت ساقه فتحامل حتى انتهى الى عدوة الاندلس فاختفى بها الى أن مات لمضى ثلاث من سقطته رحمه الله وذلك سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة وأراد ابن أبى العافية قتل حامد بن حمدان لعدم تمكينه اياه من الحجام ففر الى المهدية وكانت دولة الحسن الحجام بفاس نحو سنتين .

وانقرضت دولة آل ادريس من فاس وأعمالها وتداول المغرب الاقصى العبيديون أصحاب افريقية والمروانيون أصحاب الاندلس ، مرة لهؤلاء ومرة لهؤلاء ، وتجددت للادارسة دولة أخرى ببلاد الريف نذكرها عن قريب ان شاء الله .

وصفت فاس وأعمالها لابن أبى العافية وملك معها كثيرا من أعمال المغرب وبايعته القبائل والاشياخ ، وهو فى ذلك كله متمسك بدعوة الشيعة كما قلنا فكان كالنائب عنهم بالمغرب . والله غالب على أمره .

طرد موسى بن ابى العافية آل ادريس من اعمال المغرب وحصره اياهم بحجر النسر

لما استولى موسى بن أبى العافية على فاس والمغرب شمر لطرد الادارسة عنه فأخرجهم من ديارهم وأجلاهم عن بلادهم من شالة وآصيلا وغيرهما من البلاد التى كانت فى أيديهم . ولجئوا بأجمعهم الى قلعة حجر النسر مغلوبين على ملكهم مطرودين عن دار عزهم التى أسسها سلفهم .

وكانت قلعة حجر النسر حصنا منيعا بناه(١) محمد بن ابراهيم بن محمد ابن القاسم بن ادريس ، شامخا فى عنان السحاب ، فنزل عليهم موسى بن أبى العافية وشدد عليهم الحصار وأراد استئصالهم وقطع دابرهم ، فعذله على

---

(١) كان بناء هذا الحصن سنة سبع عشرة وثلاثمائة . (البكرى)

ذلك أكابر دولته ، وقالوا له : أتريد أن تقطع دابر أهل البيت من المغرب وتخليه منهم ؟ هذا شيء لا نوافقك عليه ! ولا نتركك لـه ! فاستحيا عند ذلك وارتحل عنهم الى فاس ، وخلف على حصارهم قائده أبا الفتح التسولى فى ألف فارس، يمنعهم من التصرف وكان ذلك سنة سبع عشرة وثلاثمائة.

استيلاء موسى بن ابى العافية على تلمسان واعمالها

لما ارتحل موسى بن أبى العافية عن حجر النسر سار الى فاس فأقام بها أياما ، وقتل عامله على عدوة الاندلس عبد الله بن ثعلبة بن محارب ابن عبود الازدى ، وولى مكانه أخاه محمد بن ثعلبة ثم عزله ، وولى مكانه طوال بن أبى بزيد فلم يزل عاملا عليها الى أن خرجت فاس عن يد ابن أبى العافيـة .

واستعمل موسى على المغرب الاقصى ولده مدين بن موسى بن أبى العافية ، وأنزله بعدوة القرويين ، ثم نهض الى تلمسان سنة تسع عشرة وثلاثمائة فملكها وأعمالها ، وكانت بيد الحسن بن أبى العيش من أعقاب سليمان بن عبد الله أخى ادريس الاكبر وفر الحسن الى مدينة مليلة من جزائر ملوية وبنى هناك حصنا وتحصن به ، ثم زحف ابن أبى العافية الى مدينة نكور(١)فملكها أيضا ، وحاصر الحسن فى حصنه مدة ثم عقد له سلما على حصنه . وكان ذلك فى شعبان سنة عشرين وثلاثمائة ثم عاد الى فاس وقد دوخ البلاد والاقطار وانتظم المغربان الاقصى والاوسط فى ملكه .

---

(١) نكور هذه كانت مدينة مهمة أسسها سعيد بن ادريس بن صالح ابن منصور الحميرى كما عند البكرى ، وقال ابن خلدون : ان والده ادريس كان اختطها فى عدوة الوادى ولم يكملها ثم كملها ابنه سعيد المذكور من بعده ، وذلك فى حدود سنة ثلاث وأربعين ومائة . وكانت تعرف فى عهد ابن خلدون بالمزمـة

١٨٨

انحراف موسى بن ابى العافية عن الشيعة الى بنى مروان وما نشأ عن ذلك

كان عبد الرحمن الناصر الاموى صاحب الاندلس قد سما له أمل فى التملك على المغرب الاقصى، لما بلغه من تراجع أمر بنى ادريس به وأشراف دولتهم على الهرم ، فملك سبتة من يد بنى عصام القائمين بها بالدعوة الادريسية .

ولما استولى موسى بن أبى العافية على المغرب خاطبه الناصر فى القيام بدعوته ووعده الجميل على ذلك ، وأتاه من بين يديه ومن خلفه حتى أجابه الى مراده ، ونقض طاعة الشيعة وخطب للناصر على منابر عمله ، فاتصل الخبر بعبيد الله المهدى صاحب افريقية ، فسرح اليه قائده حميد بن يصليتن المكناسى صاحب تاهرت فى عشرة آلاف فارس ـ وهو ابن أخى مصالة بن حبوس المقدم الذكر ـ فالتقى حميد وموسى بفحص مسون فكانت بينهم حرب سجال ، ثم ان حميدا بيت موسى ليلة فضرب فى عسكره فانهزم موسى وأصحابه ومضى الى عين اسحق (١) من بلاد تسول فتحصن بها .

وتقدم حميد الى فاس فلما شارفها فر عنها مدين بن موسى ولحق بأبيه ؛ فدخلها حميد واستعمل عليها حامد بن حمدان الهمدانى . وكان فى جملته ثم عاد الى افريقية وقد قضى أربه من المغرب وكان ذلك سنة احدى وعشرين وثلاثمائة .

ولما اتصل ببنى ادريس المحصورين بحجر النسر خبر هزيمة موسى ابن أبى العافية وفرار ابنه عن فاس وولاية حامد بن حمدان عليها قويت نفوسهم ، وتظاهروا على أبى الفتح التسولى ، فنزلوا اليه وقاتلوه وهزموه

---

(١) عين اسحاق هى مدينة تسول قاعدة موسى بن أبى العافية وكانت كبيرة مهمة انظر ما قاله فى حقها البكرى .

ونهبوا معسكره وخرجوا الى الفضاء بعد انحصارهم بالقلعة المذكورة أربع سنين .

ثورة أحمد بن بكر الجذامى بدعوة المروانيين بفاس وما نشأ عن ذلك

وأقام حامد بن حمدان واليا على فاس من قبل الشيعة الى أن ثار عليه أحمد بن بكر بن عبد الرحمن بن سهل الجذامى ، وذلك عقب وفاة عبيد الله المهدى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة فقتل حامد بن حمدان وبعث برأسه وبولده الى موسى بن أبى العافية ، فبعث به موسى الى عبد الرحمن الناصر بقرطبة ، واستولى على المغرب وعادت الدعوة به الى بنى مروان .

ولما اتصل الخبر بصاحب افريقية أبى القاسم بن عبيد الله المهدى - المتولى بعد أبيه - سرح قائده ميسورا الخصى الى المغرب ، فقدمه ميسور سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة وخام ابن أبى العافية عن لقائه واعتصم بحصن آلكاى .

وتقدم ميسور الى فاس فحاصرها اياما الى ان خرج اليه أحمد بن بكر مبايعا ، وقدم بين يديه هدية نفيسة ومالا جليلا ، فقبض ميسور الهدية والمال ، ثم تقبض على أحمد بن بكر وقيده وبعث به الى المهدية .

ولما نذر أهل فاس بغدره امتنعوا عليه وأغلقوا أبوابهم دونه ، وقدموا على أنفسهم حسن بن قاسم اللواتى ، فحاصرهم ميسور سبعة أشهر ولما طال عليهم الحصار رغبوا فى السلم فصالحهم على أن أعطوه ستة آلاف دينار وأنطاعا ولبودا وقربا للماء وأثاثا ، وكتبوا بيعتهم الى أبى القاسم الشيعى وكتبوا اسمه فى سكتهم وخطبوا له على منابرهم ، فقبل ميسور ذلك منهم، وأقر عليهم حسن بن قاسم اللواتى ، وارتحل عنهم واستمر حسن عاملا على فاس الى أن قدم أحمد بن بكر من المهدية مطلقا مكرما ، فتخلى له

عن ما كان بيده وذلك فى سنة احدى وأربعين وثلاثمائة ، فكانت ولاية حسن بن القاسم على فاس ثمان عشرة سنة قاله فى القرطاس . وقال بن خلدون : «ان أحمد بن بكر الجذامى قدم من افريقية سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة فسار الى فاس وأقام بها متنكرا الى أن وثب بعاملها حسن بن قاسم اللواتى فتخلى له عن العمل » والله أعلم .

حرب ميسور مع موسى بن ابى العافية

لما صالح ميسور أهل فاس نهض الى حرب ابن أبى العافية فدارت بينهم حروب كان الظهور فى آخرها لميسور ، وأسر البورى بن موسى بن أبى العافية وغربه الى المهدية ، وطرد موسى على أعمال المغرب الى نواحى ملوية ووطاط وما وراءها من بلاد الصحراء ثم قفل الى القيروان .

وقال ابن أبى زرع فى كتاب القرطاس : « ان بنى ادريس تولوا معظم الحروب التى دارت بين ميسور وبين ابن أبى العافية ، وانهم قاتلوا ابن أبى العافية حتى فر أمامهم الى الصحراء » قال : « وتملك الادارسة أكثر ما كان بيد ابن أبى العافية قائمين بدعوة الشيعة ، فلم يزل ابن أبى العافية شريدا فى الصحراء وأطراف البلاد التى بقيت بيده ، وذلك من مدينة آكرسيف الى مدينة نكور الى أن قتل ببعض بلاد ملوية ، وذلك سنة احدى وأربعين وثلاثمائة ، وقيل : انه قتل سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة قاله البرنسى » اه كلام ابن أبى زرع .

وقال ابن خلدون : « ان موسى ابن أبى العافية رجع من الصحراء الى أعماله بالمغرب فملكها ، وولى على عدوة الاندلس أبا يوسف بن محارب الازدى » قال : « وهو الذى مدن عدوة الاندلس ، وكانت حصونا ثم زحف الى تلمسان سنة خمس وعشرين وثلاثمائة فاستولى عليها » قال : « واستفحل أمر ابن أبى العافية بالمغرب الاقصى واتصل عمله بعمل محمد

بن خرز ملك مغراوة وصاحب المغرب الاوسط ، وبثوا دعوة الاموية فى أعمالها » والله أعلم .

بقية اخبار آل ابى العافية بالمغرب

قال ابن ابى زرع : « لما هلك موسى بن أبى العافية ولى بعده ابنه ابراهيم الى أن توفى سنة خمسين وثلاثمائة فولى بعده ابنه عبد الله ويقال عبد الرحمن بن ابراهيم بن موسى ابن أبى العافية الى أن توفى سنة ستين وثلاثمائة فولى عمله من بعده ابنه محمد وعليه انقرضت دولة آل أبى العافية سنة ثلاث وستين وثلاثمائة » . وذكر بعض المؤرخين لايامهم « انه لما توفى محمد بن عبد الله بن ابراهيم بن موسى بن أبى العافية ولى بعده ابنه القاسم بن محمد المحارب للمتونة ، فكانت بينه وبينهم حروب الى أن غلب عليه يوسف بن تاشفين فقتله واستأصل شافة ذرية موسى بن أبى العافية بالمغرب وكانت دولتهم مائة وأربعين سنة من سنة خمس وثلاثين الى سنة خمس وأربعين وأربعمائة » اه ولكن دولتهم بفاس انتهت الى قدوم ميسور الخصى كما مر وبقيت رياستهم بالاطراف الى دولة اللمتونيين والله أعلم . وكان فى هذه المدة من الاحداث ما نذكره :

ففى يوم الاربعاء التاسع والعشرين من شوال سنة تسع وتسعين ومائتين كسفت الشمس كسوفا كليا ، وكان ذلك بعد صلاة العصر فغاب القرص كله وظهرت النجوم وأذن أكثر الناس بالمساجد للمغرب ثم تجلت مضيئة بعد ذلك ، ومكثت مقدار ثلث ساعة ثم غربت .

وفى سنة ثلاث وثلاثمائة كان بافريقية والمغرب والاندلس فتن كثيرة ومجاعة عظيمة أشبهت مجاعة سنة ستين ومائتين ثم وقع الموت فى الناس حتى عجزوا عن دفن موتاهم .

وفى سنة خمس وثلاثمائة أحرقت النار أسواق مدينة فاس ،

واسواق تاهرت قاعدة زناتة وأحرقت أسواق قرطبة وأرباض مكناسة من بلاد جوف الاندلس ، وكان ذلك كله فى شوال من السنة المذكورة فسميت سنة النار .

وفى سنة سبع وثلاثمائة كان بافريقية والمغرب والاندلس رخاء مفرط وطاعون ووباء كثير ، وفيها كانت الريح السوداء الشديدة الهبوب التى قلعت الاشجار ، وهدمت الدور بفاس فتاب الناس ولزموا المساجد وارتدعوا عن كثير من الفواحش .

وفى سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة ظهر حاميم المتنبىء بجبال غمارة . قال ابن خلدون : « كانت غمارة غريقة فى الجهالة والبعد عن الشرائع بسبب البداوة والانتباذ عن مواطن الخير ، وتنبأ فيهم من قبيلة يقال لها محكسة حاميم بن من الله يكنى أبا محمد ، ويكنى أبوه من الله أبا يخلف ، وكان ظهوره بجبل حاميم المشتهر به قريبا من تطوان ، واجتمع اليه كثير من غمارة وأقروا بنبوته وشرع لهم شرائع وعبادات وصنع لهم قرآنا كان يتلوه عليهم بلسانه . فمما شرع لهم صلاتان فى كل يوم ، واحدة عند طلوع الشمس والاخرى عند غروبها : ثلاث ركعات فى كل صلاة . ويسجدون وبطون أيديهم تحت وجوههم . ومن قرآنهم الذى كانوا يقرأونه بعد تهليل يهللون به بلسانهم : خلنى من الذنوب يامن خلى النظر ينظر فى الدنيا ، أخرجنى من الذنوب يامن أخرج يونس من بطن الحوت وموسى من البحر ، ثم يقول فى ركوعه آمنت بحاميم وبأبيه أبى يخلف من الله ، وآمن رأسى وعقلى وما يكنه صدرى وما أحاط به دمى ولحمى ، وآمنت بتالية عمة حاميم أخت أبى يخلف من الله ثم يسجد — وكانت تالية هذه امرأة كاهنة ساحرة — وكان حاميم يلقب المفترى ، وكانت أخته دبو كاهنة ساحرة أيضا وكانوا يستغيثون بها فى الحروب والقحوط ، وفرض عليهم صوم الاثنين وصوم الخميس الى الظهر وصوم الجمعة وصوم عشرة أيام من رمضان ويومين من شوال ، ومن أفطر فى يوم الخميس عمدا فكفارته أن يتصدق بثلاثة أثوار ، ومن أفطر فى يوم الاثنين فكفارته أن يتصدق بثورين

وفرض عليهم فى الزكاة العشر فى كل شىء ، وأسقط عنهم الحج والوضوء والغسل من الجنابة ، وأحل لهم أكل الانثى من الخنزير ، وقال : انما حرم قرآن محمد الخنزير الذكر ، وأمر أن لا يؤكل الحوت الا بذكاة ، وحرم عليهم أكل البيض وأكل الرأس من كل حيوان ، فبعث اليه عبد الرحمن الناصر صاحب الاندلس عسكرا فالتقوا بقصر مصمودة من أحواز طنجة فقتلوه ، وقتلوا أتباعه وصلبوا شلوه بالقصر المذكور ، وبعثوا برأسه الى الناصر بقرطبة ، ورجع من بقى من أتباعه الى الاسلام وذلك سنة خمس عشرة وثلاثمائة . قال ابن خلدون : « وكان لابنه عيسى بن حاميم من بعده قدر جليل فى غمارة »

وفى سنة سبع وعشرين وثلاثمائة ظهر ببلاد المغرب غمام كثيف دام خمسة أيام لم ير الناس فيها شمسا وكان الشخص لا يرى من الارض فيه الا موضع قدميه فتاب الناس وأخرجوا الصدقات فكشف الله عنهم ما بهم وسميت سنة الغمام .

وفى سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة نزل برد عظيم الواحدة منه تزن رطلا واكثر ، قتل الطير والوحش والبهائم وكثيرا من الناس وكسر الاشجار وأفسد الثمار وكان ذلك باثر قحط شديد وغلاء عام .

وفى سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة نزل أيضا برد كثير لم يعهد مثله كثرة قتل المواشى وأفسد الثمار ، وجاءت السيول العظيمة بجميع بلاد المغرب وكان بها رعود قاصفة وبروق خاطفة ، ودام ذلك أياما واستسقى الناس واستصحوا فى هذه السنة ، وفيها أيضا كانت ريح شديدة هدمت المبانى .

وفى سنة أربع وأربعين وثلاثمائة كان الوباء العظيم بالمغرب والاندلس هلك فيه أكثر الخلق

وفى هذه المدة كان الشيخ أبو سعيد المصرى المعروف بأبى سلهامة موجودا وهو من كبار صلحاء المغرب ، وقبره شهير قرب مشرع الحضر على ساحل البحر وعليه قبة عجيبة الصنعة محكمة العمل بالنقش والاصباغ

والزليج الملون . قال أبو عبد الله محمد العربى الفاسى فى مرآة المحاسن : « كان على رأس قبر الشيخ أبى سلهامة لوح مذهب مكتوب عليه : « هذه القبور الثلاثة التى أخفى الله تعالى فيها قبر الشيخ أبى سعيد المكنى بأبى سلهامة وكانت وفاته سنة نيف وأربعين وثلاثمائة » قال أبو عبد الله المذكور : « ثم أن النصارى نزلوا مرة هناك فاقتلعوا اللوح وذهبوا به » قال : « وكان النيف الزائد على الاربعين مسمى فى اللوح ولكنى أنسيته ومع ذلك فهو لا يزيد على السبع » والله تعالى أعلم .

الخبر عن الدولة الثانية للادارسة ببلاد الريف

هذه الدولة التى كانت للادارسة ببلاد الريف لم تكن لهم على سبيل الاستقلال والاستبداد كما كانت لهم أولا بفاس والمغرب ، انما كانوا فيها تحت نظر المتغلب على بلاد المغرب اما من الشيعة أصحاب افريقية ، واما من المروانيين أصحاب الاندلس كما ستقف عليه .

واعلم انا قد قدمنا أن بنى ادريس كانوا قد اقتسموا أعمال المغرب بعد وفاة أبيهم ادريس رحمه الله وذلك باشارة جدتهم كنزة ، وأن بلاد الريف منها كانت فى سهم عمر بن ادريس ، وأنه قاتل أخويه عيسى والقاسم ، وأضاف أعمالهما الى عمله ، فبقيت بلاد الريف بيد بنى عمر بن ادريس يتوارثونها خلفا عن سلف ، فلما انقرضت دولة آل ادريس بفاس على يد موسى بن أبى العافية انحازوا الى بنى عمهم وعشيرتهم ببلاد الريف وتحصنوا بقلعة حجر النسر كما سبق .

ولما قدم ميسور الخصى من افريقية وأجلى موسى بن أبى العافية الى الصحراء ، أقام بنو ادريس بريفهم يتداولون رياسته تحت نظر الشيعة تارة وتحت نظر المروانيين أخرى ، الى أن انقرضت دولتهم وذهبت رياستهم من المغرب بالكلية . والله غالب على أمره .

الخبر عن رياسة القاسم كنون بن محمد بن القاسم بن ادريس

لما فر موسى بن أبى العافية أمام القائد ميسور الى الصحراء صارت الرياسة فى المغرب بعده لابنى محمد بن القاسم بن ادريس . وهما : القاسم الملقب بكنون ، وشقيقه ابراهيم ، وهما معا أخوان للحسن الحجام الذى تقدم ذكره ، فاجتمع بنو ادريس وبايعوا القاسم المذكور ، فملك أكثر بلاد المغرب الا فاسا فانه لم يملكها ، وكان سكناه بقلعة حجر النسر ، واستمر على امارته مقيما لدعوة الشيعة الى أن توفى سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة فولى بعده ابنه أبو العيش .

الخبر عن دولة ابى العيش أحمد بن القاسم كنون

كان أبو العيش هذا فقيها ورعا حافظا للسير عارفا بأخبار الملوك وأيام الناس وأنساب قبائل العرب والبربر شجاعا جوادا ، وكان يعرف فى بنى ادريس بأحمد الفاضل وكان مائلا الى بنى مروان .

ولما ولى بعد أبيه قطع دعوة العبيديين فى جميع عمله ، وبايع لعبد الرحمن الناصر صاحب الاندلس وخطب له على جميع منابر عمله ، وبايع أبا العيش كافة أهل المغرب الى سجلماسة . وكان السواد الاعظم من أهل المغرب الاقصى لهم محبة فى جانب آل ادريس وايثار لهم لا يبغون بهم بدلا مهما وجدوا الى ذلك سبيلا .

١٩٦

تغلب عبد الرحمن الناصر على بلاد المغرب، ومضايقته لابى العيش بها

لما بايع أبو العيش لعبد الرحمن الناصر وخطب لـه اقترح عليه أن ينزل له عن طنجة ليضيفها الى سبتة التى كان استولى عليها من قبل ،فامتنع أبو العيش من ذلك فبعث اليه الناصر بالاسطول والمقاتلة ، فحاصره وضيق عليه ، ولما رأى أبو العيش أنه لا طاقة له بحربه أجابه الى ما سأل ونزل له عن طنجة .

وبقى أبو العيش مع اخوته وبنى عمه من الادارسة بمدينة البصرة وآصيلا تحت بيعة الناصر وفى كنفه متمسكين بدعوته ، وكانت قواد الناصر وجيوشه تجيز من الاندلس الى العدوة ، يقاتلون من خالف الادارسة من البربر ويستألفونهم ، والناصر ممد لمن عجز منهم برجاله ، مقو لمن ضعف بماله ، حتى ملك أكثر بلاد المغرب وبايعته قبائله من زناتة والبربر، وخطب له على منابره من تاهرت الى طنجة ـ ما عدا سجلماسة ـ فانه قام بها فى ذلك الوقت منادر البربرى .

وبايع الناصر أهل فاس فيمن بايعه من بلاد العدوة فولى عليهم محمد ابن الخير المغراوى، وكان من أبسط ملوك زناتة يدا وأعظمهم شأنا وأحسنهم الى ملوك بنى أمية انحياشا وأخلصهم طوية .

وكان لبنى يفرن ومغراوة من زناتة ولايـة للامويين وتشيع لهم ، وذلك بولاية عثمان بن عفان رضى الله عنه لجدهم صولات بن وزمار المغراوى الذى وفد عليه وأسلم على يده كما سبق فى أخبار الفتح والله أعلم . فسرت تلك الولاية فى عقب زناتة للامويين عموما كما كان لصنهاجة من البربر ولاية آل على بن أبى طالب(١) رضى الله عنه ، فأقام محمد بن الخير واليا

---

(١) قال ابن خلدون : لا يعرف سبب هذه الولايـة ولا أصلها (جزء ١ صفحة ١٩٥ طبع الجزائر) .

على مدينتى فاس نحو سنة وارتحل عنهـا الى الاندلس برسم الجهاد ، واستخلف عليها ابن عمه أحمد بن أبى بكر بن أحمد بن عثمان بن سعيد الزناتى وهو الذى بنى صومعة مسجد القرويين سنة أربع وأربعين وثلاثمائة كما سبـق .

وفى سنة سبـع وأربعين وثلاثمائة ولى الناصر عـلى مدينة طنجة وأحوازها يعلى بن محمد اليفرنى فنزلها فـى قبائل يفـرن وأمضى أمره ونهيـه فيها .

هجرة أبي العيش الى الاندلس بقصد الجهاد

لما رأى أبو العيش غلبة الناصر على بلاد العدوة هانت عليه رياستها ، فكتب اليه بقرطبة يستأذنه فى الجهاد فأذن له ، وأمر أن يبنى له فى كل منزل ينزله قصرا ـ وذلك من الجزيرة الخضراء الى الثغر ـ وأن يجرى له فيها ألف دينار فى كل يوم ضيافة له ، ومن الفرش والاثاث والطعام والشراب ما يقوم بالقصر ، فلم يزل على ذلك حتى وصل الى الثغر فكانت منازله من الجزيرة الى الثغر ثلاثين منزلا ومات أبو العيش رحمه الله شهيدا فى جهاد الفرنج سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة

الخبر عن دولة الحسن بن كنون

لما خرج أبو العيش من الاندلس برسم الجهاد استخلف على عمله أخاه الحسن بن كنون ، وهو القاسم بن محمد بن القاسم بن ادريس ، وهـو آخر ملوك الادارسة بالمغرب ولم يزل مواليـا للمروانيين متمسكا بدعوتهم الى أن كان ما نذكره .

١٩٨

قدوم القائد جوهر الشيعى من افريقيا الى المغرب واستيلاؤه عليه

لما اتصل بخليفة الشيعة ـ وهو المعز لدين الله معد بن اسمعيل العبيدى ، غلبة الناصر على بلاد العدوة وأن جميع من بها من قبائل زناتة والبربر رفضوا دعوتهم ودخلوا فى دعوة بنى أمية ، عظم الامر عليه ، وبعث قائده جوهر بن عبد الله الرومى ـ المعروف بالكاتب ـ فى جيش كثيف يشتمل على عشرين ألف فارس من قبائل كتامة وصنهاجة وغيرهم ، وأمره أن يطأ بلاد المغرب ويذللها ويستنزل من بها من الثوار ويشد وطأته عليهم .

فخرج جوهر من القيروان سنة سبع وأربعين وثلاثمائة يؤم بلاد المغرب فاتصل خبره بيعلى بن محمد اليفرنى صاحب طنجة وخليفة الناصر على بلاد العدوة ، فحشد قبائل زناتة ونهض الى القائد جوهر فكان اللقاء على تاهرت ، فالتحمت الحرب بين الفريقين فأخرج القائد جوهر الاموال وبذلها فى قواد كتامة فضمنوا له قتل أمير زناتة يعلى بن محمد ، فلما اشتد القتال صممت عصابة من قواد كتامة وأنجادها وقصدوا الى يعلى بن محمد فقتلوه واحتزوا رأسه وأتوا به الى جوهر فبذل لهم مالا جليلا بشارة عليه وبعث بالرأس الى مولاه المعز فطيف به بالقيروان

وذكر ابن خلدون أن يعلى بن محمد بادر الى لقاء جوهر عند قدومه وأذعن له وبايعه فأظهر جوهر القبول ثم دس اليه من اغتاله وتفرق بنو يفرن وزناتة بعد مقتل أميرهم ، وبعد مدة التأم ملكهم على ولده يدو بن يعلى بن محمد اليفرنى

ثم تقدم جوهر الى سجلماسة ، وكان قد قام بها محمد بن الفتح بن ميمون بن مدرار المعروف بالشاكر لله ، وقد تقدم لنا أنه ادعى الخلافة وتسمى بأمير المؤمنين وضرب السكة باسمه وكتب عليها «تقدست عزة الله» وكانت سكته تعرف بالشاكرية وكانت فى غاية الطيب ، وكان سنيا مالكى المذهب قد خالف سلفه فى مذهب الصفرية ، فنزل عليه جوهر وحاصره

بسجلماسة ثم اقتحمها عنوة بالسيف ، وأفلت الشاكر ثم عاد بعد يومين أو ثلاثة فدخل سجلماسة متنكرا فعرف وقبض عليه وأتى به الى جوهر فأوثقه فى الحديد وساقه أسيرا بين يديه حتى نزل على فاس بعد أن أفنى حماة الصفرية ورجالها بالسيف .

وكان نزوله على فاس سنة تسع وأربعين وثلاثمائة فحاصرها وأدار بها القتال من كل جهة قريبا من نصف شهر ، ثم اقتحمها عنوة بالسيف على يد زيرى بن مناد الصنهاجى ، فانه تسنم أسوارها ليلا ودخلها فقتل بها خلقا كثيرا ، وقبض على أميرها أحمد بن أبى بكر الزناتى(١)الذى ولاه الناصر عليها ، ونهب المدينة وقتل حماتها وشيوخها وسبى أهلها ، وهدم أسوارها وكان الحادث بها عظيما ، وكان دخول جوهر اياها ضحوة يوم الخميس الموفى عشرين من رمضان سنة تسع وأربعين وثلاثمائة .

ثم سار جوهر فى بلاد المغرب يقتل أولياء المروانيين ويسبى ويفتح البلاد والمعاقل ، وخافته البربر وفرت أمامه قبائلها ، فأنفذ الامر فى المغرب الاقصى ثلاثين شهرا وانتهى الى البحر المحيط وصاد من سمكه وجعله فى قلال الماء وأرسله الى مولاه المعز ، ثم انصرف راجعا بعد أن دوخ البلاد وأثخن فيها وقتل حماتها وقطع دعوة المروانيين منها ، وردها الى العبيديين فخطب لهم على جميع منابر المغرب ، وانتهى القائد جوهر الى المهدية ـ دار المعز لدين الله ، وقد حمل معه أحمد بن أبى بكر اليفرنى أمير فاس ، وخمسة عشر رجلا من أشياخها ، وحمل أيضا محمد بن أبى الفتح أمير سجلماسة ، ودخل بهم أسارى بين يديه فى أقفاص من خشب على ظهور الجمال وجعل على رأوسهم قلانس من لبد مستطيلة منبتة بالقرون ، فطيف بهم فى بلاد افريقية وأسواق القيروان ، ثم ردوا الى المهدية وحبسوا بها حتى ماتوا فى سجنها .

---

(١) وقيل أحمد بن بكر الجذامى وهو أصح اه (مؤلف)

٢٠٠

قدوم بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى الشيعى من افريقيا الى المغرب

كان الامير الحسن بن كنون قد بايع العبيديين فيمن بايعهم عند غلبة جوهر على المغرب ، فلما انصرف جوهر الى افريقية أواخر سنة تسع وأربعين وثلاثمائة نكث الحسن بن كنون بيعة العبيديين وعاد الى المروانيين فتمسك بدعوة الناصر ثم بدعوة ابنه الحكم المستنصر خوفا منهم ، لا محبة فيهم ، لقرب بلاده من بلادهم . وأقام على ذلك الى أن قدم الامير بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى من افريقية الى المغرب لاخذ ثأر (١) أبيه فقتل زناتة واستأصلهم وملك المغرب بأسره وقطع أيضا منه دعوة الامويين وقتل أولياءهم وأخذ البيعة على جميع أهل المغرب للمعز معد بن اسمعيل كما فعل جوهر قبله ، فكان أول من سارع الى بيعته ونصرته وقتال أولياء المروانيين معه الحسن بن كنون صاحب مدينة البصرة ، وكشف وجهه فى ذلك وأعمل فيه جهده فاتصل خبره بالحكم المستنصر فحقد عليه لذلك .

فلما انصرف بلكين بن زيرى الى افريقية بعث الحكم المستنصر صاحب الاندلس قائده محمد بن القاسم بن طملس فى جيش كثيف الى قتال الحسن بن كنون ، فأجاز اليه من الجزيرة الخضراء الى سبتة فى عدد كثير وعدة كاملة ، وذلك فى شهر ربيع الاول سنة اثنتين وستين وثلاثمائة فزحف الحسن الى قتاله فى قبائل البربر ، فكان اللقاء بأحواز طنجة بموضع يعرف بحفص بنى مصرخ ، فكانت بينهما حرب شديدة قتل فيها محمد بن القاسم قائد الحكم المستنصر وقتل معه خلق كثير من أصحابه ، وفر الباقون فدخلوا سبتة وتحصنوا بها وكتبوا الى الحكم يستغيثون به فبعث اليهم صاحب حروبه غالبا مولاه — البعيد الصيت المعروف بالشهامة والنجدة والدهاء — وأعطاه الحكم أموالا جليلة وجيوشا كثيرة ، وعددا وافرة وأمره بقتال آل ادريس

---

(١) لان زيرى بن مناد والد بلكين هذا كانت زناتة قد قتلته سنة ٣٦١ وحمل رأسه الى الخليفة الاموى بقرطبة وهو الحكم المستنصر بن الناصر .

واستنزالهم من معاقلهم ، وقال له عند وداعه : ياغالب سر مسير مـن لا اذن له فى الرجوع الا حيا منصورا أو ميتا معذورا ، ولا تشح بالمـال وابسط يدك به يتبعك الناس .

قدوم غالب الاموى الى المغرب وتغريب آل ادريس الى الاندلس

ثم خرج غالب من قرطبة فى آخر شوال سنة اثنتين وستين وثلاثمائة فاتصل خبر قدومه بالحسن بن كنون فخاف منه وأخلى مدينة البصرة وحمل منها حرمه وأمواله وذخائره الى قلعة حجر النسر القريبة من سبتة واتخذها معقلا يتحصن بها ، وأجاز غالب البحـر مـن الجزيـرة الخضراء الى قصر مصمودة ، فلقيه الحسن بن كنون هناك فى جموع البربر ، وقاتلـه أيـاما وسرب غالب الاموال الى رؤساء البربر الذين مع الحسن بن كنون ووعدهـم ومناهم ، فانفضوا عن الحسن حتى لم يبق معه الا خاصته ورجاله ، فلمـا رأى ذلك سار الى حجر النسر فتحصن به ، واتبعه غالب فحاصره به ونزل عليه بجميع جيوشه وقطع عنه المواد ، وأمده الحكم بعـرب الدولة الذيـن بالاندلس ورجال الثغور ، فوصل المدد الى غالب غـرة المحرم سنـة ثلاث وستين وثلاثمائـة ، فاشتد الحصار على الحسن بن كنون ، فطلب مـن غالب الامان على نفسه وأهله وماله ورجاله وينزل اليه فيسير معـه الى قرطـبة فيكون بها ، فأجابه غالب الى ذلك وعاهده عليه ، فنزل الحسن بأهله وماله ورجاله وأسلم الحصن الى غالب فملكه ، واستنزل غالب جميـع العلوييـن الذين بأرض العدوة من معاقلهم وأخرجهم عن أوطانهم ولم يترك بالعدوة رئيسا منهم .

وسار الى مدينة فاس فملكها واستعمل عليها محمد بـن أبى على بـن قشوش بعدوة القرويين ، وعبد الكريم بن ثعلبة بعدوة الاندلس ، فلم تزل فاس بيد بنى أمية الى أن غلب عليها زيرى بن عطية المغراوى .

وانصرف غالب الى الاندلس وساق معه الحسن بن كنون وجميع ملوك الادارسة ، وقد وطأ جميع بلاد المغرب وفرق العمال فى نواحيه وقطع دعوة بنى عبيد من جميع آفاقه ورد الدعوة الى الاموية ، فخرج بهم غالب من فاس آخر رمضان سنة ثلاث وستين وثلاثمائة ووصل الى سبتة فركب البحر منها واستقر بالخضراء .

وكتب الى مولاه الحكم المستنصر بالله يعلمه بقدومه وبمن قدم معه من العلويين فلما وصل كتابه الى الحكم أمر الناس بالخروج الى لقائهم وركب هو فى جمع عظيم من وجوه دولته ، فتلقاهم فكان يوم دخولهم قرطبة يوما مشهودا وذلك أول يوم من المحرم سنة أربع وستين وثلاثمائة وسلم الحسن بن كنون على الحكم فأقبل عليه وعفا عنه ووفى له بعهده وأوسع له ولرجاله فى العطاء وأجرى عليهم الجرايات الكثيرة وخلع عليهم الخلع الرفيعة ، وأثبت جميع أهله ورجاله فى ديوان العطاء وكانوا سبعمائة رجل أنجاد يعدون بسبعة آلاف وأسكنه قرطبة . وأقام الحسن وعشيرته فى كنف الحكم فى أمن وغبطة الى أن كان ما نذكره .

حدوث النفرة بين الحكم والحسن والسبب في ذلك

لما استقر الحسن بن كنون وعشيرته بقرطبة تحت كنف الحكم المستنصر بالله الاموى على ما وصفناه استمر الحال على ذلك الى سنة خمس وستين وثلاثمائة .

وكان للحسن قطعة عنبر غريبة الشكل كبيرة الحجم ظفر بها فى بعض سواحله من بلاد العدوة أيام ملكه بها فسواها منشورة يتوسدها ويرتفق بها فبلغ أمير المومنين الحكم خبرها فسأله حملها اليه وضمها الى ذخائره . على أن له حكمه مسمطا ، فامتنع الحسن من ذلك وأبى أن يسلمها اليه ، فنكبه عليها وسلبه جميع أمواله وسلبه القطعة أيضا ، فبقيت فى خزانة

الامويين الى أن غلب ابن حمود الادريسى على ملك الاندلس ، ودخل قرطبة واستقر بالقصر منها فألفى تلك العنبر لا زالت قائمة العين قد عقبتها الايام حتى صارت الى أيدى العلوية أربابها .

ولما نكب الحكم الحسن أمر باخراجه واخراج عشيرته من قرطبة واجلائهم الى المشرق ، فركبوا البحر من المرية الى تونس سنة خمس وستين وثلاثمائة ، وكان قصد الحكم بتغريبهم التخفف منهم والراحة من نفقاتهم مع ما كان قومه يعذلونه عليهم فسار الحسن بن كنون وعشيرته الى مصر فنزلوا بها على خليفة الشيعة وهو العزيز بالله نزار بن المعز العبيدى ـ وكان العبيديون قد ملكوا مصر يومئذ ونقلوا كرسى خلافتهم اليها ـ فأقبل العزيز نزار على الادارسة وبالغ فى اكرامهم ووعد الحسن النصر والاخذ بثاره ممن غلبه على ملك سلفه .

عود الحسن بن كنون الى المغرب

وما كان من أمره الى مقتله وانقراض دولته

لما استقر الحسن بن كنون بمصر عند العزيز نزار أقام عنده مدة طويلة الى أن دخلت سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة فى أيام هشام المؤيد بالله الاموى فكتب نزار للحسن بعهده على المغرب وأمر عامله على افريقية بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى أن يقويه بالجيوش فسار الحسن الى بلكين فأعطاه عسكرا يشتمل على ثلاثة آلاف فارس ، فاقتحم بهم بلاد المغرب فسارعت اليه قبائل البربر بالطاعة فشرع فى اظهار دعوته .

واتصل خبره بالمنصور بن أبى عامر ـ حاجب هشام المؤيد والقائم بملكه ـ فبعث اليه ابن عمه الوزير أبا الحكم عمرو بن عبد الله بن أبى عامر ـ المعروف بعسكلاجة ـ فى جيش كثيف وقلده أمر المغرب وسائر أعماله وأمره بقتال الحسن بن كنون فنفذ لوجهه وركب البحر الى سبتة

وخرج الى حرب الحسن فأحاط به وحاصره أياما ، ثم أجاز (١) المنصور بن أبى عامر ولده عبد الملك فى أثر الوزير أبى الحكم فى جيش كثيف ممدا له .

فلما رأى ذلك الحسن بن كنون سقط فى يده ، ولم يجد حيلة فطلب الامان على نفسه على أن يسير الى الاندلس كمثل حالته الاولى ، فأعطاه الوزير أبو الحكم من ذلك ما وثق به ، وكتب الى ابن عمه المنصور يخبره بذلك فأمر بتعجيله الى قرطبة موكلا به فبعث به اليه .

ولما انتهى الخبر الى المنصور بقدوم الحسن لم يمض أمان ابن عمه ، وأنفذ اليه من قتله فى طريقه وأتاه برأسه ، ودفن شلوه بمكان مقتله ، وذلك فى جمادى الاولى سنة خمس وسبعين وثلاثمائة . وركدت ريح العلوية بالمغرب ، وتفرق جمعهم ، وانقرضت دولتهم ، وتفرقت الادارسة فى قبائل المغرب ولاذوا بالاختفاء الى أن خلعوا شارة ذلك النسب الشريف واستحالت صبغتهم منه الى البداوة .

واستمر الحال الى أن اشرفت دولة بنى أمية بالاندلس على الانقراض وكان بالاندلس رجلان من آل ادريس دخلوها فى جملة البربر الذين كانوا هناك ، وهم على والقاسم ابنا حمود بن ميمون بن أحمد بن على بن عبيدالله بن عمر بن ادريس فطار لهما ذكر فى الشجاعة والاقدام ، ثم ترقت بهم الاحوال الى أن ورثوا خلافة الاندلس من يد الامويين بها فى خبر طويل .

ولما قتل الحسن بن كنون هبت ريح عاصف احتملت رداءه فلم يوجد بعد . قالوا : وكان الحسن هذا فظا غليظا قاسى القلب ، كان اذا ظفر بعدو أو سارق أو قاطع طريق أمر به فطرح من ذروة قلعته المسماة بحجر النسر

---

(١) قد فند المؤرخ ضوزى هذا القول فى تاريخ مسلمى اصبانيا (جزء ثالث صفحة ٢٠٠) وقال : ان عبد الملك لم يكن له من العمر اذ ذاك الا اثنتا عشرة سنة ولم يجز المنصور ابنه المذكور الى المغرب الا بعد ان حصل النفور بينه وبين زيرى بن عطية سنة ٣٨٧ ــ أى بعد هذا الحادث بنحو ١٤ سنة ــ اهـ

فيهوى منها الى الارض مد البصر : يدفع الرجل بخشبة تمد اليه فلا يصل الى الارض الا وقد تقطع .

قال ابن أبى زرع : كانت مدة ملك الادارسة بالمغرب ـ من يوم بويع ادريس بن عبد الله وذلك يوم الخميس السابع من ربيع الاول سنة اثنتين وسبعين ومائة الى أن قتل الحسن بن كنون وذلك فى جمادى الاولى سنة خمس وسبعين وثلاثمائة ـ مائتى سنة وثلاث سنين سوى شهرين تقريبا . وكان عملهم بالمغرب من السوس الاقصى الى مدينة وهران . وقاعدة ملكهم مدينة فاس ثم البصرة . وكانوا يكابدون دولتين عظيمتين : دولة العبيديين بافريقية ودولة بنى أمية بالاندلس . وكانوا يزاحمون الخلفاء الى ذروة الخلافة ويقعد بهم عنها ضعف سلطانهم وقلة مالهم ، فكان سلطانهم اذا امتد وقوى ينتهى الى مدينة تلمسان ، واذا اضطرب الحال عليهم وضعفوا لا يجاوز سلطانهم البصرة واصيلا وحجر النسر الى ان انقضت أيامهم وانقرضت مدتهم والبقاء لله وحده .

وكان فى هذه المدة من الاحداث أنه فى سنة خمس وخمسين وثلاثمائة كانت ريح شديدة قلعت الاشجار وهدمت الديار وقتلت الرجال .

وفى ليلة الثلاثاء الثامن عشر من رجب منها ظهر فى البحر شهاب ثاقب ماثل كالعمود العظيم أضاء الليل لسطوع نوره ، وأشبهت تلك الليلة ليلة القدر وقارب ضوءها ضوء النهار .

وفى هذا الشهر أيضا كسف النيران فخسف القمر ليلة أربع عشرة منه وطلعت الشمس كاسفة فى اليوم الثامن والعشرين منه .

وفى سنة احدى وستين وثلاثمائة كان الجراد بالمغرب

وفى سنة اثنتين وستين بعدها دخل مغراوة المغرب وملكوه وتعرف هذه السنة بسنة لقمان المغراوى . وفيها توفى الشيخ الفقيه الصالح الفاضل أبو ميمونة دراس بن اسمعيل وهو أول من أدخل مدونة سحنون مدينة فاس وذكر الرشاطى أن وفاته كانت سنة سبع وخمسين وثلاثمائة ولعله أصح .

وفى سنة سبع وسبعين وثلاثمائة عم الجراد بلاد المغرب كلها .

وفى سنة ثمان وسبعين بعدها كان الفيض الذى فاضت منه جميع أودية المغرب .

وفى سنة تسع وسبعين بعدها كانت الريح الشرقية بالمغرب ودامت ستة أشهر فأعقبت وباء عظيما وأمراضا كثيرة .

وفى سنة ثمانين وثلاثمائة تدارك الله عباده وكان الرخاء المفرط بالمغرب فكان الزرع لا يوجد من يشتريه لكثرته وكان الفلاحون وأصحاب الحرث يتركونه قائما فى محاقلهم لا يحصدونه لرخصه .

الخبر عن دولة زناتة من مغراوة وبنى يفرن بفاس والمغرب

ينبغى أن نقدم هنا كلاما يكون كالتوطئة لاخبار هذه الدولة المغراوية فنقول : ان هذه الدولة لم يكن لها استقلال بالمغرب وفاس ، وانما كانت رياستها تحت نظر الامويين بالاندلس ، ثم ان مغراوة وبنى يفرن قبيلتان من أعيان قبائل زناتة ، وكان مغراو ويفرن أخوين شقيقين ؛ وهما ابنا يصليتن بن مسرى بن زاكيا بن ورسيك بن الدبديت ابن زانا وهو أبو زناتة .

وقد تقدم لنا فى أخبار الفتح أن الصحابة رضى الله عنهم أسروا صولات بن وزمار كبير مغراوة لذلك العهد ، وبعثوا به الى عثمان بن عفان رضى الله عنه فأسلم على يده وولاه على قومه ، وقيل ان صولات هاجر الى عثمان رضى الله عنه طائعا من غير أسر فأكرمه وولاه فكان بيت صولات بسبب هذه المزية نبيها فى قومه مغراوة وسائر زناتة .

ولما مات صولات ورث رياسته من بعده ابنه حفص بن صولات ثم من بعده خزر بن حفص بن صولات ثم ابنه محمد بن خزر وهو الذى غزاه ادريس بن عبد الله بمدينة تلمسان وانقاد له وأجاب دعوته ودخل ادريس

معه تلمسان وأصلح شأنها وبنى مسجدها حسبما تقدم الخبر عن ذلك مستوفى ثم لم تزل ذرية محمد بن خزر هذا تتوارث رياسة سلفهم من بعدهم الى أن كان منهم فى صدر المائة الرابعة أربعة اخوة وهم : محمد بن خزر وعبد الله بن خزر ومعبد بن خزر وفلفل بن خزر ، وكلهم رئيس شريف فى قومه ولهم أخبار مع خلفاء الشيعة بافريقية والمروانيين بالاندلس يطول ذكرها مع أنها ليست من موضوعنا .

ولما كانت سنة تسع وستين وثلاثمائة زحف بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى صاحب افريقية بعد العبيديين الى المغرب الاقصى ، وأناخ على مدينتى فاس وقتل عامليها محمد بن أبى على بن قشوش صاحب عدوة القرويين وعبد الكريم بن ثعلبة صاحب عدوة الاندلس واستعمل عليها محمد ابن عامر المكناسى ، وأجفلت ملوك زناتة من بنى خزر المغراويين وبنى محمد بن صالح اليفرنيين أمامه وانحازوا جميعا الى سبتة .

وعبر محمد بن الخير من آل خزر البحر الى المنصور بن أبى عامر صريخا فخرج المنصور فى عساكره الى الجزيرة الخضراء ممدا لهم بنفسه ، وعقد لجعفر بن على بن حمدون على حرب بلكين الصنهاجى وأجازه البحر وأمده بمائة حمل من المال فاجتمعت اليه ملوك زناتة وضربوا مصافهم بساحة سبتة وجاء بلكين الصنهاجى حتى صعد جبال تطوان (١) وتنسم هضابها وأطل على عساكر زناتة وأهل الاندلس بساحة سبتة فرأى ما لاقبل له به ويقال انه لما عاين ذلك قال : «هذه أفعى فغرت الينا فاها» وكر راجعا على عقبه فاجتاز على مدينة البصرة وكان بها حامية أهل الاندلس وبها يومئذ عمارة عظيمة فهدمها ثم صمد الى برغواطة ببلاد تامسنا فجاهدهم وقتل ملكهم عيسى بن أبى الانصار(٢)، واستولى على المغرب أجمع ومحى دعوة بنى

---

(١) تطوان يعنى القديمة .

(٢) راجع ما قاله ابن خلدون عند الكلام على غزو بلكين للمغرب فقد بسط القول أكثر مما هو عند المؤلف صفحة ٢٠٠ من الجزء الاول من قسم تاريخ المغرب المطبوع بالجزائر .

أمية من نواحيه .

ثم لما كانت سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة وقدم الحسن بن كنون الادريسى من مصر الى المغرب يطلب ملك سلفه انضم اليه يدو بن يعلى بن محمد بن صالح اليفرنى فى قومه وشايعه على مراده وسرح المنصور بن أبى عامر صاحب الاندلس اليه ابن عمه أبا الحكم الملقب بعسكلاجة وانضم اليه آل خزر المغراويون وهم : محمد بن الخير الاصغر وخزرون بن فلفل بن خزر ومقاتل وزيرى ابنا عطية بن عبد الله بن خزر ، وانضم اليهم سائر مغراوة وظاهروا أبا الحكم عسكلاجة على شأنه فى حصار الحسن ابن كنون حتى طلب الامان لنفسه حسبما استوفينا خبره آنفا . ثم تقدم عسكلاجة الى فاس فدخلها واستولى على عدوة الاندلس سنة خمس وسبعين وثلاثمائة وخطب بها لبنى أمية وبقى محمد بن عامر المكناسى عامل الشيعة بعدوة القرويين الى سنة ست وسبعين وثلاثمائة فاتى أبو بياش فدخل عدوة القرويين بالسيف وقبض على محمد بن عامر المكناسى فقتله وخطب بها لبنى أمية أيضا . هكذا فى القرطاس .

وقال ابن خلدون : ان المنصور بن أبى عامر عقد على المغرب بعد انصراف عسكلاجة عنه للوزير حسن بن أحمد بن عبد الودود السلمى وأطلق يده فى الاموال والرجال ، وأرسله اليه سنة ست وسبعين وثلاثمائة وأوصاه بالاحسان الى مغراوة ولاسيما مقاتل وزيرى ابنا عطية لحسن انحياشهم الى المروانيين وصدق طاعتهم لهم . وأغراه بيدو بن يعلى اليفرنى لتمريضه فى الطاعة وقيامه مع الحسن بن كنون ، فنفذ الوزير حسن بن أحمد ابن عبد الودود لعمله ونزل بفاس وضبط المغرب أحسن ضبط واجتمعت عليه مغراوة .

ثم هلك مقاتل بن عطية سنة ثمان وسبعين وورث رياسته على بادية قومه أخوه زيرى بن عطية وحسنت صحبته للوزير حسن بن أحمد بن عبد الودود ومعاملته له .

ثم ان المنصور بن أبى عامر استدعى زيرى بن عطية للوفادة عليه بقرطبة

فوفد عليه وأحسن المنصور اليه ورفع منزلته ثم عاد الى المغرب وأمره بقتال يدو بن يعلى اليفرنى فاجتمع عليه هو والوزير ابن عبد الودود فقاتلوه فانتصر عليهم يدو بن يعلى وقتل الوزير ابن عبد الودود .

ثم عقد المنصور بن أبى عامر لزيرى بن عطية من بعده على المغرب وفاس ، وكان ذلك سنة احدى وثمانين وثلاثمائة . هذا ملخص ما عند ابن خلدون فى هذا الخبر ، ثم حكى بعده ما يخالفه مما نذكره مبسوطا عن قريب وتوقف فى أيهما الصواب والله أعلم .

الخبر عن دولة زيرى بن عطية المغراوى بفاس والمغرب

هو زيرى بن عطية بن عبد الله بن خزر المغراوى وعبد الله المذكور هو أحد الاخوة الاربعة من بنى خزر . قال فى القرطاس : ملك على زناتة سنة ثمان وستين وثلاثمائة ، فقام فى المغرب بدعوة هشام المؤيد بالله وحاجبه المنصور بن أبى عامر ، وذلك بعد انقراض دولة الادارسة منه وبنى أبى العافية المكناسيين فغلب زيرى أولا على جميع بوادى المغرب ثم ملك مدينتى فاس بعد عسكلاجة وأبى بياش : دخلها سنة سبع وسبعين وثلاثمائة فاستوطنها وصيرها دار ملكه واستقام له أمر المغرب فعلا قدره وقوى سلطانه وارتفع شأنه وهو فى ذلك متمسك بدعوة بنى مروان أصحاب الاندلس . والله غالب على أمره .

حديث أبى البهار الصنهاجى مع المنصور ابن أبى عامر وما نشأ عن ذلك

كان أبو البهار بن زيرى بن مناد الصنهاجى قد خالف على ابن أخيه منصور بن بلكين ابن زيرى بن مناد الصنهاجى أمير افريقية وظهور الدولة العبيدية وخلع دعوة الشيعة ومال الى دعوة المروانيين وغلب على المهدية وتونس وشلشال (١) وتلمسان ووهران وشلف وكثير من بلاد الزاب ، وخطب للمؤيد وحاجبه المنصور بن أبى عامر وبعث ببيعته اليهم وذلك فى سنة سبع وسبعين وثلاثمائة فلما وصلت بيعته الى المنصور بن أبى عامر بعث اليه بعهده على ما بيده من البلاد وبهدية وخلع وبأربعين ألف دينار ، فلما قبض أبو البهار المال والهدية أقام على بيعتهم نحو الشهرين ثم خلعهم وعاد الى العبيديين فبلغ ذلك المنصور فغاظه وكتب الى زيرى بن عطية بعهده على بلاد أبى البهار وأمره بقتاله عليها ، فسار اليه زيرى بن عطية من فاس فى جيوش لا تحصى من قبائل زناتة وغيرهم ففر أبو البهار أمامه ولحق بابن أخيه منصور بن بلكين من قبائل زناتة وغيرهم ففر أبو البهار أمامه ولحق بابن أخيه منصو بن بلكين وترك له البلاد فملك زيرى بن عطية تلمسان وسائر أعمال أبى البهار فانبسط سلطانه بالمغرب من السوس الاقصى الى الزاب ، وكتب بالفتح الى المنصور بن أبى عامر وبعث له بهدية عظيمة فيها مائتا فرس من عتاق الخيل وخمسون جملا مهريا سابقة وألف درقة من جلود اللمط وأحمال كثيرة من قسى الزان ، وقطوط الغالية والزرافة وأصناف الوحوش الصحراوية كاللمط وغيره وألف حمل من التمر الجيد فى جنسه ، وأحمال كثيرة من ثياب الصوف الرقيقة فسر بها المنصور وكافأه عليها ، وكتب له بتجديد عهده على المغرب وذلك سنة احدى وثمانين وثلاثمائة . وأقام زيرى بن عطية بفاس وأسكن قبيله بأنحائها وبالقرب منها فى قياطينهم ودفع بنى يفرن عن فاس وأحوازها الى نواحى سلا فاستولوا عليها كما سياتى .

---

(١) الذى فى البكرى انها شرشال بالراء عوضا عن اللام .

وفادة زيرى بن عطية على المنصور ابن أبى عامر بالاندلس

لما كانت سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة استدعى المنصور بن أبى عامر زيرى بن عطية أن يقدم عليه بقرطبة فاستخلف على المغرب ولده المعز بن زيرى وأمره بسكنى تلمسان ، واستخلف على عدوة الاندلس من فاس عبد الرحمن بن عبد الكريم بن ثعلبة ، وعلى عدوة القرويين منها على بن محمد بن أبى على بن قشوش ، وولى قضاء المدينتين الفقيه الفاضل أبا محمد قاسم بن عامر الازدى . وسار الى الاندلس وقدم بين يديه هدية عظيمة ، من جملتها طائر فصيح يتكلم بالعربية والبربرية ، ودابة من دواب المسك ، ومهاة وحشية تشبه الفرس ، وحيوانات غريبة ، وأسدان عظيمان فى قفصين من حديد ، وشىء كثير من التمر فى غاية الكبر الواحدة منه تشبه الخيارة عظما ، وحمل معه من قومه وعبيده ثلاثمائة فارس وثلاثمائة راجل ، فاحتفل المنصور لقدومه احتفالا عظيما ، وبرز الخاصة والعامة للقائه ، وأنزله بقصر جعفر الحاجب وتوسع له فى الجرايات والاكرام ولقبه باسم الوزير وأفاض عليه أموالا جسيمة وخلعا نفيسة ، وعجل بسراحه الى عمله بعد أن جدد له عهده على المغرب وعلى جميع ما غلب عليه منه . فعبر البحر واحتل بمدينة طنجة ، فلما استقر بها وضع يده على رأسه وقال : « الآن علمت أنك لى » فاستقل ما وصله به المنصور واستقبح اسم الوزارة الذى سماه به . ولقد خاطبه به بعض رجاله فنهاه عن ذلك ، وقال : « وزير من يالكع ! لا والله الا أمير بن أمير ! واعجبا لابن أبى عامر ومخرقته ؟ لان تسمع بالمعيدى خير من أن تراه ! والله لو كان بالاندلس رجل ما تركه على حاله ، وان له منا ليوما » وبلغت مقالته المنصور فصر عليها أذنه ، وزاد فى اصطناعه الى أن كان ما نذكره

٢١٢

استيلاء يدو بن يعلى اليفرنى على فاس ومقتله

تقدم انا أن بنى يفرن من أعيان قبائل زناتة ، وكان يدو بن يعلى بن محمد ابن صالح اليفرنى قد قام بأمر بنى يفرن بعد مقتل أبيه يعلى بن محمد حين قتله جوهر الكاتب قائد الشيعة سنة سبع وأربعين وثلاثمائة فملك يدو كثيرا من بوادى المغرب واتصلت رياسته الى هذا التاريخ

وتقدم انا أن مغراوة دفعوا بنى يفرن الى سلا وأحوازها فاستولوا عليها وكان الامير يدو بن يعلى مضاهيا لزيرى بن عطية فى الحسب والفضل والمال

ولما استدعى المنصور بن أبى عامر زيرى بن عطية للوفادة المتقدمة أراد أن يفعل بيدو بن يعلى مثل ذلك ، وكان قصده أن يمكر بـه لانـه كـان لا يطمئن اليه اطمئنان زيرى ابن عطية ، فأساء يدو بن يعلى اجابـة المنصور ، وقال : « متى عهد المنصور حمر الوحش تنقـاد للبياطـرة ! » فاقصر عنـه المنصـور .

وكانت بين زيرى ويدو بن يعلى منافسات ومنازعات على الرياسة بالمغـرب ، فكان يدو بن يعلى اذا غلب على زيرى دخل مدينة فاس واستولى عليها . واذا غلب عليه زيرى أخرجه عنها وملكها وكانت الحرب بينهما سجالا ، وسئمت الرعية بفاس كثرة تعاقبهم عليها .

ثم لما سافر زيرى بن عطية الى الاندلس انتهز يدو بن على الفرصـة فى غيبته فزحف الى فاس ودخل منها عدوة الاندلس بالسيف فى ذى القعدة سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة وقتل بها خلقا كثيرا مـن مغراوة ، فلما نـزل زيرى بن عطية بطنجة اتصل به خبر يدو بن يعـلى واستيلاؤه عـلى فاس ، فأسرع السير نحوه حتى نزل قريبا من فاس فكانت بينهما حرب شديـدة هلك فيها خلق كثير من القبيلتين : مغراوة وبنى يفرن الى أن هزمه زيرى واقتحم عليه فاسا عنوة فقتله ومثل به وبعث برأسه الى المنصور بن أبى عامر بقرطبة وذلك سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة .

بناء مدينة وجدة

لما قتل زيرى بن عطية يدو بن يعلى صفا له أمر المغرب ولم يبق له به منازع ، وهابته الملوك وبقى الامر مستقيما بينه وبين المنصور فى الظاهر فسمت همته الى بناء مدينة تكون خاصة به وبقومه وأرباب دولته ، فبنى مدينة وجدة (١) وشيد أسوارها وأحكم قصبتها وركب أبوابها وسكنها بأهله وحشمه ، ونقل اليها أمواله وذخائره وجعلها قاعدة ملكه لكونها واسطة البلاد وثغرا للعمالتين : المغرب الاقصى والاوسط . وكان اختطاطه اياها فى شهر رجب سنة أربع وثمانين وثلاثمائة . ولم يزل زيرى بن عطية فى علو سلطان وارتفاع شأن الى سنة ست وثمانين وثلاثمائة ثم حدث ما نذكره .

حدوث النفرة بين زيرى بن عطية والمنصور بن أبى عامر وما نشأ عن ذلك

ثم فسد ما بين المنصور وبين زيرى بن عطية ، واتصل بالمنصور أن زيرى ينتقصه ويعرض فى شأنه وحجره على المؤيد ، ويتكلم فيه بالقبيح ، فقطع المنصور عنه رزق الوزارة الذى كان يجريه عليه فى كل سنة ، ومحى اسمه من ديوانه ، ونادى بالبراءة منه فعزم زيرى على خلافه ، فقطع ذكره من الخطبة ، واقتصر على ذكر هشام المؤيد ، وطرد عماله من المغرب وألجأهم الى سبتة فأنفذ اليه المنصور بن أبى عامر مولاه واضحا الفتى فى جيش

---

(١) فى البكرى أن وجدة مدينتان مسورتان احدث احداهما يعلى بن بلكين الورتغنينى بعد أربعين واربعمائة (انظر بقية كلامه فى صفحة ٨٧ طبع الجزائر

عظيم وأمده بالحماة من سائر الطبقات وأزاح عللهم وأفاض عليهم الاموال المنفقات وأنواع السلاح والكسى ، فعبر واضح البحر واستقر بمدينة طنجة فانضم اليه بعض قبائل البربر من غمارة وصنهاجة وغيرهم . وبايعوه على قتال زيرى بن عطية ومن معه من قبائل زناتة فأفاض عليهم الخلع والاموال .

ثم أمد المنصور بمن كان معه بالاندلس من ملوك البربر النازعين عن زيرى بن عطية اليه فتكاملت جيوشه وخرج بهم واضح من طنجة يؤم فاسا ، فاتصل خبره بزيرى بن عطية فخرج اليه من فاس فى عساكر زناتة فالتقى الجمعان بوادى زادات (١) فكانت بينهما حروب بعد العهد بمثلها مدة من ثلاثة أشهر الى أن انهزم واضح وقتل أكثر جيشه وفر واضح الى طنجة فدخلها منهزما وكتب الى المنصور يطلب منه المدد .

وقال ابن خلدون : ان واضحا حين برز من طنجة وزحف اليه زيرى بن عطية توافقا ثلاثة أشهر ثم تناول واضح آصيلا ونكور فضبطهما ، واتصلت الوقائع بينه وبين زيرى ثم بيت واضح معسكر زيرى بنواحى آصيلا وهم غارون فأوقع بهم .

وخرج المنصور من قرطبة فوصل الى الجزيرة الخضراء ثم أجاز ابنه عبد الملك المظفر بجميع عسكر الاندلس وقوادها حتى بقى المنصور وحده وأمره بحرب زيرى بن عطية فركب المظفر البحر من الجزيرة الخضراء الى سبتة .

واتصل خبر المظفر بزيرى بن عطية فخافه وأخذ فى الاستعداد لملاقاته ، وكتب الى جميع قبائل زناتة يستصرخهم فأتته الوفود من بلاد ملوية وتلمسان والزاب وسائر بوادى زناتة ، فنهض بهم الى قتال عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبى عامر وبرز عبد الملك من طنجة ومعه واضح الفتى

(١) فى النسخة الصحيحة من ابن خلدون وادى ردات وكذلك فى مسالك البكرى .

فى جيوش لا تحصى ، والتقى الجمعان بوادى منى من أحواز طنجة فكانت بينهم حرب أعظم من الاولى ودام القتال بينهم يوما الى الليل .

وكان فى عسكر زيرى بن عطية غلام أسود اسمه سلام ، كان زيرى قد قتل أخاه فوجد الفرصة اليه فانتهزها وضربه بسكين فى نحره ثلاث ضربات فأشواه ـ أى لم يصب مقتله ـ ومر الاسود يشتد نحو المظفر وبشره بقتل زيرى فاستكذبه ، ثم سقط اليه الخبر الصحيح بأن زيرى قد أثبت ، فشد عليهم عبد الملك ـ وهم فى حال دهشة من جرح أميرهم ـ فهزمهم واستمرت الهزيمة على زيرى وأصحابه وأثخن فيهم عبد الملك بالقتل وملك محلة زيرى بأسرها واحتوى على جميع ما فيها من المال والسلاح والكراع والابل والعدة فاستولى من ذلك على مالا يأخذه الحصر .

ومضى زيرى على وجهه حتى انتهى الى موضع يعرف بمضيق الحية بالقرب من مكناسة فعسكر به ، واجتمع اليه الفل من قومه وعزم على الرجوع لمناجزة المظفر فاتصل الخبر بالمظفر فانتخب من عسكره خمسة آلاف فارس وقدم عليهم واضحا الفتى ونهضوا الى زيرى بن عطية فضربوا فى محلته ليلا بمضيق الحية وهم آمنون ، فأوقعوا بهم وقعة عظيمة أسر فيها من أشراف مغراوة نحو ألفى رجل ، وذلك فى منتصف رمضان سنة سبع وثمانين وثلاثمائة فامتن عليهم عبد الملك المظفر وأركبهم معه فكانوا من جنده ، وفر زيرى بن عطية فى شرذمة من أصحابه وبنى عمه فانتهى الى فاس فأغلق أهلها الابواب دونه فسألهم أن يخرجوا اليه عياله وأولاده فأخرجوهم اليه . وأعطوه مع ذلك الزاد والدواب فأخذهم وانصرف الى الصحراء فنزل بلاد صنهاجة . وكان ما نذكره ان شاء الله تعالى .

قدوم عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبى عامر مدينة فاس وما كان من شأنه بها

لما انهزم زيرى بن عطية من مضيق الحية الى الصحراء نهض عبد الملك المظفر من معسكره يؤم فاسا ، فدخلها يوم السبت منسلخ شوال سنة سبع وثمانين وثلاثمائة فاستقبله أهلها مستبشرين به فأحسن لقاءهم وكتب الى أبيه المنصور بالفتح فقرىء الكتاب على منبر جامع الزهراء من قرطبة وعلى منابر مساجد الاندلس كلها شرقا وغربا وأعتق المنصور ألفا وخمسمائة مملوك وثلاثمائة مملوكة شكرا لله تعالى وفرق أموالا كثيرة على الفقراء وذوى الحاجات ، وكتب الى ولده المظفر بعهده على المغرب وأوصاه بحسن السيرة والعدل ، فقرىء كتابه على منبر مسجد القرويين وذلك يوم الجمعة آخر ذى القعدة من السنة المذكورة .

وانصرف واضح الى الاندلس واستوطن عبد الملك مدينة فاس وعدل فيها عدلا لم يعهدوه من أحد قبله وأقام بها ستة أشهر ثم صرفه والده عنها الى الاندلس وبعث اليها عوضا عنه عيسى بن سعيد صاحب الشرطة ، فأقام واليا عليها الى صفر سنة تسع وثمانين وثلاثمائة فعزله المنصور عنها وعما كان ولاه من بلاد العدوة ، وولى عليها واضحا الفتى وانصرف عيسى بن سعيد الى الاندلس من السنة المذكورة .

بقية أخبار زيرى بن عطية

لما نزل زيرى بن عطية ببلاد صنهاجة وجدهم قد اختلفوا على ملكهم باديس بن منصور بن بلكين بن زيرى بن مناد صاحب افريقية فأرسل زيرى بن عطية فى قبائل زناتة حاشرين ، فأتى منهم خلق كثير من مغراوة وغيرهم

فاغتنم زيرى تلك الفرصة من صنهاجة فزحف اليهم وأوغل فى بلادهم وهزم جيوشهم ودخل مدينة تاهرت وجملة من بلاد الزاب وملك مع ذلك تلمسان وشلف والمسيلة وأقام بها الدعوة للمؤيد ، وحاصر مدينة آشير قاعدة بلاد صنهاجة وكتب الى المنصور بن أبى عامر بذلك يسترضيه ويشترط على نفسه الرهن والاستقامة ان أعيد الى ولايته . وبينما هو محاصر لآشير يباكرها ويراوحها بالقتال انتقضت عليه جراحاته التى كان جرحه الاسود فمات منها سنة احدى وتسعين وثلاثمائة

الخبر عن دولة المعز بن زيرى بن عطية المغراوى

لما هلك زيرى بن عطية اجتمع آل خزر وكافة مغراوة من بعده على ابنه المعز بن زيرى فبايعوه وضبط أمرهم وأقصر عن محاربة صنهاجة ، وصالح المنصور بن أبى عامر وقام بدعوته ورجع الى طاعته ، ولم يزل على ذلك الى أن توفى المنصور وولى ابنه بعده عبد الملك المظفر فبايعه المعز أيضا ودعا له على منابره ، فعزل المظفر واضحا الفتى عن فاس وسائر بلاد المغرب وصرفه الى الاندلس وكتب الى المعز بن زيرى بعهده على فاس وسائر أعمال المغرب حواضره وبواديه وذلك سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة وشرط له المعز أن يؤدى اليه فى كل سنة مالا معلوما وخيلا ودرقا يوصل ذلك الى قرطبة وأعطاه مع ذلك ولده معنصر بن المعز رهنا ، وكانت نسخة كتاب العهد :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله

من الحاجب المظفر سيف الدولة ، دولة الامام الخليفة هشام المؤيد بالله أمير المومنين أطال الله بقاءه عبد الملك بن المنصور بن أبى عامر الى كافة أهل مدينتى فاس وكافة أهل المغرب سلمهم الله . أما بعد : أصلح الله شأنكم ، وسلم أنفسكم وأديانكم ، فالحمد لله علام الغيوب ، وغفار الذنوب

ومقلب القلـــوب ، ذى البطش الشديد ، المبدىء المعيد ، الفعال لما يريد لا راد لامره ، ولا معقب لحكمه ، بل له الملك والامر ، وبيده الخير والشر اياه نعبد واياه نستعين ، واذا قضى أمرا فانما يقول له كن ، فيكون ، وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين ، وعـــلى آله الطيبين ، وجميـع الانبياء والمرسلين ، والسلام عليكم أجمعين ، وان المعز بن زيرى بن عطية أكرمه الله تابع رسله لدينا وكتبه، متنصلا من هنات دفعته اليها ضرورات ، ومستغفرا من سيئات حطتها من توبته حسنات ، والتوبة ممحـــاة الذنب ، والاستغفار منقذ من العتب ، واذا أذن الله بشىء يسره ، وعسى أن تكرهـوا شيئا ولكم فيه خيره ، وقد وعد من نفسه استشعار الطاعـة ، ولزوم الجـــادة واعتقاد الاستقامة ، وحسن المعونة وخفة المؤنة ، فولينا ما قبلكم ، وعهدنا اليه أن يعمل بالعدل فيكم ، وأن يرفع أعمال الجور عنكــم ، وأن يعمر سبلكم ، وأن يقبل من محسنكم ، ويتجاوز عن مسيئكم ، الا فـــى حدود الله تبارك وتعالى ، وأشهدنا الله عليه بذلك ، وكفى بالله شهيدا ، وقـد وجهنا الوزير أبا على (١) بن حذيم أكرمه الله وهو من ثقاتنا ، ووجـوه رجالنا ، ليأخذ بشأنه ، ويؤكد العهد فيه عليه بذلك وأمرناه باشراككم فيه ، ونحن بأمركم معتنون ، ولاحوالكم مطلعون ، وأن يقضى عـلى الاعلى للادنى ، ولا يرضى فيكم بشىء من الادنى (٢) ، فثقوا بذلـك واسكنوا اليه ، وليمض القاضى أبو عبد الله أحكامه مشدودا ظهره بنا ، معقودا سلطانه بسلطاننا ، ولا تأخذه فى الله لومة لائم ، فذلك ظننا به اذ وليناه ، وأملنـا فيه اذ قلدناه ، والله المستعان ، وعليه التكلان ، لااله الا هـو ، ولتبلغوا منا سلاما طيبا جزيلا . ورحمة الله وبركاته .» (٣)

---

(١) الذى فى ابن خلدون انه أبو محمد على بن جذلم .

(٢) فى ابن خلدون « الاذمى » .

(٣) زاد ابن خلدون : « كتب فى ذى القعد من سنة ست وتسعين وثلاثمائة»

ولما وصل الى المعز بن زيرى العهد بولايته على المغرب ، ما عدا كورة سجلماسة فانها كانت لبنى خزرون بن فلفل ضم نشره وثاب اليه نشاطه وبث عماله فى جميع كور المغرب وجبا خراجها ، ولم تزل ولايته متسقة وطاعة رعاياه منتظمة الى أن افترق أمر الجماعة بالاندلس واختل رسم الخلافة بها فاضطرب أمر المغرب على المعز ، وأقام على ذلك الى أن هلك سنة سبع عشرة وأربعمائة كذا عند ابن خلدون .

وفى القرطاس : «لم تزل بلاد المغرب أيام المعز فى غاية الهدنة والعافية والرخاء والامن الى أن توفى فى جمادى الاولى سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة» والله أعلم .

وأما ابنه معنصر فانه أقام بقرطبة الى أن قامت الفتنة بالاندلس وانقرضت الدولة العامرية فانصرف معنصر الى أبيه وعشيرته بفاس .

وحكى فى القرطاس : أنه لما كانت سنة تسع وتسعين وثلاثمائة وتوفى عبد الملك المظفر وولى بعده أخوه عبد الرحمن بن المنصور بن أبى عامر بعث اليه المعز بن زيرى بهدية نفيسة فيها خمسون فرسا ، وكان ولده معنصر مرتهنا عنده بقرطبة كما قلنا ، فأحضر الحاجب عبد الرحمن معنصر ابن المعز حين وصلت اليه هدية أبيه فخلع عليه وعلى الرسل الذين قدموا عليه بالهدية وبعث به الى أبيه مكرما ، فجمع المعز كل فرس كان عنده وبعث به الى قرطبة ، وكان مبلغ عدد الخيل تسعمائة فرس ولم تصل من المغرب الى الاندلس هدية أعظم منها .

الخبر عن دولة حمامة بن المعز بن عطية المغراوى

لما توفى المعز بن زيرى بن عطية ولى بعده ابن عمه حمامة بن المعز ابن عطية ، وليس بابن له كما زعم بعض المؤرخين وانما هو ابن عمه ، وقع الاتفاق فى بعض الاسماء فنشأ الغلط ، واستولى حمامة على عمل فاس والمغرب واستفحل ملكه وقصده الامراء والعلماء وأتته الوفود ومدحه الشعراء .

وكانت الدولة بالاندلس قد تداعت الى الاختلال ، فكان ذلك من أسباب استفحال الدولة المغراوية بفاس والمغرب واستقلالها بالامر ، فكان لحمامة من الظهور ما ذكرناه الى أن أصابته عين الكمال بمنازعة أبى الكمال على ما نذكره .

الخبر عن دولة أبى الكمال تميم بن زيرى اليفرنى واستيلائه على فاس واعمالها



قد تقدم لنا أن بنى يفرن كانوا قد تحيزوا الى نواحى سلا فاستولوا عليها وعلى مدينة شالة ثم ملكوا تادلا وما والاها من البلاد .

ثم لما كانت سنة أربع وعشرين وأربعمائة كان الامير على بنى يفرن أبا الكمال تميم بن زيرى بن يعلى بن محمد بن صالح اليفرنى ، فزحف من سلا الى فاس فى قبائل بنى يفرن ومن انضاف اليهم من زناتة ، وبرز اليه حمامة فى جموع مغراوة ومن اليهم ، فكانت بينهم حرب شديدة أجلت عن هزيمة حمامة ، ومات من مغراوة أمم ، واستولى تميم على فاس وأعمال المغرب ، ودخلها فى جمادى الاخرة من السنة المذكورة ، واستباح يهود فاس فقتل منهم أكثر من ستة آلاف يهودى ، وسبى حرمهم واصطلم نعمتهم

بالمرة ، ولحق حمامة بوجدة فاستمد من كان هنالك من قبائل مغراوة وزناتة وانجاد قبائل ملوية وانتهى الى تنس (١) فاستنفر من هنالك من زناتة، وبعث الحاشدين فى قياطينهم الى جميع بلاد المغرب الاوسط ، وكاتب من بعد عنه من رجالاتهم فاجتمع له من ذلك جم غفير ، ثم زحف الى فاس سنة تسع وعشرين وأربعمائة فأفرج عنها أبو الكمال ، ولحق ببلده ومقر ملكه من شالة ، وأقام بها الى أن هلك سنة ست وأربعين وأربعمائة ، وكانت مدة استيلائه على فاس وأعمالها خمس سنين وقيل سبع سنين .

وكان أبو الكمال اليفرنى يغلب عليه الجفاء والجهل ومع ذلك فقد كان صلبا فى دينه مستقيما فيه مولعا بجهاد برغواطة ، كان يغزوهم مرتين فى السنة الى أن توفى . ولما كانت سنة اثنتين وستين وأربعمائة وقتل ابنه فى حرب لمتونة جاءوا به ليدفنوه الى جانب قبر أبيه أبى الكمال فسمعوا من قبره تكبيرا وتشهدا كثيرا ، فنبشوا قبره فألفوه لم يتغير منه شىء ، ثم رآه بعض قرابته فى النوم ، فقال له : «ما هذا التكبير والتشهد الذى سمعناه من قبرك ؟» قال : «تلك الملائكة وكلهم الله بقبرى يكبرون ويهللون ويسبحون ويكون ثواب ذلك لى الى يوم القيامة» قال : «وبم نلت ذلك ؟» قال : «بجهادى برغواطة» حكى هذا الخبر فى القرطاس . والله على كل شىء قدير . وأقام حمامة فى سلطان فاس والمغرب الى أن توفى سنة احدى وثلاثين وأربعمائة وقيل غير ذلك .

---

(١) تنس اسسها البحريون من أهل الاندلس سنة ٢٦٢ وخربها الماء سنة نيف وعشرين وستمائة (ذكرها البكرى وياقوت)

الخبر عن دولة دوناس بن حمامة بن المعز بن عطية المغراوى

لما توفى حمامة بن المعز ولى بعده ابنه دوناس بن حمامة ويكنى أبا العطاف ، واستولى على فاس وسائر ما كان لابيه من مدن المغرب وأعماله ، وخرج عليه لاول دولته ابن عمه حماد بن معنصر بن المعز بن عطية ، فجرت له معه حروب وخطوب وكثرت جموع حماد وغلب على ضواحى فاس وحاصرها حصارا شديدا ، وقطع عن عدوة القرويين جرية الوادى ، واحتفر السياج (١) المعروف بسياج حماد ، ويقال ان دوناس خندق به على نفسه واستمر حماد محاصرا لفاس الى أن هلك سنة خمس وثلاثين وأربعمائة ، فاستقامت دولة دوناس وانفسحت أيامه . وصار الناس فى هدنة ودعة ورخاء كثير .

وفى أيامه عظمت فاس وعمرت وكثرت أرباضها وقصدها الناس والتجار من جميع النواحى ، فأدار دوناس السور على أرباضها ، وبنى بها المساجد والحمامات والفنادق واستبحر عمرانها ، فصارت حاضرة المغرب من يومئذ ، ولم يشتغل دوناس من يوم ولى الى أن توفى الا بالبناء والتشييد ، وكانت وفاته فى شوال سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة .

الخبر عن دولة فتوح بن دوناس المغراوي

لما توفى دوناس بن حمامة ولى بعده ابنه الفتوح بن دوناس ونزل بعدوة الاندلس ، ونازعه الامر أخوه الاصغر ـ واسمه عجيسة ـ وكان شهما محربا ، فاستولى على عدوة القرويين واستبد على أخيه ، وافترق أمر فاس وأعمالها بافتراقهما ، وقامت الحرب بينهما على ساق ، وبنى الفتوح بعدوة

---

(١) هذا المحل هو المعروف اليوم بحومة السياج بفاس .

الاندلس قصبة منيعة بالموضع المعروف بالكدان وبنى عجيسة أيضا قصبة مثلها برأس عقبة السعتر من عدوة القرويين ، وكثرت العداوة بينهما واستحكمت فكانا لا يفتران عن القتال ليلا ونهارا ، وعظم الخوف بالمغرب وكثر الهرج وغلت الاسعار واشتدت المجاعة ، وظهرت لمتونة على أطراف البلاد فملكوها والامر لازال والحال ما حال وليس لاهل فاس شغل الا القتال ، واستمر الامر على ذلك ثلاث سنين الى أن بيت الفتوح عجيسة فاقتحم عليه عدوة القرويين ليلا فقتله ، واستولى على العدوتين معا .

والفتوح بن دوناس هذا هو الذى بنى باب الفتوح من مدينة فاس بسورها القبلى وبه عرف الى الآن ، وأخوه عجيسة هو الذى بنى باب عجيسة برأس عقبة السعتر من عدوة القرويين من ناحية الجوف وبه عرف أيضا الى الآن، فلما ظفر الفتوح بعجيسة وقتله أمر بتغيير اسم الباب المنسوب اليه فأسقط الناس العين من عجيسة وعوضوا عنها الالف واللام فقالوا باب الجيسة قاله فى القرطاس . وقال ابن خلدون : «خففوه لكثرة الاستعمال» .

ولم يزل الفتوح مستوليا على فاس الى أن دهم المغرب ما دهمه من أمر المرابطين من لمتونة ، وخشى الفتوح مغبة ذلك فافرج عن فاس وتخلى عنها وزحف صاحب القلعة بلكين بن محمد بن حماد الصنهاجى الى المغرب سنة أربع وخمسين وأربعمائة ودخل فاسا واحتمل من أكابرها وأشرافها عددا رهنا على الطاعة وقفل الى قلعته .

الخبر عن دولة معنصر بن حماد بن معنصر بن المعز بن عطية المغراوى

لما تخلى الفتوح بن دوناس عن ملك فاس وأعمالها قام بالامر بعده قريبه معنصر بن حماد بن منصور بن المعز بن عطية فبايعته قبائل مغراوة الذين بفاس وأحوازها ، وذلك فى رمضان سنة خمس وخمسين وأربعمائة. وكان معنصر ذا حزم ورأى وشجاعة واقدام ، وشغل بحرب لمتونة وكانت

له عليهم الوقعة المشهورة .

ثم غلب يوسف بن تاشفين على فاس وخلف عليها عامله وارتحل الى غمارة وفتح الكثير من بلادها حتى أشرف على طنجة ، ثم رجع الى حصار قلعة فازاز . فخالفه معنصر الى فاس وملكها وقتل العامل ومن معه من لمتونة ومثل بهم بالحرق والصلب ، واتصل الخبر بيوسف بن تاشفين وهو محاصر لقلعة فازاز فاستدعى مهدى بن يوسف الكزنائى صاحب مكناسة ليستجيش به على فاس ، فاستعرضه معنصر فى طريقه قبل أن تتصل أيديهما ، وناجزه الحرب ففض جموعه وقتله، وبعث برأسه الى وليه الحاجب سكوت البرغواطى صاحب سبتة .

واستصرخ أهل مكناسة بيوسف بن تاشفين فسرح عساكر لمتونة الى حصار فاس فأخذوا بمخنقها ، وقطعوا المرافق عنها وألحوا بالقتال عليها حتى اشتد بأهلها الحصار ، ومسهم الجد ، وبرز معنصر لاحدى الراحتين فكانت الدائرة عليه ، وفقد فى الملحمة ذلك اليوم سنة ستين وأربعمائة ، فلم يدر ما فعل الله به سبحانه وتعالى .

الخبر عن دولة تميم بن معنصر المغراوى

لما فقد معنصر بن حماد فى الملحمة التى كانت بينه وبين اللمتونيين بايع أهل فاس من بعده لابنه تميم بن معنصر فكانت أيامه أيام حصار وفتنة وجهد وغلاء .

وشغل يوسف بن تاشفين عنهم بفتح بلاد غمارة حتى اذا كانت سنة ثنتين وستين وفرغ من فتح غمارة صمد الى فاس فحاصرها أياما ، ثم اقتحمها عنوة ، وقتل بها زهاء ثلاثة آلاف من مغراوة وبنى يفرن ومكناسة وغيرهم ، وهلك تميم بن معنصر فى جملتهم حتى عجز الناس عن مواراتهم فرادى ، فاتخذوا لهم الاخاديد وقبروا جماعات ، وخلص من نجا من القتل

منهم الى تلمسان . قاله ابن خلدون .

وقال فى القرطاس : دخل يوسف بن تاشفين مدينة فاس الدخلة الثانية الكبرى فقتل بها من مغراوة وبنى يفرن فى أزقتها وجوامعها ما يزيد على العشرين ألف رجل ، وذلك سنة اثنتين وستين وأربعمائة ، وانقرضت دولة مغراوة من المغرب والبقاء لله وحده .

وكانت مدة دولتهم نحو مائة سنة . وفى دولتهم عظم شأن فاس وبنيت الاسوار على أرباضها وحصنت أبوابها ، وزيد فى مسجديها القرويين والاندلس زيادة كثيرة ، واتسع الناس فى أيام مغراوة فى البناء ، فعظمت فاس واستبحر عمرانها ، وكثرت خيراتها ، واتصل الامن والرخاء جل أيامهم الى أن ضعفت أحوالهم وجاروا على رعيتهم بأخذ أموالهم وسفك دمائهم والتعرض لحرمهم . فانقطعت عنهم المواد وكثر الخوف فى البلاد ، وغلت الاسعار ، وبلى الله عباده بشىء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات ، وذلك فى دولة الفتوح بن دوناس ومن بعده ، فكان رؤساء مغراوة وبنى يفرن يلجون على الناس دورهم فيأخذون ما يجدون بها من الطعام ، ويتعرضون لنسائهم وصبيانهم ، ويأخذون أموال التجار فلا يقدر أحد أن يصدهم عن ذلك .

وكان سفهاؤهم وعبيدهم يصعدون على قنة جبل العرض ، فينظرون الى الدور التى بالمدينة فاذا رأوا دارا بها دخان قصدوها وأخذوا ما وجدوا بها من طعام أو غيره ، ومن تعرض لهم فى ذلك قتلوه ، فلما ارتكبوا هذه العظائم سلبهم الله ملكه وغير ما بهم من نعمة ، والله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فسلط عليهم المرابطين فمحوا آثارهم من المغرب ونفوهم عنه بالكلية وطهروه من جورهم .

وفى أيامهم اتخذ اهل فاس المطامير فى بيوتهم للطحن والطبخ لئلا يسمع دوى الرحى فتقصدهم سفهاء مغراوة ، وفيها أيضا اتخذوا غرفا لا مراقى لها حتى اذا كان عشى النهار صعد الرجل بأهله وعياله اليها بسلم ، ثم يرفع السلم معه لئلا يدخل عليه فجأة . وكان من هذا شىء كثير .

وكان من الاحداث فى هذه المدة أنه فى ليلة الخميس الثالث والعشرين من رجب سنة احدى وثمانين وثلاثمائة ظهر نجم فى السماء ، كان فى رأى العين مثل الصومعة العظيمة ، طلع من جهة المشرق وتهافت جريا فيما بين المغرب والجوف ، وتطاير منه شرر عظيم فزع الناس منه واستغاثوا ربهم فى صرف مكروهه عنهم .

وفى سنة اثنتين وثمانين بعدها كان الكسوف الكلى الذى أذهب جميع القرص .

وفى سنة خمس وثمانين وثلاثمائة كانت الريح الهائلة التى نظر الناس فيها الى البهائم تمر بين السماء والارض نعوذ بالله من سخطه .

وفى سنة أربع وتسعين وثلاثمائة طلع الكوكب الوقاد وهو نجم عظيم ضخم الجرم كثير الضياء .

وفى سنة ست وتسعين وثلاثمائة طلع نجم عظيم من ذوات الاذناب شديد الارتعاد .

وفى سنة سبع وأربعمائة انقرضت دولة بنى أمية بالاندلس ، وقامت بها دولة بنى حمود فكانت مدتها نحو سبع سنين وانقرضت أيضا ، وافترق أمر الجماعة بالاندلس ، وصار الملك بها طوائف الى أن نسخ ذلك يوسف ابن تاشفين .

وفى سنة احدى عشرة وأربعمائة اشتد القحط ببلاد المغرب كلها من تاهرت الى سجلماسة وكثر الفناء فى الناس نسأل الله العافية .

وفى سنة خمس عشرة وأربعمائة كانت الزلزلة العظيمة بالاندلس اضطربت لها الارض وانهدت الجبال .

وفى سنة سبع عشرة وأربعمائة توفى الفقيه ابن العجوز بفاس .

وفى سنة ثلاثين وأربعمائة توفى الشيخ الفقيه أبو عمران الفاسى . قال فى التشوف : « أبو عمران موسى بن عيسى بن أبى حاج الفاسى ، أصله من مدينة فاس ، ونزل بالقيروان فأخذ عن أبى الحسن القابسى ،

ثم رحل الى بغداد فحضر مجلس القاضى أبى بكر بن الطيب ، ثم عاد الى القيروان وبها مات لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة ثلاثين وأربعمائة وكان مقدما فى الفضل والامانة » اه

انتهى الجزء الاول
ويليه الجزء الثانى
ويبتدأ

بالخبر عن الدولة الصنهاجية اللمتونية المرابطية وأوليتها

فهرس الموضوعات

(مقدمة)

(ترجمة المؤلف)

فهرس الأعلام والقبائل

حرف (ت)

حرف (ث)

حرف (ج)

حرف (ح)

حرف (خ)

حرف (د)

حرف (ذ)

حرف (ر)

حرف (ز)

حرف (غ)

حرف (ف)

حرف (ق)

حرف (ن)

فهرس الاماكن

حرف (ت)

حرف (د)

حرف (ذ)

حرف (ر)

حرف (ز)

حرف (س)

حرف (ش)

حرف (ص)

حرف (ك)

حرف (م)

حرف (ن)

حرف (هـ)

حرف (و)

حرف (ى)

